القلبُ السَّليم

السَّيِّد عَبْد الحُسَيْن دَسْتغيْب

ترجَمة
الشَّيْخ حُسَيْن كورَاني

الجُزْءُ الأوَّل

في العقائد

دار البلاغة

الطبعة الثانية: " ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م. ".

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

حب الله:

قال الله تعالى: " قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ". التوبة ٢٤.

من الواضح أن حب الله تعالى يحتل موقعاً مميزاً في الإسلام وقد تكفلت النصوص الإسلامية ببيان حجم هذا الحب ومداه.

ولا بد لكل منا أن يطول وقوفه في ظلال هذه الآية المباركة التي تبين أن حب الله تعالى يجب أن يكون أكبر من حب الإنسان لهذه القائمة الطويلة والعزيزة:

الآباء، الأبناء، الإخوان، الزوجة، العشيرة، الأموال، التجارة، البيت، وإذا رجعنا إلى الروايات نستوضحها بعض أبعاد هذه الآية المباركة نجد

أنفسنا أمام نتيجة واضحة هي أن المؤمن لا يحب إلا الله تعالى أو ما رضي الله بحبه أو أمر به. فالمحبوب في الأساس وذاتاً، واحد لا محبوب غيره، وهو الله تعالى، ومن حبه يتفرع حب المصطفى وآل بيته صلى الله عليه وعليهم أجمعين، وسائر مظاهر الحب المشروع المستمد مشروعيته من رضوان الله تعالى.

عن الإمام الصادق عليه السلام: القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله[١].

درجات المحبين:

سأل أعرابي أمير المؤمنين عليه السلام عن درجات المحبين ما هي؟ قال: أدنى درجاتهم من استصغر طاعته واستعظم ذنبه وهو يظن أن ليس في الدارين مأخوذ غيره فغشي على الأعرابي فلما أفاق قال: هل درجة أعلى منها قال: نعم، سبعون درجة[٢].

إن عالم حب الله إذن رحب مترامي الأطراف، ومن الخطأ أن نحدد له سقفاً هو عبارة عن مناجاة هادئة أو دعاء خاشع.

إن حب بعض المفردات التي تضمنتها الآية الشريفة التي تقدم ذكرها، قد يصل بصاحبه إلى حد لا يقر له معه قرار، بل قد يصل به الأمر إلى ورود المهالك في سبيل هذا الحب، فكيف بحب الله تعالى الذي يجب أن يكون الحب الأوحد في القلب المخلوق لاحتضان هذا الحبيب فقط، على نحو الأصالة والإستقلال بطبيعة الحال.

---

[١] - ميزان الحكمة ج ٢ / ٢١٣ نقلاً عن البحار.
[٢] - المصدر السابق عن المستدرك.

وهكذا يمكننا أن نفهم من بعيد ما ورد عن رسول الله المصطفى وأهل بيته الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين مما يكشف عن حب عارم لا يبارى، وهذه بعض النماذج:

١ – " وإن أدخلتني النار أعلمت أهلها أني أحبك[٣] ".

٢ – " فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك، وهبني يا إلهي صبرت على حر نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك[٤] ".

٣ – " عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً (....).

" ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك[٥] ".

٤ – " سيدي أنا من حبك جائع لا أشبع، أنا من حبك ظمآن لا أروى، واشوقاه إلى من يراني ولا أراه[٦] ".

وعندما نضع أمامنا " المفهوم النظري " لحب الله تعالى كما ورد في القرآن الكريم إلى جانب " التطبيق العملي " له في سيرة المصطفى وأهل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام، يمكننا أن ندرك بعدنا عن هذا المفهوم الأساس وضرورة العمل الجاد في هذا المجال.

صحيح أن البشر عموماً عاجزون عن الوصول إلى مرتبة المصطفى سيد

---

[٣] - المناجاة الشعبانية لأئمة آل البيت عليهم السلام.

[٤] - من دعاء كميل لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.

[٥] - من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

[٦] - عن الإمام الصادق عليه السلام، ميزان الحكمة.

الخلق وأفضل الرسل ومراتب آل بيته المعصومين، إلا أننا جميعاً مأمورون بالحصول على القلب السليم وهو القلب العامر بحب الله.

القلب السليم:

ورد عنهم - عليهم صلوات الرحمن – ما يوضح لنا حقيقة القلب السليم الذي لا ينفع غيره يوم القيامة، عن الإمام الصادق عليه السلام:

" القلب السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة[٧] ".

وإذا أراد أحدنا أن يعرف منزلته عند الله تعالى فلينظر إلى منزلة الله في قلبه التي تكشف بدورها عن نسبة السلامة في هذا القلب.

عن أمير المؤمنين عليه السلام:

من أحب أن يعلم كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن كل من خيِّر له أمران أمر الدنيا وأمر الآخرة فاختار أمر الآخرة على الدنيا فذلك الذي يحب الله ومن اختار أمر الدنيا فذلك الذي لا منزلة لله عنده[٨] ".

وإذا لم تكف هذه العلامة، فإن هناك علامتين مميزتين يستطيع أحدنا أن يعرف بهما منزلة الله عنده:

١ – عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

" علامة حب الله تعالى حب ذكر الله وعلامة بغض الله تعالى بغض ذكر الله عز وجل[٩] ".

---

[٧] - أصول الكافي – باب الإخلاص -.

[٨] - ميزان الحكمة – حب الله – ج ٢.

[٩] - المصدر السابق.

٢ – عن أمير المؤمنين عليه السلام:
القلب المحب لله يحب كثيراً النصب (التعب) لله، والقلب اللاهي عن الله يحب الراحة، فلا تظن يا ابن آدم أنك تدرك رفعة البر بغير مشقة، فإن الحق ثقيل مر[١٠] ".

الطريق إلى حب الله أو القلب السليم:

يبدأ الطريق إلى حب الله في نفس النقطة التي يبدأ فيها ترك حب الدنيا.
عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
" حب الدنيا وحب الله لا يجتمعان في قلب أبداً ".
وعن أمير المؤمنين عليه السلام"
" كيف يدّعي حب الله من سكن قلبه حب الدنيا ".
وهكذا نستنتج – والله العالم – أن الحب التام المكتمل لله تعالى لا يجتمع مع حب الدنيا في قلب أبداً، وبمقدار ما يتحرر الإنسان من أسر حب الدنيا يفوز بنعمة حب الله تعالى، أما إذا سكن حب الدنيا قلبه واستقر فيه فإنه لن يتذوق حلاوة حب الله تعالى على الإطلاق، ولعل الحديث التالي عن أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد ذلك:
يقول عليه السلام: " كما أن الشمس والليل لا يجتمعان، كذلك حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان " ومن الواضح أن زوال الليل تدريجي، وكذلك طلوع الشمس وغلبة ضوئها، كذلك حب الله وحب الدنيا.
وعنه عليه السلام: " من أحب لقاء الله سلا عن الدنيا ".

[١٠] - نفس المصدر وكذلك الروايات الآتية.

ولفظة " سلا " التي لا يتحقق مضمونها إلا تدريجياً بالإضافة إلى ما يكتنفه من معاناة تشير إلى هذا التدرج الطبيعي.
وإذا بلغ السلو عن الدنيا درجة " بغض الدنيا " و " والإكثار من ذكر الموت " ترتب عليه حب الله للإنسان، وهو أسمى من حب الإنسان لله.
عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " من أكثر ذكر الموت أحبه الله ".
عن عيسى عليه السلام: " ابغضوا الدنيا يحببكم الله ".
ومن الطبيعي أن الدنيا التي نؤمر ببغضها هي الدنيا الحرام التي تجتمع مع المعاصي – أما الدنيا الحلال التي هي طريق إلى رضوان الله تعالى فنحن مأمورون بالحرص عليها " تمنَّ الحياة لتطيع لا لتعصي ".
ومن الواضح أن الطريق إلى حب الله أو القلب السليم، طويل، مليء بالكبد محفوف بالمخاطر، ولذا اعتبر " الجهاد الأكبر ".
ويتوقف سلوكه على:
١ – معرفة الواقع.
٢ – " وتطهير القلب ".
أما الأول فلأن الواقع غيب أكثر من كونه شهادة، فعالم الشهادة إذا قيس بعالم الغيب لا يكاد يذكر، والواقعي الوحيد في هذا الوجود هو الذي يدرك هذه الحقيقة فيعطي الدنيا كل ما تستحق، ويعطي الآخرة كل ما يستطيع، فيزهد في الدنيا ويكتفي بأخذ " نصيبه " منها، وهذا يعني أنه يرصد كل " ما آتاه الله " للآخرة أي يبذله في سبيل الله تعالى فيعمل على إعمار الدنيا كما أراد سبحانه يقارع الظلم وينتصر للمستضعفين والمحرومين باعتبار ذلك جزءاً من العبادة التي أمر بها الحق عز وجل.

هذا هو الواقعي الوحيد، ومن عداه واهمون ورجعيون، متخلفون.
وأما الثاني – تطهير القلب – فلأن عدم تطهيره وتزكيته هو سبب الإنزلاق والإنحدار في دركات حب الدنيا والرضا بها والإطمئنان إليها.
والزبير، وخالد بن معمر[١١]، وشبث بن ربعي وأضرابهم من أوضح المصاديق المؤكدة لهذه الحقيقة، اللهم ارزقنا حسن العاقبة.
ولا يسقط المسلم في هوة سوء العاقبة فجأة وبلا مقدمات، بل ثمة عوامل تتفاعل في قلبه ونفسه حتى يواجه هذا المصير الكارثة، وهذه العوامل هي الأمراض القلبية في مجالي المعتقد والأخلاق، وما لم يحظ قلب كلٍّ منا بالرعاية الدائمة في هذين المجالين فإنه مهدد بسوء العاقبة دون شك.
" ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله ". الروم ١٠.

آثار حب الله:

حين نحاول استعراض آثار حب الله أو القلب السليم ونتائجها نجد أن ذلك يتجلى في كل الميادين:
١ – في إعمار الكون، فمن الواضح أن الكون لا يعمر إلا بالعدل وهو لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تم بناء الإنسان بناءاً سليماً يؤمن العدالة في كيانه ويؤهله لبسطها وتحقيقها في بيئته. ولا سبيل إلى ذلك إلا بالإسلام.
ستظل البشرية ترزح تحت نير الجور والظلم، ما لم تدرك هذه الحقيقة،

---

[١١] - كان من المجاهدين الأشداء في صفين، وأشرف على قتل معاوية، فأرسل إليه معاوية أن يكف هو وقومه من ربيعة عن الحرب وله ولاية خراسان ففعل، ولما ولاه معاوية خراسان مات قبل أن يصلها. وقعة صفين لنصر بن مزاحم – ٣٠٦.

وبهذا أخبرنا ربنا عز وجل: " ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ". طه .١٢٤
٢ – في تحقيق سعادة الفرد والمجتمع، قد لا يتاح للفرد أو للمجتمع أن يعيشا في عالم يعمره العدل فهل من طريق إلى السعادة آنذاك، نعم، ولكنه يتوقف على أن يستعمل الفرد فيما خلق له وينشغل بما هو غداً مسؤول عنه، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا عن طريق حب الله والقلب السليم، بذلك تحقق السعادة لنفسك، وهو السبيل إلى تخفيف أعباء معاناة المحرومين وإقامة التكافل الإجتماعي لكسر حدة الحاجة وإغاثة الملهوفين وتأمين سعادتهم بالنسبة الممكنة.
٣ – في مواجهة الظلم ومقارعة الطواغيت:
المحب لله تعالى لا يرى في الكون خطراً لغير الله، صاحب القلب السليم لا يجد الخوف من الطواغيت إلى قلبه سبيلاً، من هنا كان حب الله تعالى المصنع الوحيد للمجاهدين الأشداء على الكفار الرحماء بينهم الذين تزول الجبال ولا يزولون لأنهم " أهل البصائر " المتشوقون إلى لقاء الله، الباحثون عن سبل الوصول إليه ولو كانت بين مشتبك القنا وبارقة السيوف وأزيز الرصاص ودوي المدافع.
وفي تجربة ثورة الإسلام في إيران وامتداداتها في لبنان وفلسطين وأفغانستان ما يغني عن الإستدلال على ذلك.
٤ – في الحصول على السعادة الأبدية في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وفي الجنة التي أعدت للمتقين، والفوز برضوان من الله. وذلك هو الفوز العظيم.

حذار من الإسلام المحرف:

مهما قيل عن تحريف الإسلام على يد الطواغيت والمستشرقين وأضرابهم، فإن أخطر أنواع التحريف على الإطلاق نوعان:

الأول: فصل الإسلام عن السياسة.

الثاني: فصله عن الأخلاق.

ولا شك في أن دور الأصدقاء الجهلة – على حد تعبير الإمام القائد رضوان الله تعالى عليه – في ذلك أشد فتكاً من دور الأعداء.

إن فصل الدين عن السياسة وطرحه كمشروع لبناء الفرد المتقوقع على ذاته الذي لا يحمل هم المسلمين ولا يفكر بأمورهم، منصرفاً إلى ما يتصور أنه يضمن له وحده الجنة، هو من أخطر أنواع التحريف التي يجب الحذر منها.

وربما كان الأخطر منه فهم الإسلام نظاماً للدنيا مع الغفلة عن أن هذا النظام للدنيا هدفه انسجام الدنيا مع الآخرة، ومن هنا فإن من الخطأ الفادح صرف الإهتمام كله إلى نظام الدنيا بمعزل عن الآخرة، وإهمال البعد الأخلاقي أو إعطائه هامشاً عادياً...

وهل يمكن إقامة نظام الإسلام للدنيا بمعزل عن الأخلاق يا ترى.

إن الهدف من بعثة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هو تتميم مكارم الأخلاق، فإهمال الأخلاق إذن يعني إهمال رسالة المصطفى والتنكر لأهدافها.

وقد أدى الغزو الكافر لديار المسلمين إلى انبعاث هذين الخطين التحريفيين الأشد خطراً من كل ما عداهما... فإذا بنا بين منزوٍ مشلول، أو عالم للإسلام لا يتعهد قلبه بالرعاية ونفسه بالتطهير والتزكية إلا من عصم الله.

وقد أفرز حوالي نصف قرن من العمل الإسلامي بمعزلٍ عن الآخرة وبناء النفس – أو مع اهتمام بهما لا يكاد يذكر – أفرز نهجاً هجيناً في فهم الإسلام والعمل له عنوانه العام هو " الفصل العملي وشبه التام بين عالم الغيب والشهادة، والتركيز على عالم الشهادة فقط " وأهم ملامحه الآتي:

١ – انتقاء كل ما ينسجم مع روح العصر من نصوص الإسلام، وإهمال ما عداه.

٢ – التنكر للزهد والعرفان السليم أو إبقاؤهما في قعر الذاكرة نظرياً فقط.

٣ – الفهم الخاطيء للعقل وإعطاء الأهمية لهذا " العقل " بمعزل عن الروح والقلب والعقل السليم الذي هو ما عُرف به الرحمن واكتسبت به الجنان.

٤ – بناء الشخصية التي تحب " الإسلام " ولكنها لا تحب الله، أو فقل تجيد الحديث عن الإسلام ولكنها لا تعنى برعاية القلب وتطهيره ليصبح حرماً لله لا يسكنه غير الله.

وكانت ثورة الإسلام:

ومنّ الله تعالى بانتصار الثورة الإسلامية في إيران، وكان قائدها زاهداً عالماً بالله والإسلام وليس بالإسلام فقط، وكان قد أعد صفوة طاهرة من تلامذته الذين وفقه لله تعالى لرعايتهم، وبدأ الإهتمام بالبعد الأخلاقي للإسلام يعود إلى الواجهة.

وفي قناعتي أن أعظم إنجاز حققته ثورة الإسلام المظفرة هو هذا الإنجاز بالذات لأن الأمة تواصلت عبره مع عقيدتها السليمة وتاريخها المضيء وسيرة نبيها المصطفى وسنته صلى الله عليه وآله.

وهنا تكمن خطورة خط الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه على إبليس وكل

شياطين الأرض وطواغيتها ولذلك أصبح هاجسهم وما يزال.
وآية الله الشهيد دستغيب من أبرز تلامذة هذه المدرسة الخمينية المباركة، تدل على ذلك كلماته المبثوثة في كتبه المختلفة حول التفاني في الإمام، كما تدل على ذلك أشلاؤه المتشظية على طريق المحراب بأيدي المنافقين " مجاهدين خلق ".
ومهما قيل عن منهج الشهيد دستغيب فإنه يبقى ذلك المنهج القرآني، منهج القلب المتجول الملتقط من كل زهرة في رياض الإسلام شذى متضوعاً ليحوله إلى شراب طهور فيه شفاء لما في الصدور.
وما ضرَّ هذا المنهج أن لا يكون " أكاديمياً " يخضع لأصول البحث العلمي على الطريقة السائدة ما دام أن الفائدة التي تحصل منه لا تحصل من غيره.
ومن قال إنه يجوز للمنهج من وجهة نظر الإسلام أن يكون على حساب الفائدة.
هذا الكتاب:
كتب الشهيد دستغيب على قسمين: قسم كتبه وقسم درّسه فجُمع كما دُرِّس.
من القسم الأول: الذنوب الكبيرة، المعاد، القلب السليم، ويصرح ابنه في المقدمة الآتية أنه كان يعهد إليه بتدوين المصادر والعناوين الجانبية فليلاحظ ذلك.
وتتجلى في كتب الشهيد سعة اطلاعه على المصادر وكثرة مطالعاته، ورجوعه إلى المصادر غير الإسلامية ليأخذ ما يؤيد به رأي الإسلام، والسبب في ذلك حرصه على إقناع القارىء بأية طريقة ممكنة وهذا الأمر بالخصوص – الحرص على القارىء – يتجلى في هذا الكتاب بشكل واضح... كما تلمس

فيه علمه بزوايا النفس وتعقيداتها، وطرحه الأفكار المعمقة بالبيان الواضح والسهل.
إن واجب كل مسلم أن يتعهد قلبه بالرعاية في مجالي العقيدة والأخلاق، وكتاب القلب السليم منهج عملي لهذه الرعاية الواجبة، ومن هنا كان على قسمين:
الأول في العقائد، والثاني في الأخلاق.
ولا يفوتني هنا أن أسجل أن هذا الكتاب القيم قد أكمل إقامة الحجة علي بعد أن أقامها علي في البداية " الجهاد الأكبر " للإمام رضوان الله عليه. وبين إقامة الحجة والإلتزام بون شاسع.
وكانت تجربتي مع القلب السليم قبل حوالي خمس سنوات حين ترجمت آنذاك أكثر القسم الأول الذي يقدم الآن للطبع على أمل أن أوفق لتقديم القسم الثاني قريباً بحوله تعالى.
رحم الله شهيد الإسلام آية الله دستغيب وأثابه على صدقاته الجارية الفضل من عنده، ورزقنا شفاعته بالنبي وآله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.
والحمد لله رب العالمين.

حسين كوراني
بيروت ٦ ذو الحجة ١٤٠

مقدمة ابن المؤلف

منهج الأنبياء:

" هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ". الجمعة ٢.

يستفاد من صريح آيات القرآن المجيد وأخبار أهل البيت عليهم السلام أن خالق العالم جعل الهدف الأساسي والمنهج التبليغي الرسمي لمبعوثيه أمرين مهمين هما عبارة عن التعليم والتزكية.

وهذان الهدفان معاً يقعان – في الحقيقة – في طريق ومسير هدف أكثر أساسية وهو الكمال الإنساني، والتعليم والتزكية لازم وملزوم ومتلاصقان بحيث أنهما لا ينفصلان عن بعضهما بوجه من الوجوه أبداً، ولا يوجد طريق للوصول إلى " الكمال الإنساني " غير هذين الأمرين، ولولا ذلك لما جعلهما الخالق العطوف في منهج أنبيائه وخطة عملهم.

التعليم والتزكية أم العلم والعمل:
١ – التعليم أساس في منهج الأنبياء كما يستفاد من نص القرآن المجيد " يعلمهم الكتاب والحكمة " والمراد بالتعليم أمران علم القرآن وسر الخلقة وهما في الحقيقة أمر واحد: علم الكتاب التشريعي والتكويني، فمن أراد الكمال والسعادة يجب أن يتعلم القرآن يقرأه ويعمل به.
بالآيات التي هي حول توحيد الله وأسمائه وصفاته وأفعاله يقوي أصول اعتقاده.
ويطبق أحكامه العملية وينفذها فيعمل بالواجبات ويترك المحرمات.
وبآيات المعاد يقوي في نفسه الشوق إلى الجنة والخوف من النار فيحمله ذلك على الأعمال الحسنة ويبعده عن القبائح والرذائل.
ومن آيات الحكمة في القرآن يدرك ما يخفى على الحس ليعرف بوضوح من أين أتى، وإلى أين يذهب؟ هو وسائر المخلوقات لماذا جاؤوا؟ ولماذا يذهبون؟ وما هو الهدف من هذه المسيرة الطويلة وما هو الهدف من انتقال الموجودات من حال إلى حال، وهذا ما وردت الإجابة عليه في جميع أنحاء القرآن الكريم.
إذا لم تعمل بعلمك فأنت غصن بلا ورق:
٢ – التزكية: المرحلة الثانية في المنهج التبليغي للأنبياء ومهمتهم هي تطهير الناس من الرذائل الأخلاقية وقبائح النفس وبعبارة أخرى: إعداد الأرضية الصالحة ليثمر العمل والإعتقاد، من البديهي أنه لو أودع أفضل أنواع البذور – مع تعهد دائم بالري – في تربة غير صالحة، فإنه ليس فقط لن ينتج، بل إن البذر يذهب هدراً...

من هنا قلنا إن منهج الأنبياء هو شيء آخر بالإضافة إلى التعليم وهو التزكية أي استعداد النفس وجاهزيتها لإثمار الإعتقاد والعمل، ويجب أن يقترن التعليم بالتزكية ليتحقق الهدف الأصلي.
إذا لم يتم التخلص من المرض الباطني فإن ما هو سبب للهداية من الناحية التعليمية يعطي نتيجة عكسية كما يستفاد من نص القرآن المجيد قال تعالى (حول المنافقين)
" في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ". البقرة ١٠.
" وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ". بني إسرائيل ٨٢.

تزكية العقل والقلب:

يعلم مما تقدم أن لتعليم الآيات ارتباطاً بأمرين:
الأول: الحكمة وهي سر الخلقة والأمور المرتبطة بالإعتقاد بالمبدأ والمعاد وبعبارة أخرى " معرفة الحق ".
الثاني: بيان الأحكام التي هي عبارة عن الحلال والحرام.
ولأجل تهيئة الأرضية المناسبة لبلوغ الإعتقاد والعمل مرحلة الثمرة فإن " للتزكية " أيضاً ارتباطاً بأمرين: الخارج والداخل، أي أنه لا بد للوصول إلى هدف تطهير النفس وتنمية الإعتقاد والعمل ليصبحا مثمرين – لا بد – من إزالة الموانع أي الأشواك والتراكمات التي تكون سبباً لزوال أثر هذا الإعتقاد والعمل وهذا مرتبط بالأعضاء (الخارج) والقلب (الداخل).

الذنوب البدنية والقلبية:

التزكية في الأفعال هي ترك " الكبائر " وما دام الشخص لم يجتنب جميع الكبائر فلا ينبغي أن يتوقع أن تكون أعماله مفيدة قال تعالى في القرآن المجيد:
" إنما يتقبل الله من المتقين ". المائدة ٢٧.
واعتبر سبحانه تزكية النفس وتطهير الباطن شرط الهداية والسعادة فقال:
" الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ". الأنعام ٨٢.
كلما تجاوز الإنسان حد الإعتدال والصراط المستقيم فقد ظلم، وعليه فما دام في داخل الشخص شيء مما يعتبره الشرع والعقل رذيلة أخلاقية فإن إيمانه لن ينفعه حتى إذا كان مؤمناً لأنه " ألبس إيمانه بظلم ".
وفي مكان آخر يقول تعالى " ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ". الحشر ٩.
نفهم أنه إذا كان شخص بخيلاً – لا سمح الله – فهو بعيد عن الفلاح مهما كان مؤمناً وقد ورد في الروايات ما مضمونه: " المؤمن البخيل أقرب إلى النار من الكافر السخي ".
وبناءاً على هذا يعلم جيداً أنه ما لم يتم التخلص من الرذائل الأخلاقية فلا مجال للتحلي بنصيب من الكمال الإنساني والنجاة الحقيقية.

منهج علماء الدين:

منهج الأنبياء في التعليم والتزكية يجب أن يستمر بتنفيذه خلفاؤهم، وفي زماننا الحاضر الذي هو زمن غيبة الإمام فإن هذا المنهج الخطير على عاتق

المجتهدين الفقهاء العدول يستفاد ذلك من آية النفر[1] والروايات الواردة[2] فهي بمجموعها تدل على أن الفقاهة والعدالة مصدر منهج تعليم الناس وتزكيتهم.

وبناءاً عليه يجب أن يكون خليفة الإمام هو الشخص الذي بلغ في علم أصول العقائد حد اليقين والكمال حتى يجعل الناس أصحاب يقين بالمعارف، ويجب أن يكون عالماً تمام العلم بالأحكام الإلهية يعرّف الناس واجباتهم ووظائفهم الدينية، وأيضاً يجب أن يكون من حيث تهذيب النفس والتخلص من الرذائل الأخلاقية منزهاً متحرراً من جميع القيود بحد أنه يصبح أصل وجوده منشأ لتهذيب الآخرين ليستفيد الخلق من قوله وفعله كما ينبغي وعلى أحسن وجه.

تأليف " الذنوب الكبيرة " خطوة أساسية:

واجب العلماء إذن تعريف الناس بالحلال والحرام أولاً، ومع أن هذا هدف أساسي واضح فإنه لم ير إلى الآن كتاب بالفارسية جامع ومنهجي يجمع الذنوب الكبيرة كلها مع ما يتفرع عنها ويضعه في متناول الناس، وقد كان هذا التوفيق الكبير والموهبة الإلهية من نصيب حضرة آية الله دستغيب في السنوات الأخيرة فقد بذل جهداً كبيراً خلال عدة سنوات على جمع وتأليف هذا الكتاب الذي حظي باهتمام الناس المتعطشين للحق وإقبالهم الكبير عليه.

القلب السليم تتمة الذنوب الكبيرة:

لحسن الحظ فإن المؤلف المحترم الذي جعل هدفه الأساسي إرشاد

[1] - " فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ". التوبة – ١٢٢.

[2] - من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه والروايات الأخرى.

الناس إلى التزكية وتهذيب النفس واصل جهده في المرحلة الثانية أي الرذائل الأخلاقية والذنوب القلبية واشتغل في السنوات الأخيرة بتأليف وتدوين الكتاب الحاضر الذي هو في الحقيقة متمم لكتاب الذنوب الكبيرة وقد أوكل إلي أمر استنساخ وتصحيح وتنظيم المطالب وتدوين العناوين – على غرار الذنوب الكبيرة – والشكر لله تعالى أن هذا الكتاب أصبح بين يدي طالبي الحقيقة ومحبي الهداية في أفضل حلة من حيث الورق والطبع والتجليد.

واجب القارىء العزيز:

أرى من واجبي أن أذكر القراء الأعزاء الذين يحبون هذه المضامين أن واجب كل منهم في حدود استطاعته أن ينشر بين أصدقائه ومعارفه وجود هذا الكتاب ونظائره ويحثهم على اقتنائه والعمل بمضامينه ليكونوا بذلك قد عملوا بواجبهم الديني والوجداني لأن هذا في حد ذاته أمر بالمعروف متضمن للنهي عن المنكر...

والأمر الآخر الذي ينبغي للقراء الإهتمام به هو تقديم الشكر – في حدود المستطاع – للأشخاص الذين يبذلون الجهد في تأليف هذه الكتب ونشرها حتى يكون ذلك حافزاً للكتاب والناشرين على مواصلة الخدمة.

محمد هاشم دستغيب
أول ذي القعدة ١٣٩٢ هـ.

القلب السليم

ذنب القلب:
لا يخفى على أي عاقل أن الإنسان له بدن ونفس، ظاهر وباطن، أعماله الحسنة والقبيحة أيضاً على قسمين:
الأول: أعماله التي يؤديها بواسطة البدن كالصلاة والصم والحج والإنفاق، ومثل شرب الخمر ولعب القمار والزنا.
والثاني: ما يكسبه الإنسان بقلبه ويعطيه مكاناً فيه كالإيمان والحب والخوف والرجاء، والكفر والنفاق والبغض والكبر والرياء.
وكما أن الأعمال السيئة التي تؤدى بواسطة البدن والتي هي مورد لنهي الله يجب على كل فرد معرفتها والإجتناب عنها، فكذلك الأشياء التي تكسب بالقلب وهي مورد نهي الخالق عز وجل أيضاً يجب معرفتها والإجتناب عنها. ويجب أن يسعى الإنسان كي لا يقبل قلبه بها.
القرآن والذنوب القلبية:
لقد حذر الله المسلمين من الذنوب القلبية في عدة مواضع من القرآن

الكريم، من جملة ذلك يقول تعالى: " ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ". البقرة ٢٢٥، وفي هذه السورة يرد التعبير عمّن كتم الشهادة بإثم القلب[1].
ويقول تعالى: " وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ". البقرة ٢٨٤. وهذه إشارة لمثل الكفر والنفاق والرياء.
ويقول تعالى " إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ". الإسراء ٣٦.
وفي سورة النور يقول سبحانه: " إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم " ففي هذه الآية نجد أن حب شيوع الفاحشة وهو أمر قلبي اعتبر إثماً يستتبع العذاب.
وفي سورة الأنعام: " وذروا ظاهر الإثم وباطنه ". الأنعام ١٢٠. يقول بعض المفسرين أي ذروا الذنوب التي محلها البدن، والذنوب التي محلها القلب، وسنذكر سائر الآيات والروايات الواردة عند تعداد الذنوب القلبية.

إثم القلب أم مرض القلب:

اعتبر إثم القلب في عدة مواضع من القرآن الكريم مرضاً للقلب، ومن جملة ذلك قوله تعالى في سورة البقرة عن المنافقين: " في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ".
عندما يكون القلب مطهراً من أنواع العذاب والأمراض فهو القلب السليم، وسبب السعادة، وفي سورة الشعراء يقول تعالى: " يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم ". أي أن الأمور الإعتبارية الدنيوية كالمال تنفع للحياة الدنيوية فقط، أما الحياة بعد الموت فلا ينفع فيها إلا القلب

[1] - إشارة إلى قوله تعالى: " فإنه آثم قلبه ". البقرة ٢٨٣.

السالم، فهو وحده الذي ينفع الإنسان، ثم إن أحد أسماء الجنة هو " دار السلام " أي دار الأشخاص الذين يكونون سالمين من كل مرض تلوث، وعليه فالأشخاص الملوثون بالذنوب يجب أن يبقوا في مستشفى جهنم حتى ينقوا ويطهروا من تلك الأوساخ ويصحوا عندها يمكنهم الدخول إلى الجنة، اللهم إلا إذا كانت ذنوبهم من النوع الذي لا ينفع معه علاج كالكفر والنفاق، بغض الله وأحباء الله، هذه الأمراض تسبب بقاءهم في ذلك السجن أبداً...

ما هو مرض القلب:

كما أن لبدن الإنسان سلامة ومرضاً، فكذلك قلب الإنسان له سلامة ومرض، سلامة الجسم أن تكون تمام أجزائه صحيحة تؤدي دورها وتترتب عليها آثارها التي خلقت من أجلها، ومرضه في نقص عضو منه وذهاب خاصيته، ونتيجة ذلك الألم وصعوبة الحياة.

سلامة القلب في أن تظهر منه وتترتب عليه جميع خصائص الإنسانية وآثارها بأن يكون القلب يملك اليقين والإطمئنان بالنسبة للمعارف والحقائق والعقائد. وأن يكون مطهراً من جميع الأمور القبيحة والحيوانية.

ومرض القلب في الريب والإنكار والشك والحيرة والصداقة والعداوة في غير محلهما والخوف والأمل في غير محلهما أيضاً والحقد والحسد والبخل وغيره. بالتفصيل الذي يأتي في هذا الكتاب وجميع هذه الأمراض خلاف فطرة الإنسان الأولية.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " إن للجسم ستة أحوال الصحة والمرض والموت والحياة والنوم واليقظة، وكذلك الروح فحياتها علمها وموتها جهلها ومرضها شكّها وصحتها يقينها ونومها غفلتها ويقظتها حفظها[٢] ".

---

[٢] - بحار الأنوار ج ١٤ / ٣٩٨.

ويقول عليه السلام أيضاً: " ألا وإن من البلاء الفاقة وأشد من الفاقة مرض البدن وأشد من مرض البدن مرض القلب. ألا وإن من النعم سعة الحال وأفضل من سعة الحال صحة البدن وأفضل من صحة البدن تقوى القلب ".

أي الطهارة من أنواع الأوساخ والذنوب.

خطورة مرض القلب:

كما أنه عندما يمرض عضو من البدن فإن الإنسان يعيش حالة من الألم والضيق وتصبح الحياة صعبة عليه، فكذلك عندما يبتلى الإنسان بواحد من أمراض القلب فإنه إضافة إلى الإبتلاءات التي تواجهه بعد الموت كما أخبر بذلك الشرع فإنه في هذه الدنيا يعيش الألم والضيق، وتضغط عليه الآلام النفسية إلى حد أنه يرجح الموت على الحياة ويصبح مستعداً للإنتحار.

مثلاً: كما أن ألم الأسنان ينسي الإنسان المفرحات ويحرم القلب والنفس من كل لذة وينغص الحياة، فكذلك ألم الجهل، الكبر، الحسد، العجب، وسائر الأمراض النفسانية، لها هذه الآثار.

الشخص الحسود مثلاً يتألم، ويطير النوم من عينيه وينطوي على نفسه لأن شخصاً آخر حصل على نعمة أو وصل إلى مقام أو مرتبة، ويظل يحترق في هذه النار، منتظراً زوال تلك النعمة عن صاحبها، وغالباً ما لا يصل إلى هدفه وقد يموت من نار هذه الحسرة.

ومن الثابت بالتجربة والعلم أن الأمراض النفسية تؤدي إلى ألم البدن ومرض الجسم لأن الآلام الداخلية تؤثر على الأعصاب والأجهزة الأساسية للبدن، مما يسبب أن لا تؤدي أجزاء مجمل الجسم وظائفها بشكل صحيح وهذا سبب كل مرض.

إثم القلب من مرض القلب:

لأن القلب سلطان الجسد وأقوال اللسان وجميع الأفعال الإختيارية مرتبطة بإرادة القلب، فمن الواضح أنه كلما كان القلب مريضاً فإن الأقوال والأفعال تكون كذلك أيضاً.

من هنا يصبح قول الإنسان نشازاً، وفعله قبيحاً، وكل ذلك سيكون خلاف الفطرة الإنسانية وضد الصراط المستقيم للدين.

وباختصار كل ذنب يصدر من شخص فهو ناتج عن مرضه القلبي، إذن يجب على كل شخص عقلاً وشرعاً أن يسعى في معالجة مرض قلبه وأن يهتم بسلامة قلبه أكثر مما يهتم بسلامة بدنه. الجسم سيء لأن القلب فاسد، ظلم الجيش دليل على ضعف الملك[٣].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن أهل المعرفة: " يرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم، وهم أشد إعظاماً لموت قلوب أحيائهم[٤] ".

وما ذلك إلا لأنهم يعلمون أن موت البدن حرمان من ملذات بضعة أيام من الدنيا وأي ملذات يا ترى... إنها الملوثة بآلاف الآلام، ولكن موت القلب حرمان من السعادات الدائمة واللذائذ الخالصة الأبدية وعدم الحصول على الحياة الإنسانية الطاهرة في الدنيا والآخرة.

بناءاً عليه لا يمكن اعتبار مرض النفس سهلاً، ولا يصح أن يعتبر التسامح في علاجه مبرراً، عيناً كما أن التسامح في علاج مرض البدن ليس

---

[٣] - مضمون بيت شعر فارسي.

[٤] - نهج البلاغة الخطبة ٢٥٩.

مبرراً عقلاً لأنه يؤدي إلى الموت. والتسامح في مرض القلب ينبغي اجتنابه بطريق أولى لأنه يؤدي إلى الشقاء الأبدي.

شقاء المجتمع من مرض القلب:

بعد التدقيق في معرفة منشأ أنواع فساد المجتمع البشري المتزايدة يوماً بعد يوم يعلم أن كل فتنة وفساد وخيانة وجناية ترى من أي شخص سببها نوع من أنواع مرض النفس وهو الذي حمله على هذا التصرف غير الإنساني.

أنواع الظلم، إراقة الدماء، التنكر للقيم، الإنحرافات الجنسية، التلوث، أنواع الفحشاء، الإدمان على الكحول والمواد المخدرة، انحلال عرى الأسر، كثرة حالات الطلاق، القسوة، الغلظة، الإنتحارات وغيرها، كله ناتج عن عدم سلامة النفس ونقص " الإنسانية " ومن الواجب على من بيدهم أزمة الأمور أن يبذلوا الجهود النافعة في مجال الصحة النفسية للبشرية وأن يهتموا بذلك أكثر من الإهتمام بصحة البدن.

وفي حين أننا نجدهم – ومن أجل حفظ الصحة البدنية – قد أقاموا المؤسسات الكبيرة وبنوا المستشفيات والمستوصفات، والكليات الطبية، ومعامل صناعة الأدوية، فأي مؤسسات يا ترى تعمل لكشف الأدوية التي تخلص الإنسان من ألمه النفسي.

إن كل هذه المؤسسات لصحة البدن ضرورية وجيدة، ولكن لماذا لا يخطون خطوة واحدة لأجل الحيلولة دون موت الإنسانية، بل أنهم يعملون عمداً أو عن غير عمد عبر الوسائل الإعلامية التي يمتلكونها للقضاء على سلامة النفوس والقضاء على الأخلاق الإنسانية وخنق المجتمع البشري في أسر الشهوات والأهواء والتحلل.

الحسد نموذج لمرض القلب:

ذكر في الصحف أن أطباء سويسرا شكّلوا فريقاً للبحث في علاج الحسد، هذا يدل أن الأطباء يعتبرون الحسد في عداد الأمراض التي تهدد سلامة البشر، وكما يعملون على معالجة السل والسرطان تصدوا لعلاج مرض الحسد.

نحن لا نعلم كيف وبأي وسيلة سيبدأ هؤلاء الأطباء عملهم وهل سيحالفهم التوفيق أم لا.

على كل حال إن أصل هذا التفكير المقدس يبعث على الأمل، جاء في المقال: لقد عرف البشر مرض الحسد منذ وقت بعيد، ولكنهم لم يجدوا طريق علاجه، ولا يعرفون بأي دواء يمكن القضاء على هذا المرض الذي لا يبقي ولا يذر، ولم تنفع في هذا المجال حتى تعاليم الشرائع والأديان وتوصياتها وكذلك التعاليم الأخلاقية، وظلت البشرية تعاني من هذه النار التي تلتهب في وجود الحاسدين وضمائرهم.

في اعتقادنا أن الحسد أخطر من السرطان، لأن السرطان يهلك في السنة مئات الأشخاص بينما الحسد يستطيع أن يقضي في لحظة على ملايين الأشخاص. أكثر الحوادث التاريخية التي صنعها الحرب والصراعات هي وليدة الحسد، الإسكندر المقدوني كان من أولئك الذين لهم طبع النمر، وكان ينظر باستمرار إلى الدول التي كانت في عصره بمنظار الحسد، وكان الحسد أحد أسباب هجومه على إيران. يقال أنه عندما أحرق تخت جمشيد وكانت ألسنة النار تتصاعد من أبواب القصر وجدرانه كان الإسكندر في حالة سكر من الشراب... وكان يضحك وقد امتزج فرحه بالغضب، وقد اعتبر هذا الغضب الممزوج بالبسمات السكرى أشعة من نار الحسد التي كانت مشتعلة في قلبه

باستمرار.
وقد كتبوا عن هتلر الذي ارتكب في الحرب العالمية الثانية تلك الفجائع والمجازر أنه كان رجلاً حسوداً جداً حتى أنه لم يكن يستطيع تحمل لون ثياب الآخرين إذا أعجبه هذا اللون، وكان يقضي على ذلك اللباس الذي انصبّ حسده عليه بأي طريقة ممكنة.
وقد قال في أحد تصريحاته: أنا لا أستطيع أن أرى أني كبرت وشبت وجاء الشباب ليحتلوا موقعي.
ويعتقد أحد الكتّاب الأخصائيين في مادة التاريخ أن سبب ارتكاب هتلر لهذه المجازر هو الحسد، وأنه كان يريد أن يطفيء نار حسده عن طريق الإفراط في التشدد في الطرق التي اعتمدها[٥].

نظرة على هذه المقالة:

١ – إنه لمن المؤنس أن يتنبّه جمع من علماء سويسرا لواحد من أمراض البشر النفسية. لكن يجب أن يعلموا أن علاجه القطعي وعلاج سائر الأمراض النفسية التي لم يعرفوها خارج عن قدرة البشر وإنما علاجها بيد الله الذي يعلم السر والعلن.
إن علاج هذه الأمراض هو بالرجوع إلى الطبيب الروحاني والوصفة الطبية للكتاب السماوي أي القرآن المجيد الذي يوجد فيه دواء كل مرض نفسي.
٢ – ذكر في المقال – كما مرّ – أن تعاليم الشرائع والأديان لم تؤثر عملياً في علاج الحسد، فإذا كان المراد أن الناس لم يعملوا بهذه التعاليم حتى

[٥] - جريدة " پارس " العدد ٣٣٦٣ بتاريخ: ٨ / ١٠ / ١٣٤٨ هجري شمسي.

يشفوا، فهو صحيح، وإلا فإنه لا نقص ولا قصور في تعاليم القرآن المجيد، وهل وجدنا أحداً من المسلمين أراد معرفة علوم القرآن والعمل بتمام تعاليمه ثم لم يشف من جميع أمراضه النفسية.

كلما يُرى بين المسلمين من أمراض نفسية سببه الخروج على أوامر القرآن المجيد وتعاليمه.

كلما هو موجود سببه قامتنا وغير المتناسقة، وإلا فإن تشريفك غير خاف على أحد[٦].

سلامة الجسد والروح:

من أجل سلامة الجسد تجب مراعاة أمور منها استئصال الزوائد التي تكون مع الجنين في الرحم وترافقه وتنحصر فائدتها بالمدة التي يكون فيها الجنين في الرحم وبعد خروجه يصبح بقاؤها ضرراً، مثل ذلك: (السَلى) أي الجلد الرقيق الذي يغلف جسد الجنين والصرّة والزائدة اللحمية التي يجب استئصالها بالختان فإن عدم استئصال هذه الأجزاء يهدد سلامة الجسم.

كذلك النفس الإنسانية أول تكوينها وتعلقها بالجسد، ترافقها بعض الصفات لبعض الحِكم، أو تعطى للإنسان بعض الصفات لاستعمالها في موارد خاصة تعود على الإنسان بالنفع أي تلك الموارد التي يحددها العقل والشرع ومثل ذلك الجهل، الحرص، البخل، الظلم، العجلة، المجادلة، وأمثال هذه، وقد أشير في القرآن الكريم إلى كل هذه الصفات التي رافقت الإنسان من الأول: قال تعالى: " إنه كان ظلوماً جهولاً ". الأحزاب ٧٢.

---

[٦] - مضمون بيت شعر فارسي.

وقال تعالى: " ومن يوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون ". الحشر ٩.
وقال تعالى: " خلق الإنسان من عجل ". الأنبياء ٣٧.
وقال تعالى: " وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ". الكهف ٥٤.
وقد وصف الإنسان في القرآن الكريم بأوصاف رذيلة مثل: كفور، جزوع، عجول، وأوضح القرآن الكريم أن الكافر أصم أعمى أخرس أسوأ من الحيوانات إلى غير ذلك من أنواع الأمراض الروحية التي ذكرت في القرآن الكريم، وتأتي طرق معالجتها في هذا الكتاب بالتفصيل.
ويجب أن نعلم إجمالاً أن كل واحدة من هذه الصفات يجب الإقتصار في الإستفادة منها على الموارد التي أباحها العقل والشرع بالكمية المحددة من قِبلهما وفيما عدا ذلك تجب مجاهدة النفس والإمتناع عنها مثلاً صفة البخل بالنسبة للمال، من الموارد التي نهى الشرع المقدس عن صرف المال فيها يجب أن يكون الإنسان بخيلاً به بحيث لا يسمح بصرف ولو درهم واحد من ماله في الحرام وفي غير محله.
وبالنسبة للوقت يجب أن يكون الإنسان بخيلاً في وقته بحيث لا يصرف آن واحد منه في الحرام حتى يصل إلى حيث لا يصرف آناً واحداً ولحظة واحدة من وقته هدراً.
إذن صفة البخل موجودة في قرارة نفس الإنسان حتى لا يصرف ماله ووقته في غير مرضاة الله ويبخل بهما عن الموارد التي تسخطه سبحانه، ويسخو بهما ويصرفهما في طريق مرضاته عزّ اسمه.
أعطوك الفأس لكي تحتطب ولم يعطوك الفأس لتضرب به هام الناس[٧].

[٧] - ترجمة بيت شعر فارسي.

حفظ البدن من الأوساخ:

من الأمور التي لا بد من رعايتها لسلامة البدن إزالة أدران الجسم وما زاد من الأظافر والشعر، توضيح ذلك أن الغذاء الذي يتناوله الإنسان يتحول القسم المفيد منه إلى جزء من البدن والزائد منه يدفعه الجسم بصورة فضلات أو عرق أو زيادة أظافر وشعر وأدران تعلق بالجسم وتغطي الجلد وتؤثر على طريق تنفس الجسد، ويجب أن يتخلص الإنسان من هذه الزوائد مرة في الأسبوع على الأقل بالدخول إلى الحمام واستئصال الزوائد المذكورة وإلا فإن سلامة جسده مهددة بالخطر.

كذلك يجب لسلامة الجسد الحفاظ على نظافة الثوب والمسكن والهواء والغذاء من أنواع التلوثات.

النفس أيضاً يجب حفظها من الأوساخ:

من أجل حفظ سلامة النفس يجب أيضاً اجتناب الأشياء التي تسبب المرض النفسي مثل مرض الغفلة والقسوة، وللحيلولة دون حدوث هذه الأمراض يجب التداوي بالأدوية التي ذكّر بها القرآن المجيد.

مثلاً: الأشخاص الذين يبتلون بتدبير البدن وتأمين وسائل الراحة له فيضطرون إثر ذلك للإنشغال بالأمور المادية، ويغفلون نتيجة لذلك شاؤوا أم أبوا عن ذكر الله والآخرة يعني حياتهم الأبدية، أللهم إلا " رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة ". النور ٣٧.

طبعاً هؤلاء قلة وأكثر الناس يبتلون بمرض الغفلة والقساوة من جراء مثل هذه الإنشغالات الدنيوية، هؤلاء لا علاج لمرضهم إلا الأدوية التي ذكّر بها القرآن والتي أهمها الصلوات الخمس. قال تعالى: " وأقم الصلاة لذكري ". طه ١٤.

تعاليم القرآن علاج للأمراض:
يجب أن يسعى الإنسان حتى لا تكون الأشياء التي يراها بعينه أو يسمعها بأذنه وهكذا سائر الأعضاء مضرة له وتحديد كون هذا الشيء أو ذاك مضراً هو من اختصاص العقل السليم والشرع المقدس.
وبشكل عام فإن كل الأشياء التي جاء بيانها في شرع الإسلام من التعاليم التي يجب العمل بها أو تلك التي يجب الإجتناب عنها، كلها تهدف إلى تقدم النفس في الكمالات الإنسانية.
وباختصار إن الدين الإلهي جاء لإصلاح الأنفس وسلامة القلوب وبذلك تتحقق سعادة الإنسان المادية والروحية ويصل إلى السعادة المطلقة في العالمَين.
معالجة النفس ليست من اختصاص الإنسان المادي:
أمراض الجسد يستطيع الإنسان إدراكها وفهمها بحواسه ويستطيع عن طريق السعي والتجربة فهم أدويتها التي أودعها الله سبحانه في عالم المادة.
أما الأمراض النفسية فلأن أصل النفس هي من عالم الغيب وما وراء الطبيعة والمادة، ولأن أمراضها ليست مادية أيضاً فلا يستطيع البشر العادي فهمها أو اكتشاف أدويتها، والإحاطة التامة بالمؤسسة النفسانية المعقدة ليست في وسع البشر، ولا يستطيع الإحاطة بها إلا صانعها وهو الله العالم بالظاهر والباطن، وأما الناس فلا علم لهم بهذا أبداً.
ولقد اختار الله سبحانه جمعاً من أفراد البشر وأطلعهم على هذه الأسرار وجعلهم أطباء روحيين لإرشاد الناس وجعل سيدهم خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ومنّ على البشر ببعثته. قال تعالى: " لقد

منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ". آل عمران ١٦٤.
إن المراد من التزكية طهارة القلوب من أنواع الأدران النفسية التي ستذكر في هذا الكتاب، ويعلم جيداً من هذه الآية الشريفة أن الهدف من بعثة الأنبياء إضاءة القلوب بنور العلم والتطهير من أنواع الأوساخ واكتساب الملكات الإنسانية الفاضلة كما ذكر هو صلى الله عليه وآله وسلم: " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ".

القرآن يهب الحياة:

وقد أرسل الله سبحانه مع هذا النبي العظيم كتاباً تعاليمه الطبية الروحية تهب الحياة للنفوس وتحيي القلوب.
يقول تعالى: " يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ". الأنفال ٢٤.
ويقول أيضاً: " أومن كان ميتاً فأحييناه ". الأنعام ١٢٢.
ويقول سبحانه: " من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ". النحل ٩٧.
والخلاصة أن القلوب التي تموت بسبب الكفر والنفاق فإنها بواسطة البراهين القاطعة والأدلة الواضحة التي يتضمنها القرآن الكريم تحصل على الإيمان الذي هو الحياة الحقيقية، فالقرآن إذن شفاء للأمراض الداخلية. " وشفاء لما في الصدور ". يونس ٥٧.
كما يقول تعالى: " قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ". فصلت ٤٤.
ويقول سبحانه: " وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ". الإسراء ٨٢.

القرآن شفاء لأنه يعالج أمراض أتباعه النفسية وهو رحمة لأنه يهب قلوب أتباعه الصحة والإستقامة لينصرفوا لكسب الأخلاق الفاضلة، وينعموا بمقومات الإنسانية في الحياة.

جواب شبهة:

يتصور البعض نتيجة قلة العلم أن الذنوب القلبية أمور غير اختيارية، ويقولون إن الحيلولة دونها ليست في وسع البشر وبناء عليه فهي ليست مورداً للتكليف والعقاب الإلهي، وقال البعض أن هذه أمور أخلاقية، وحرمتها الشرعية غير معلومة.

يتصور قائل هذا الكلام أن الذنوب القلبية هي تلك الخواطر النشاز التي تخطر على قلب الإنسان دونما اختيار منه، ولا يستطيع منعها، ولا شك أن هذه الخواطر لن تكون مورداً للتكليف والعقاب.

والحال أن الذنوب القلبية هي غير الخواطر، بل هي الأمور الثابتة التي مكانها القلب ويستطيع الشخص أن لا يدعها تستقر في قلبه، أو إذا كانت مستقرة يستطيع إخراجها منه.

مثلاً: أنت ترى شخصاً مسلماً واقفاً في دكان بيع الخمر، يخطر في قلبك أن هذا الشخص شارب خمر ويريد شراء الخمر، هذه الخاطرة قهرية وبدون إرادتك ولكن بعد خطورها تستطيع أن تفسح لها مجالاً في قلبك، وتسيء الظن بذلك الشخص وتعتبره فاسقاً فتكون قد ابتليت بذنب قلبي هو ظن السوء بالمسلم، وتستطيع أيضاً أن تعتبر – فوراً – هذه الخاطرة من الشيطان وتحمل فعل المسلم على الصحة، كأن تقول لعل له عملاً آخر، لعله يريد أن يرى أحداً هناك وأمثال ذلك، ولا تدع شيئاً يستقر في قلبك.

أو مثلاً: ترى نعمة جديدة على شخص، فيمر بخاطرك حسداً: بم

استحق هذا نعمة كهذه، إذا اعتبرت فوراً أن هذه الخاطرة من الشيطان وأبعدتها عنك بنور الإيمان والعلم وقلت لنفسك، هذه النعمة أعطاها له الله، رأى سبحانه المصلحة في ذلك والإعتراض على فعل الله كفر وهو سبحانه قادر أن يهبني مثلها أو أحسن منها، فلا شيء عليك هنا، وتغفر لك هذه الخاطرة، أما إذا جعلت تلك الخاطرة تستقر في قلبك واحتفظت معها في قلبك بأمنية أخذ هذه النعمة من ذلك المسكين، فهنا قد ابتليت بذنب قلبي هو الحسد.

أو مثلاً:

إذا استأت من قول شخص أو فعله تشعر بأذى، هنا تستطيع إما أن تعرض عن هذا الأذى وكأن شيئاً لم يكن أو أن تقتص بالمثل، فإذا سمحت لعداوته بالإستقرار في قلبك وتصديت للإنتقام منه بأكثر مما نالك منه فهنا تبتلى بالذنب القلبي الذي هو الحقد وبغض المسلم.

كما ترى في كل واحدة من هذه الأمثلة فإن الأمثلة الثلاثة سوء الظن، الحسد والحقد أشياء ثابتة في القلب، وهي تقع تحت الإختيار حدوثاً وبقاءاً، أي أن الشخص يستطيع أن لا يدعها تستقر في قلبه، وبعد الحدوث يستطيع أن يتخلص منها، أما الخاطرة الإبتدائية – لأول وهلة – فحتى إذا كانت ممعنة في السوء إلى حد الكفر فلأنها ليست اختيارية فلا إثم عليها.

الخوف من الوسوسة إيمان:

جاء في أصول الكافي أنه في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسوس الشيطان لرجل فقال له: من خلقك؟ قال الله، قال الشيطان من خلق الله؟ فتألم هذا الرجل من هذه الوسوسة وهذه الخاطرة النشاز وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: هلكت، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: " ذاك والله محض الإيمان[٨] ". أي أن

[٨] - أصول الكافي: ج ٢ / باب الوسوسة وحديث النفس / ٤٢٥.

هذا الخوف من الهلاك لأجل هذه الخاطرة هو دليل الإيمان.
وبناء عليه اتضح أن الذنوب القلبية هي تلك الأمور الثابتة التي هي في اختيار الإنسان لا الخواطر القهرية، وسيذكر الدليل الفقهي على الحرمة الشرعية لكل منها في مكانه من هذا الكتاب:

لا مناص من تحصيل القلب السليم:

معالجة الأمراض النفسية وتحصيل القلب السليم ليس بالشيء الذي يستسهله العاقل، أو يصرف النظر عنه. ولا يصح رفع اليد عنه بدليل أن تحصيله يستلزم التعب وجهاد النفس والإعراض عن بعض الملذات، بل يجب الإلتفات إلى الفوائد الكبيرة والمراتب العالية للحياة الإنسانية الطاهرة وللوصول إلى هذه الدرجات، فإن الآلام سهلة، والصعاب راحة.
اعتبر الألم راحة عندما يسمو المقصد غبار القطيع يثلج صدر الذئب[٩].
صاحب القلب السليم ما دام في الدنيا فهو يعيش في تمام الأمن والسعادة من خالقه، وآلام عالم المادة يجبرها باللذائذ الروحانية، وعندما يغادر الدنيا يصل إلى حياة ملؤها الفرح والسرور والنعم التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولا خطرت على قلب بشر، ويصل إلى سلطنة حقيقية، بحيث أن كل شيء يريده وفي أي وقت يتحقق له. قال تعالى: " وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ". الدهر ٢٠.

ما أعجب غفلة الإنسان:

كم هو عجيب أن الإنسان يبذل جهوداً من أجل سلامة البدن والتخلص

٩ - ترجمة بيت شعر فارسي.

من أمراضه ولا يدخر وسعاً في صرف ثروته واستعمال الأدوية المرّة والخضوع للجراحة وغير ذلك، ولكنه لا يتحرك من أجل سلامة القلب وشفاء أمراض نفسه التي هي أخطر بآلاف المرات، ويعرض عن أخبار الله والرسول كأنه لم يرها ولم يسمع بها، وينسجم مع الآلام التي تسببها له تلك الأمراض في الدنيا، ويرى العذاب الذي أعد له في الآخرة يحسبه بعيداً عنه أو لا يصدق به، فهل يا ترى أن كلام الله والرسول لا يوجد احتمال الضرر له بمقدار كلام طبيب ما، أي لماذا لا يقول الإنسان لعل هذه الأمراض المهلكة التي يتحدث عنها صحيحة، ويعمل قبل فوات الأوان على معالجتها، لأن دفع الضرر الكبير واجب عقلاً حتى ولو كان محتملاً.

يقول لك الله لا تشرب الخمر، ويقول لك الطبيب أحياناً لا تأكل الحلوى فتترك الحلال حفظاً لبدنك، ولا تترك الحرام حفظاً لدينك[10].

ويلاه من ساعة الموت حين يرفع ستار الغفلة ويجد المرء نفسه وذنوبه ويرى طريق الخلاص مسدوداً، عندها مهما ناح واشتكى وتندم، على ما فعل في محضر الله فلن ينفعه ذلك شيئاً.

الوصفة فقط لا تصبح علاجاً:

بعض المسلمين يكتفي فقط بقول الشهادتين والإقرار بأن القرآن كتاب سماوي وديني ويحتفظ به في بيته دون أن يقرأه بتدبر وينفذ تعاليمه السامية، في حين أنه لو كان يفعل هذا بالنسبة لمرضه الجسمي أي يأخذ الوصفة من الطبيب ويضعها في جيبه أو زاوية بيته دون أن يتناول الدواء المكتوب فيها،

---

[10] - ترجمة بيتين من الشعر الفارسي.

لكان قلبه حينئذٍ يحدثه ذهبت إلى الطبيب وأخذت الوصفة ولم أستعمل الدواء، ويقيناً أن هذا العمل المجانب للعقل كان يستتبع التأنيب من العقلاء ومن وجدانه.

المرض القلبي ليس هو الكفر فقط:

وبعض آخر من المسلمين يعملون ببعض تعاليم القرآن الكريم الأخرى بالإضافة إلى ما ذكر مثل الصلاة والصوم ويقنعون بها بدون محتوى، ويعرضون عن سائر تعاليم القرآن وبالرغم من ذلك يعتبرون أنفسهم أصحاب القلب السليم ظانين أن العذاب والعقوبة على الأمراض النفسية خاصان بالكفار، وهكذا يسيطر عليهم الغرور، ويخيّم عليهم الجهل المركَّب.

سبب هذا التفكير الخاطيء أنهم يتصورون أن مرض القلب هو الكفر فقط، في حين أن الكفر هو واحد من الأمراض الروحية وثمة غيره أمراض أخرى القرآن الكريم مملوء بتعاليم معالجتها.

يتضح أن مرض القلب يجتمع مع الإيمان أي من الممكن أن لا يكون الشخص كافراً ولكن يكون مبتلى بالأمراض النفسية الأخرى يكفي الإلتفات إلى هاتين الآيتين الشريفتين:

١ - " لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة ". الأحزاب ٦٠.

٢ – " وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ". المدثر ٣١.

حيث نرى في هاتين الآيتين أن المسلمين الذين في قلوبهم مرض ذكروا منفصلين عن الكافرين والمنافقين.

وأي مسلم يا ترى تطهّر من مرض (التلون) وعدم الثبات في طريق العبودية والميل للباطل واتباع هوى النفس في حين أن هذا المرض واحد من أنواع الشرك كما يقول تعالى:
" وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ". يوسف ١٠٦.
وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام " أن المراد بالشرك في هذه الآية الشرك في الطاعة... " أي مع أنهم يعبدون الله بالوحدانية فهم يطيعون الشيطان أيضاً ويتبعون أوامره في ارتكاب الذنوب.
وعن الصادق عليه السلام: " أن أهل هذه الآية أكثر من ثلثي الناس[١١] ".
من هو يا ترى المتطهر من أمراض الحسد، البخل، الحقد، الكبر، الحرص وغير ذلك.
فيجب على كل مسلم إذن أن يعرف الأمراض النفسية التي ذكرت في القرآن المجيد ويعمل بتعاليمه التي وردت مشروطة في بيانات أهل البيت عليهم السلام أو يعمل بتوضيحات علماء الإسلام المأخوذة من الإثنين القرآن والسنة قبل أن تفوت فرصة التدارك.

عدم الإيمان أم الجهل الحقيقي والحيرة:

يبتلى القلب الذي يكون خالياً من نور الإيمان بأمراض يعبر عنها القرآن الكريم بالعمى والصمم والبكم، أي أن هؤلاء قلوبهم صماء عن سماع الحق، وألسنتهم بكم عن قول الحق وأعينهم عمياء عن رؤية الحق.
ويقول تعالى أيضاً: " ومن كان في هذه أعمى " (عين قلبه عمياء) " فهو

---
[١١] - الكافي.

في الآخرة أعمى ". بني إسرائيل ٧٢.
ويستفاد من هذه الآية والآيات الأخرى أن الظواهر في الآخرة تكون على طبق البواطن كما ينص على ذلك القرآن الكريم بصراحة.
إذن الشخص الذي لا يرى في الدنيا آيات الله بعين القلب ولم يصدق بالحق ولم يعقد قلبه عليه، فهو في الآخرة سوف لن يرى الله، أي لا عين له ليرى، والشخص الذي لم يسمع في الدنيا كلام الحق بأذن قلبه فسوف لن يسمع غداً النغمة المحببة للجنة وأهل الجنة.
وأيضاً فإن مثل هذه القلوب الخالية من الإيمان وصفها الله سبحانه بالمرض[١٢]، والمختومة[١٣]، والمغلقة[١٤] وأن عليها الرين[١٥] وقد اعتبرها الله رديفة الحيوانات[١٦] وشر الدواب[١٧].

الكافر أسوأ من الحيوان:

لقد فضل الله الإنسان على الحيوانات بإعطائه القدرة والقابلية اللتين يستطيع بهما أن يرى الحق ويسمعه ويتقبله والشخص الذي يهدر هذه القدرة محروم من الإنسانية، ويبقى في حد البهيمية.
في أول دعاء من الصحيفة السجادية يقول عليه السلام: " ولو كانوا كذلك

[١٢] - " في قلوبهم مرض ". البقرة ١٠.
[١٣] - " ختم الله على قلوبهم ". البقرة ٧.
[١٤] - " فطبع على قلوبهم ". المنافقون ٣، " أم على قلوب أقفالها ". محمد ٢٤.
[١٥] - " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ". المطففين ١٤.
[١٦] - " إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ". الفرقان ٤٤.
[١٧] - " إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ". الأنفال ٥٥.

(أي لم يعرفوا الله) لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيمية فكانوا كما وصف في محكم كتابه: " إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ".

الأموات الحقيقيون:

وقد عبر القرآن أيضاً عن الذين لا إيمان لهم بالأموات: " إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ". النمل ٨٠.

ويجب أن نعلم أن الإيمان بالنسبة للنفس بمنزلة الغذاء المناسب للبدن فكما أنه ذا لم يتناول الإنسان الغذاء المناسب تضعف جميع قواه النباتية والحيوانية وتتعطل ويؤدي ذلك في النتيجة إلى الموت، كذلك النفس التي لا إيمان فيها تبتلى بالأمراض النفسية ونتيجة لذلك تضعف إنسانيتها وتصبح محرومة من الحياة الطاهرة والروحانية، وهكذا حتى تخرج من عالم الإنسانية وتبتلى بالهلاك الدائم والموت الأبدي.

موت النفس بداية العذاب:

هناك فرق كبير بين موت الجسد وموت النفس: موت الجسد نهاية الإبتلاءات والآلام الجسدية التي تصيب الإنسان كالطائر الذي يطير من قفصه ولكن موت النفس بداية المعاناة من الآلام الموجودة فيها، وبداية الإبتلاء بالطبائع القبيحة التي كسبتها كما يقول تعالى: " ثم لا يموت فيها ولا يحيى ". الأعلى ١٣، أي لا يموت هناك ويفنى حتى يتخلص من الآلام، ولا يحيى الحياة الإنسانية ليتمتع بخصائصها.

ويقول أيضاً: " أومن كان ميتاً - بسبب عدم الإيمان - فأحييناه وجعلنا له نوراً - أي العلم المتولد من الإيمان - يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات - الجهل وعدم الإيمان - ليس بخارج منها ". الأنعام ١٢٢.

ويقول سبحانه: " من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ". النحل ٩٧.
يعلم جيداً من هذه الآيات الشريفة ونظائرها أن هناك غير الحياة الحيوانية حياة أخرى طاهرة على الإنسان أن يسعى للحصول عليها وقد عبر عن ذلك في الروايات بـ (روح الإيمان) وصاحبها يكون في أمن وسلامة دائمين غير مشوبين بالخوف والإضطراب، ويكون أيضاً في سعادة وسرور دائمين لا حد لهما.
نعم، ولماذا لا يكون غارقاً في بحر من السرور والفرح بفضل قناعاته المشرقة مع أنه يرى ويسمع أشياء يعجز عن رؤيتها وسماعها الآخرون، صاحب الحياة الإنسانية يكون في الدنيا والآخرة في بحر محبة الله راضياً بالقرب منه سبحانه.

أقبح من القرد والخنزير:

كما مرّ معنا يطبع الباطن يوم القيامة على الظاهر ويحشر كل شخص على صورته الملكوتية الخاصة به فالأشخاص الذين كانوا في الدنيا مملوئين بالصفات الحيوانية فاقدين لروح الإيمان والحياة الطاهرة، يحرمون يوم القيامة من الجمال الحقيقي ويقلبون على أقبح الصور كما ورد في الرواية: " يحشر الناس على صور تحسن عندها القردة والخنازير[١٨] ".

عذاب الكافر في الدارين:

قد يطرح هذا السؤال: أنتم تقولون إن لأهل الإيمان حياة طيبة في الدارين والمؤمن يظل دائماً في النعمة والهناء والسعادة والسرور وما عداه يكون

---

[١٨] - عين اليقين للفيض الكاشاني رحم الله.

دائماً في الألم والبلاء أسير هوى نفسه وحبيس التعاسة والغم، في حين أنّا نرى كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا يبتلون بأنواع الآلام والصعوبات، وعلى العكس نرى الكثير من الذين لا إيمان لهم يتنعمون سعداء مرحين.
الجواب: غم عالم الطبيعة وألمه لا يجد طريقه أبداً إلى حديقة قلب المؤمن وكل ما يراه المؤمن من الصعوبات والآلام فلا يصيب إلا جسده، وروحه في مأمن من كل آفة كما يقول في القرآن الكريم: " أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ". الأنعام ٨٢.
المؤمن في الدنيا ليس له " أمن " غير رضا خالقه، ولذا فهو لا يبتلى بخيبة الأمل وعدم تحقق مراده، ولأن المؤمن يعلم أن الله معبوده ومعبود الآخرين ويعرف فيه القدرة والحكمة والعطف، ويعتبر نفسه عبداً له وهو مولاه فلذلك لا يمكن أن يضطرب قلب المؤمن في الحوادث المؤلمة والله سبحانه يفيض عليه السكون بسبب إيمانه[١٩] ".

المؤمن ثابت عند الإبتلاء:

المؤمن يثبت دائماً في مقابل الإبتلاءات ولا ينهار لأنه علم أن هذا البلاء حكمة هي بالتالي لمصلحته، وله بربّه أمل أن يرفعها عنه أو يجعلها مقابل شيء من عذاب الآخرة، ذلك العذاب الذي يعتبر هذا البلاء بالنسبة إليه صفراً.
يقول تعالى في سورة النساء: " إن تكونوا تألمون فإنهم – من لا إيمان لهم – يألمون كما تألمون – مع فارق – وترجون من الله ما لا يرجون ". النساء ١٠٤.

[١٩] - " هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ". الفتح ٤.

أنتم ترجون من الله النجاة من البلاء والمغفرة والجزاء وأولئك لا أمل لهم يبقون في ظلمة اليأس والحيرة معذبين.

قلب الكافر خربة مرعبة:

كما أن الإبتلاءات والصعوبات لا تجد طريقها إلى قلب المؤمن ويقتصر تأثيرها على جسده وظاهره فقط فكذلك المفرحات التي نراها في من لا إيمان لهم، إنها تجمّل ظاهرهم ولكن قلبهم مكان موحش وخربة لا تعمر بهذه الأشياء ومكان مظلم سوف لن تنيره الشهوات ويظل في خفقان واضطراب ولا يمكن أبداً أن يطمئن بهذه المفرحات.

في الحقيقة إن هذه الشهوات غطاء على القلب المملوء من وحشتها وصاحب هذه الشهوات يحاول أن يتسلى لينسى آلامه الداخلية، والعجيب أن هذه الشهوات تزيد في ظلمة قلوب – أصحاب الشهوات – ووحشتها وخرابها ولكنهم لا يفهمون.

والطامّة الكبرى حينما تزول هذه المسليات ويقفون على حقيقة قلبهم الخرب الموحش.

يقول تعالى في القرآن المجيد:

" لقد كنت في غفلة عن هذا – في الدنيا – فكشفنا عنك غطاءك – حتى يبدو لك ما كان خافياً عليك – فبصرك اليوم حديد – في رؤية ما لم تكن تراه - ". ق ٢٢.

ألم الكافر لا نهاية له:

عندما يعجز من لا إيمان له في هذه الدنيا عن الوصول إلى المسلّيات ويصبح هدفاً لسهام البلاء وتضيق في وجهه الدنيا من الفاقة والمرض وملاحقة الأعداء، ومن شدة ظلام اليأس وعدم الإيمان وعدم الإعتماد على الله يملّ

نفسه والحياة المرّة، حتى يصبح يتمنى الموت وينتحر ظناً أن هذا يخلصه من الألم، مع أنه مخطيء فبالموت لا يفنى، بل سيظل يواجه مصير قلبه الموحش هذا باستمرار ولا نجاة له، ذلك أنه " ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ". طه ١٢٤.

لذائذ الدنيا مشوبة بالمنغصات:

الشخص الذي لا إيمان له مهما كان سعيداً بحسب الظاهر فإن باطنه في ضغط واضطراب لأنه:

أولاً: لا يحقق جميع أمنياته، وأمنيات البشر لا حد لها ولا حصر، بل أنه لا يحقق واحداً بالمائة من رغباته وأمنياته بسبب المنغصات ولذا فهو دائماً يحترق في نار محاربة المنغصات ومحاولات التخلص منها.

وثانياً: أنه يخاف من زوال ما تحقق له من أمنيات ولأن ممتلكاته المادية معرضة للفناء فبموت الشخص أو فناء الأمور المادية يفترق الشخص وممتلكاته عن بعضهما. إن الإيمان بالله ويوم الجزاء فقط هو الذي يسعد القلب بما يمتلك، ويجعله لا يشعر بالخوف من فناء دنياه لأنه يعلم أن ما بعد الدنيا أفضل من الدنيا، وإيمانه يبقى له لذا يظل فرحاً في الآخرة بفضل الله وكرمه[٢٠].

فلنضيء قلوبنا بنور الإيمان:

يعلم مما تقدم جيداً أن كمال سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة في سلامة نفسه من مرض عدم الإيمان، تماماً كما أن كمال شقاء الإنسان في الدارين

---

[٢٠] - " قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ". يونس ٥٨.

يكمن في مرض عدم الإيمان، وعليه فيجب علينا أن نبذل أكبر الجهد في مجال كسب الإيمان وزيادته فبإشراقة القلب بنور الإيمان نشفى من كثير من الأمراض، فلنشف قلبنا من مرض اللا إيمان المهلك الذي هو بدوره سبب وجود كثير من الأمراض النفسية الأخرى أو زيادتها.
ورد في تفسير الصافي عن الإمام الصادق عليه السلام ضمن تفسير آية الكرسي، وهذه الفقرة منها بالخصوص: " الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور "، قال الإمام عليه السلام: " أي من ظلمة الذنوب إلى نور التوبة والمغفرة ".
إذن أساس كل شيء هو الإيمان، وببركته تزول الأدران.

المقصود من الإيمان مرتبة اليقين:

علينا أن نسجل هنا أن المراد بالإيمان الذي هو سبب التطهير من أمراض القلب إنما هو اليقين بمراتب التوحيد والمعاد، فمن رأى بنور اليقين أنه مخلوق لله تعالى وعبد له وأدرك أن كل ما في يده مهما كان إنما هو مستعار وعلم أن رجوع الجميع ومصيرهم إلى عالم الجزاء، شخص من هذا القبيل لا يبقى عنده مجال للبخل والحسد والحرص والعداوة، ذلك أنه بإشراق نور اليقين يتبدد ظلام هذه الأمراض وإذا كان منها أثر في أحد فلأن اليقين غير موجود، أو أنه ضعيف.

نتيجة البحث والمقدمة:

إذن يجب على طالب القلب السليم ومريد سعادة الدنيا والآخرة أن يحصل على اليقين الذي هو أساس الإعتقادات وعلاج كثير من الأمراض، ويجب أن يكون هذا المراد مقدماً على كل مراد آخر، وقصدنا من ذكر هذه

المقدمة إطلاع القاريء العزيز على أهمية اليقين ولذلك تقدم قسم العقائد الذي يعتبر اليقين أساسه على قسم الأخلاق وها نحن بعون الله نذكر أمراض عدم الإيمان أي الكفر، النفاق، الشرك، الشك، وعلاج ذلك وطريق تحصيل اليقين، ثم في القسم الثاني نبحث في الأخلاق.

القسم الأول
العقائد

١ – مرض الكفر

الكفر بمعنى عدم التصديق وعدم قبول الشيء الذي تراه الفطرة الأولى والعقل الصريح حقاً.
مما يعتبر قبوله واجباً وذلك هو الإيمان بالله والأنبياء ويوم الجزاء لأن كل عاقل يعلم أن له ولسائر الموجودات موجداً عالماً وقادراً وبعد التدبر في كلمة الخالق يتيقن أنه إذا كانت الحياة هذه فقط وبالموت يحصل الفناء، فإن الخلق عبث لا فائدة فيه، إذن لأن الله حكيم فلا بد من وجود حياة أخرى يتميز فيها السعداء ويلاقي كل شخص جزاء أعماله.
ويتيقن أيضاً أن الله الحكيم لم يترك البشر هملاً وقد أرسل لهم مرشدين من جنسهم لبيان طريق صلاحهم، وباختصار فإن الإعتقاد بالتوحيد والنبوة والمعاد فطري للإنسان وهو كذلك حكم بداهة العقل.
الشخص الذي ينكر هذه الأمور الثلاثة البديهية هو مبتلى بأسوأ الأمراض النفسية، بحيث أنه إذا ظل كذلك فإنه في النتيجة يسقط من مرتبة الإنسانية ويبقى في هلاك دائم.
مرض الكفر للنفس تماماً مثل مرض فساد الجهاز الهضمي في البدن بحيث أن الماء الزلال والغذاء لا يتعدى حلقوم الإنسان أو إذا تعداه فإن المعدة

ترفضه، وهذا المرض إذا لم يعالج فإن جميع قوى البدن تتعطل ويموت الشخص.
كذلك إذا أقام الشخص على مرض الكفر، ولم يترك العناد والجحود فإن الله سبحانه جزاءاً لكفره يزيد في مرضه[1] وفي الحقيقة يعطيه الله الشيء الذي أقدم هو على طلبه، ويسلك به الطريق الذي اختاره هو بنفسه[2].
وكذلك لو أن إنساناً اختار الإيمان وطلب الهداية فإن الله سبحانه يزيد في هدايته ويزيد في نور إيمانه[3]، حتى يعرف كل حق ويتمسك به ويجتنب كل أنواع الباطل.

عمى القلب المطلق:

كما أن نهاية الكفر العمى المطلق للقلب، بحيث لا يميز الحق من الباطل والصحيح من السقيم ويسقط الكافر من مرتبة حقيقية الإنسانية التي هي العلم وفهم حقائق الأشياء ويصبح في عداد الحيوانات، ولا يبقى موضعاً لأي أمل ولا يُرجى منه أي خير وتزداد سائر أمراضه الباطنية النفسية، لأنه بعدها لا يشعر بألم حتى يتصدى لعلاجه ولا يعرف شراً حتى يجتنبه، تسلب منه قوة التمييز، فلا يعترف بعد بمرض قلبي حتى يبحث عن علاجه.

الكفر مع الجهل:

الكفر على قسمين كفر مع الجهل، وكفر مع العلم، الكافر الجاهل هو الذي لا يريد أن يفهم الحق وينكر ما لم يعرف ولا يقبله، ككثير من الدهريين

---

[1] - " فزادهم الله مرضاً ". البقرة ١٠.
[2] - " نوله ما تولى ". النساء ١١٥.
[3] - " والذين اهتدوا زادهم هدى ". محمد ١٧.

(الماديين) الذين ينكرون المبدأ والمعاد ويقولون لا وجود لله ولا وجود لعالم الآخرة، الإنسان مثل سائر الحيوانات يعمّر قليلاً، ويفنى بالموت فناءاً أبدياً ولا جزاء لأعماله ولا عقاب عليها. والقرآن الكريم وصف هؤلاء بأنهم أتباع الظن[٤].
ومثل هؤلاء الأشخاص الذين ولدوا وعاشوا في محيط كافر واتبعوا آباءهم، أو الأشخاص الذين يعتبرونهم علماء، ولذا أنكروا الحق عن غير علم، ويقول الله سبحانه على لسانهم: " إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ". الزخرف ٢٣.

الكفر مع العلم:

الكفر مع العلم هو أن يكون الشخص يعرف الحق لكنه لا يتقبله لأنه خلاف ميوله ورغبته النفسية، أو يرفضه لأنه مبتلى بالكبر أو الحسد فيعمل على إظهار الحق بمظهر الباطل رغم معرفته به ويحمله هوى النفس أو الكبر أو الحسد على أن يختلق المبررات ليتخلص بها من تحمل مسؤولية الحق تماماً كالشخص الذي يوجه إليه ناصح مشفق نصيحة ويعلم أنه لا يريد بهذا إلا خيره وإصلاحه، ولكن لأن هذه النصيحة لا توافق هواه فإنه يرفضها ويجادل مدافعاً عن رأيه.

من لا دين لهم، ينكرون وهم يعلمون:

من هذا القسم كفر كثير ممن لا دين لهم، فمع أن وجدانهم يقبل كون الإعتقاد بالله ويوم الجزاء حقاً، (وكيف لا يقبل وجدانهم أن مصدر الخلق العظيم هو خالق عالم وقادر وسامع، هل يا ترى يقبل وجدان الإنسان أنه يفنى

---

٤ - " إن يتبعون إلا الظن ". يونس ٦٦.

بالموت، وأن حياته تنتهي بهذه الأيام المعدودة في الدنيا التي هي ملعبه ليس إلا؟).
نعم، إن هؤلاء يرون أنهم إذا قبلوا الحق فهم ملزمون بحكم الدين والخوف من الله ويوم الجزاء أن يقلعوا عن أعمالهم التي لا تخضع لميزان معقول، وملزمون أن يخضعوا أقوالهم وأعمالهم للمقاييس الدينية ولذلك يحاولون أن يصوروا الباطل حقاً عبر التشبث بالشبهات الواهية والتسويلات الشيطانية ليقنعوا أنفسهم ويرضوها.
يقول تعالى في القرآن المجيد حول هذا القسم من الناس:
" وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ". النمل ١٤.

مشركو مكة ويهود المدينة:

مثل مشركي مكة الذين كانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليهم وآله وسلم جيداً وكانوا على يقين أنه صادق وعاقل وأن القرآن المجيد ليس كلام بشر، لكن الكبر والنخوة والحسد حملتهم على تكذيب نبوته واتهامه بالكذب والسحر والجنون، وإشعال نار الحرب ضده صلى الله عليه وآله وسلم.
وأيضاً مثل اليهود الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أولاد إسحاق، وأن النبوة والسيادة الإلهية خاصة بهم، ولم يكونوا يستطيعون أن يروا من نسل إسماعيل نبياً مختاراً، فلذا نراهم لم يقبلوا نبوته عليه صلوات الله وسلامه، ووقفوا ضده مع أنهم كانوا يعلمون أنه على الحق، وكانت نبوته لهم من الوضوح بحيث أن كثيراً منهم كان قد بقي في المدينة لأنهم كانوا يعلمون أنه صلى الله عليه وآله وسلم سيهاجر إليها، وكانوا يتوسلون إلى الله سبحانه به صلى الله عليه وآله وسلم حتى ينصرهم كما في القرآن الكريم:

" وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين ". البقرة ٨٩.
وبعد أن حل صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة منعهم شكهم وحسدهم وكبرهم من الإيمان به.

الجزاء الدنيوي:

كما تقدم، إذا لم يعالج مرض الكفر فإنه يؤدي إلى هلاك الإنسانية، ويصل إلى مرحلة لا تنفع معه أي نصية " سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ". البقرة ٦.
وهنا يجب أن نذكر أن العمى والصمم وسد طريق القلب الذي ينسبه الله إليه في القرآن ويقول أنه يعامل الكفار به: ليس هذا كله إلا مقابل استمرار كفرهم وهو بعدُ جزاء إلهي لهم.
يقول تعالى: " بل طبع الله عليها بكفرهم ". النساء ١٥٥.
" فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ". الصف ٥.
وخلاصة القول إن الله لن يطبع على قلب أو يعمي عين قلب أو يصم أذنه ابتداءاً بل لا يكون ذلك إلا إذا أراد الشخص بسوء اختياره ما يؤدي إليه أي يستمر على الكفر والعناد واللجاجة ومواجهة الحق فعندها يزيد الله مرضه إلى حيث يسد طريق قلبه نهائياً، وهو في الحقيقة نوع عذاب روحاني يعذب به هنا في الدنيا.

عينا الباطن وعينا الظاهر:

يجب أن يعلم أن الصمم والعمى والختم على القلب ليست أموراً مجازية واعتبارية بل هي أمور واقعية هي الآن ثابتة في كيان الشخص. وتحقيق ذلك أنه

كما أن للإنسان في بدنه عيناً وأذناً وقلباً، فهذه الأشياء موجودة في باطنه أيضاً وقد صرحت بذلك الروايات المستفيضة من ذلك يقول الإمام السجاد عليه السلام: " ألا إن للعبد أربعة أعين عينان يبصر بهما أمر آخرته وعينان يبصر بهما أمر دنياه فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح له العينين التي في قلبه فأبصر بهما الغيب وإذا أراد غير ذلك ترك القلب بما فيه[٥] ".

وتسأل:

أنتم تقولون أن الشخص الذي يبقى ثابتاً على كفره حتى يموت فباطنه أعمى وأصم، ويوم القيامة يكون ظاهره مطابقاً لباطنه أي أعمى وأصم وهذا مخالف لآية " اقرأ كتابك ". بني إسرائيل ١٤.

حيث يعلم منها أنه ليس أعمى وإلا لما استطاع الكتابة، وكذلك الآية الشريفة:

" إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً ". السجدة ١٢.

حيث يعلم منها أنهم يرون ويسمعون.

وفي الجواب نقول: يختلف الأمر باختلاف مواقف القيامة، ففي بعضها يكون الكافر أعمى وأصم وفي بعضها يرى ويسمع كما أنه في بعضها يختم على أفواههم ولا يستطيعون الكلام، وفي بعض المواقف الأخرى يسمح لهم بالكلام[٦].

---

[٥] - ميزان الحكمة ٨ / ٢٢٤ عن البحار ٧٠ / ٥٣ والخصال ٢٤٠.

[٦] - التوحيد للصدوق رحمه الله ٢٦٠.

ويمكن أن يكون عمى هؤلاء وصممهم هما بالنسبة لآثار رحمة الله ونعمه غير المتناهية التي أعدها سبحانه لأهل الإيمان والتقوى، إذن فالكفار لا يرون الجنة ونعمها وأهلها، لا يسمعون أنغام الجنة التي تأخذ بمجامع القلوب ولا يرون المراتب الروحية ودرجاتها.
وباختصار كما أنهم في الدنيا قد عموا عن رؤية السعادة، وصموا عن سماع الحق فهم غداً محرومون من رؤية ما فيه سعادتهم وراحتهم وسماعه، وفي مقابل هذا يرون ويسمعون ما فيه شقاؤهم.

أنقذوا المجتمع:

قد تتساءل: لماذا أصر كثيراً على هذا الموضوع؟ مع أن قراء هذا الكتاب وأمثاله هم مسلمون معتقدون بالمبدأ والمعاد.
والجواب: السبب هو سيل بُناةِ الكفر واللا دين الذي يغطي جميع أنحاء مجتمعنا اليوم ويهدد الجيل الشاب بشكل خاص، حيث يقتلع غرس الإيمان من قلوب هؤلاء الشباب بأنواع الأساليب الإعلامية والدعائية، لهذا فإن من اللازم على كل فرد منّا أن يبذل ما في وسعه بالبيان والكتابة أو تمويل المشاريع الإعلامية الصحيحة ولا يدع شبابنا ينحرفون، ليهتدي منهم المضللون وننقذهم ونوعّيهم على المرض المهلك الذي ابتلوا به بأي شكل ممكن ونشرح لهم علاج هذا المرض بالطريقة التي يرد بيانها هنا، اللهم إلا إذا كانت تلك الضلالات قد سدت طريق قلوبهم ولم يعد ينفع معهم النصح.

علاج الكفر بالمبدأ والمعاد:

الكافر بالمبدأ والمعاد هو الشخص الذي يفضح نفسه بالجرأة ويقول: هذا العالم ليس له خالق قادر وعالم، ولا وجود لنبي بين الله والناس ولا وجود

لعالم آخر يجازى فيه البشر على أعمالهم.
هذا الشخص أعمى الباطن لأنه مبتلى بمرض الجهل المركب أي لا يعلم أنه لا يعلم وجهله هو الذي يصور له أنه يعلم، فهو أعمى الباطن ويتصور أنه مثقف وهو مغرور يعتبر نفسه ذكياً مع أنه في غاية الغباء، إنه باختصار مريض يعجز الأطباء الروحيون عن علاجه، ولا علاج له إلا توعيته على جهله، إذا كان يتقبل.

عدم العلم غير العلم بالعدم:

يجب تنبيه المبتلي بمثل هذا المرض إلى أنه لم يعلم الحق ولم يعرف الله ولم يفهم عالم الجزاء، لا أنه عرف الحق وأنكره، وأن حالك يعني في الإصطلاح عدم العلم لا العلم بالعدم أي أنك لا تعلم أن هناك إلهاً وآخرة، لا أنك تعلم أنه لا يوجد فأنت تماماً مثل من ولد أعمى الذي يقول لا وجود لشمس تضيء العالم، يجب أن يقال له أنت لم تر الشمس الساطعة ولم تعرفها، فيجب أن تقول لا أعرفها ولا علم لي بها.
في الحقيقة إن كلام منكري الحق يفضح عدم علمهم وجهلهم المركب، كما أن المؤمن يكشف عن فهمه وعلمه، وبالإقرار بالشهادتين يثبت كماله ومعرفته.

حالة الشك والتردد:

لأن الشخص المنكر مبتلى بالعجب وحب الذات والجهل المركب فيجب إزالة ستار غفلته، وتعريفه بحاله وأنك في حالة الشك والتردد، وإذا رجعت إلى عقلك ووجدانك أفلا تحتمل أن المتدينين يقولون الصواب، وأن غير المتدينين مخطئون.

ألا تحتمل أن للعالم خالقاً عالماً وقادراً، وأن ثمة بعثة وعالم جزاء؟
ألا تحتمل باختصار أن كلام الأنبياء صحيح؟
إذا أجاب بالنفي فكونوا على يقين أنه يكذب، ولا يريد أن يهتدي، فيجب أن يوكَل إلى نفسه، وإذا أنصف وقال صواباً: أي أنه يحتمل ما ذُكر فيجب أن يقال له:
أليس مجافياً للعقل أن تقول عما تحتمل أنه صحيح، أنه خطأ، وهل يستطيع الشخص الشاك أن يدعي عدم شيء لا يعلم وجوده أو ينكر وجود شيء لا يعلم عدمه، أوليست القاعدة العقلية تقول: عدم وجود شيء لا يدل على عدم وجوده إذ من الممكن أن يكون موجوداً ولكنك أنت لم تجده، الشخص الذي يضيع له شيء ويبحث عنه ثم لا يجده، هل يستطيع أن يقول إنه غير موجود أصلاً، بل يجب أن يقول: لعله موجود ولكني لم أعثر عليه.
نافذة الأمل، إشراقة نور الإيمان:
إذا أدرك الشخص المنكر هذه الحقيقة فإن حجاب غفلته وجهله المركب يتمزق وتفتح نافذة قلبه لإشراقة نور الإيمان لأن هذا الإلتفات إلى الشك والتردد هو نفسه يصبح بداية التحقيق والبحث، لأن الإنسان بحسب الفطرة متعطش للكمال والعلم فإنه يتحرك ليصل إلى من الشك إلى الظن ومن الظن إلى العلم ومن ثم إلى مراتب اليقين أي علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين التي هي أعلى مراتب كمال الإنسانية.
هذا إذا شمله التوفيق الإلهي، ولم يقصر في الطلب، وأزال الموانع والعقبات.

الفرق بين إدراك الإنسان والحيوان:

في الحقيقة إن هذا الإلتفات إلى حاله والتصديق بجهله وشكّه أول تفتُّح للإنسانية فيه وبداية التحليق من مرتبة الحيوانية لأن الشعور الحيواني ضعيف وبالإصطلاح بسيط أي لا يعرف شيئاً عن حاله، ولا يفهم شيئاً عن كونه يشعر بشيء أو لا يشعر، أما الإدراك الإنساني فهو قوي وفي الإصطلاح هو مركب أي يفهم أنه يعلم شيئاً أو لا يعلم، وكذلك فإن الحيوان لا يتصدى لفهم شيء لا يفهمه ولكن الإنسان هو الذي يتصدى للفهم وزيادة علمه، إذن الفرق بين الشعور الحيواني والإنساني شيئان: كون الشعور الحيواني بسيطاً ومحدوداً بينما الشعور الإنساني مركب وقابل للزيادة.

الكفار كالحيوانات المفترسة:

يعلم جيداً من هذا العرض أن منكري الحق لم يفهموا أبداً جهلهم وشكهم، ولم يتصدوا لتحصيل العلم وزيادته، ولم يتجاوزوا حد الشعور الحيواني، ولذا اعتبرهم القرآن الكريم في عدة مواضع مثل الحيوانات:

١ – " والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ". محمد ١٢.

فهم كالحيوانات لأنهم لم يعرفوا النعمة ولا الهدف منها ولا المنعم، بل هم أسوأ من الحيوانات لأنهم ينكرون النعمة ومن هنا كانت النار مثوى لهم.

٢ – " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ". الجمعة ٥.

وكلما تصدى منكر الحق لمواجهة الحق فهو كالحيوان المفترس، أي

أن باطنه مفترس[٧] وإذا أصبح من أهل المكر والحيلة فهو في الباطن شيطان[٨]، وبعد الموت يحشر مع الشياطين وفي زمرتهم.

علاج الكفر في آيات القرآن:

ما ذكر في معالجة الكفر مستفاد من الآيات الكثيرة في القرآن المجيد وروايات أهل البيت عليهم السلام ونذكر هنا بعضها:

١ – " وقالوا " أهل العناد والكفر: " ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ". الجاثية ٢٤.

هذه الآية إشارة إلى الجهل المركب، وعن أصحاب الجهل البسيط يقول تعالى:

٢ – " وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ". الجاثية ٣٢.

٣ – " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم ". يونس ٣٩.

٤ – " بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ". النمل ٦٦.

٥ – " قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتّبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ". الأنعام ١٤٨.

يعلم من أمثال هذه الآيات أنه يجب توعية المنكِر على جهله وشكّه،

---

[٧] - " فمثله كمثل الكلب ". الأعراف ١٧٦.

[٨] - " شياطين الإنس والجن ". الأنعام ١١٢.

ثم يقال له:
حيث أن معرفة الله والنبي والآخرة أمور يعتبر عدم العلم بها ضرراً كبيراً وهلاكاً أبدياً وأنت تحتمل إمكانية كون هذه الأمور صحيحة، مما يؤدي إلى أن تبتلى بهذه الإبتلاءات التي لا تحتمل أي الضرر الكبير والهلاك الدائم وبما أن العقل والشرع يحكمان بوجوب دفع الضرر المحتمل عندما يكون شديداً لا طاقة للإنسان به، فلا عذر لك في ترك هذه العلوم. كما يقول تعالى:
" ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم ". المطففين ٤ ــ ٥.
أي وإن كانوا لا يعلمون، فإن الظن ــ أو الإحتمال ــ هو بحكم العقل كافٍ في لزوم علم ذلك الشيء الذي يعتبر عدم علمه ضرراً كبيراً، ولزوم الإجتناب عما يوجب العذاب ومن جملة ذلك التطفيف بالبعث وعدم إعطائه الأهمية التي يستحق التي هي مورد الآية الشريفة.

كلام الإمام الصادق عليه السلام للزنديق:

جاء زنديق اسمه عبد الملك إلى الإمام الصادق عليه السلام، فقال له الإمام في حديث طويل: " أتعلم أن للأرض تحتاً وفوقاً؟ قال نعم، قال: فدخلت تحتها؟ قال، لا، قال: فما يدريك بما تحتها؟ قال: لا أدري إلا أني أظن أن ليس تحتها شيء، قال أبو عبد الله عليه السلام: فالظن عجز ما لم تستيقن (ثم) قال أبو عبد الله: فصعدت إلى السماء، قال: لا، قال: فتدري ما فيها، قال: لا قال: فأتيت المشرق والمغرب فنظرت ما خلفهما، قال: لا، قال: فعجباً لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب ولم تنزل تحت الأرض ولم تصعد إلى السماء ولم تخبر هنالك فتعرف ما خلفهن وأنت جاحد ما فيهن وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟
فقال الزنديق: ما كلمني بهذا أحد غيرك، قال أبو عبد الله عليه

السلام: فأنت في شك في ذلك فلعل هو أو لعل ليس هو واعترف " الزنديق " بشكه فأخذ الإمام يعلمه ويوجهه إلى التفكير بنظم الكون ويقدم له الأدلة كما سيأتي بالتفصيل حتى آمن وأصبح فيما بعد من الدعاة إلى الله عز وجل[٩] ".

الشجرة الطيبة والخبيثة:

" ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء* تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون* ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ". إبراهيم ٢٤ – ٢٦.

" ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة " " لا إله إلا الله وسائر العقائد الحقة ".

" ومثل كلمة خبيثة " " كلمة الكفر والشرك والإنكار وسائر العقائد غير الحقة ".

إذن كل شخص أضيء قلبه بنور الإيمان والتوحيد يعلم أن هذا الأصل له فروع لازمة له من جملة ذلك الإيمان بالأنبياء وخاصة آخرهم رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم وقبول ولاية أوصيائه الإثني عشر، والإيمان بالآخرة وما أخبر به صلى الله عليه وآله وسلم من القيامة والجنة والنار.

ومن جملة ذلك التحلي بالأخلاق الفاضلة والملكات الحسنة كالكرم والعفة والشجاعة والعدالة وسعة الصدر والصبر والرضا بقضاء الله وتفويض

[٩] - التوحيد للصدوق / ٢٩٤ " وقد وكل به الإمام هشام بن الحكم (رضوان الله تعالى عليه) فعلمه هشام فكان معلم أهل مصر وأهل الشام (كذا) وحسنت طهارته حتى رضي بها أبو عبد الله عليه السلام ".

الأمور إليه.
والخلاصة أن أعمال الإنسان الحسنة بمنزلة أوراق تلك الشجرة.
الخيرات والبركات والرحمات هي نتيجة الإيمان والأخلاق والسلوك وآثارها التي تصله باستمرار، وهو يستفيد منها، والآخرون كذلك يستفيدون من وجوده، إنه يكون باستمرار مورداً للبركات ومصدراً للخيرات، وهذا ثمر تلك الشجرة.

شعب الكفر:

كما أنه كلما خيّم ظلام الكفر والشرك بالله على قلب فإنه تكون له شعَب: من جملة ذلك إنكار الرسالة والولاية والقيامة والثواب والعقاب، ومن جملة ذلك الحرص على الدنيا، البخل، الحسد، الظلم، الخيانة، الجناية وسائر الأخلاق السيئة.
ومن جملة ذلك: الأقوال والأفعال المنافية، وليس لكفره وأخلاقه القبيحة وأفعاله غير المقبولة نتيجة إلا الضرر له وللآخرين، وهكذا يكون مثل أغصان تلك الشجرة الخبيثة وأوراقها وثمرها.
ولأن الكفر أمر عدمي الذي هو الجهل – عدم العلم – فليس له أصل ولا فرع حتى تكون له الثمرة الوجودية التي هي أنواع الخيرات.

دائماً متقابلان:

يعلم من هذه الإيضاحات جيداً أن الإيمان والكفر ضدان، وهما متقابلان دائماً وفي كل مكان أي في مقام العلم والقبول، مقام الأخلاق والملكات، مقام الأعمال والنتائج والآثار، أي الإيمان عين العلم والكفر عين الجهل، قول الحق من فروع الإيمان ورفضه من فروع الكفر، كما أن شكر

النعمة من أقسام الإيمان وكفران النعمة من الكفر.
الصبر والشجاعة والكرم وغيرهما من الإيمان، والحرص والبخل والحسد من الكفر. وباختصار الأعمال الصالحة جميعها من أوراق الإيمان، كما أن الأعمال السيئة كلها من توابع الكفر.

لا يصدر من المؤمن سوء، ولا من الكافر خير:

قد تسأل: بناءاً على هذا فلن يصدر من المؤمن إلا الخير، كما لن يصدر من الكافر إلا الشر مع أننا نرى أن بعض الكفار تصدر منهم خيرات، وبعض المؤمنين تصدر منهم شرور.
الجواب: الخير الحقيقي لا يصدر من الكافر أبداً، وما يرى منهم بصورة خير كالإنفاق وبذل المال مثلاً، فالجواب عنه:
أولاً: أن الإنفاق يكون خيراً حين يكون تحصيل المال من الطريق المشروع.
وثانياً: أن يصرف المال في الموارد التي يرضاها العقل والشرع كمّاً وكيفاً أي أن لا يسرف ولا يبذّر.
وثالثاً: أن يكون الهدف هو الله فقط، وعليه فإذا أنفق طمعاً في زيادة المال أو الشهرة أو مدح الناس فهو في الحقيقة قد تاجر، لا أنه قد صدر منه خير، والكافر الذي ينفق أو يبني مستشفى أو يؤسس معملاً ما لا تتوفر في عمله الشروط الثلاثة المتقدمة أو أحدها حتماً.
مثلاً: البرامكة كانوا يملأون خزينتهم من أموال المسلمين، ثم يعطون مائة ألف أو مائتي ألف لشاعر ينظم قصيدة في مدحهم ليعززوا بذلك موقعهم في الوزارة، فهل يصح أن يسمى هذا الإنفاق " عمل خير "؟

وأما الشر الذي يُرى من المؤمن فهو ليس شراً حقيقياً، أي أنه لم يصدر منه باعتباره منكِراً لله والحساب ويوم الجزاء، بل صدر منه صدفة، نتيجة غلبة الهوى والهوس ووسوسة الشيطان، وهنا يأتي دور إيمانه الذي يجعله يتندم بشدة على عمله ويحمله على تلافي ما حصل منه.
وفيما إذا صدرت منه شرور ولم يندم على أعماله المنافية ولم يتألم بسببها بحيث يصبح في مقام تلافيها وجبرانها، يعلم إذن أن الإيمان لم يستقر بعد في قلبه، وهو فقط على لسانه.
يقول تعالى في سورة الحجرات: " قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم... ". الحجرات ١٤.

إنكار رسالة الأنبياء:

مرّ معنا الكفر بالمبدأ والمعاد وعلاجه، هناك قسم آخر من الكفر هو إنكار رسالة الأنبياء كما هو اعتقاد البراهمة وهم طائفة من الهند يعتقدون بالله ولكنهم يقولون إن العقل البشري يكفي لتحديد الطريق وتعيينه.
يجب أن يقال لهم إنكم غير منسجمين في إنكاركم هذا مع عقلكم ووجدانكم لأنكم لا تجزمون بكذب الأنبياء، وأنكم حتماً تحتملون صحة ما أخبروا به عن سعادة الإنسان وشقائه وآثار أعماله الحسنة والقبيحة ومستقبله مما يتضح في العالم الآخر، وأنتم أنكرتم كل ذلك حتى تتخلصوا من مسؤولية التكاليف الإلهية لتعملوا وفق أهوائكم وميولكم دون قيد أو حد.
وقد تقدم معنا أن إنكار الشيء من دون علم بعدمه خلاف حكم العقل القطعي.
وعندما يسلّم أمثال هؤلاء بأن إنكارهم لا مبرر له عندها نقدم لهم الأدلة

العقلية الدالة على صحة النبوات ولزومها والموجودة في كتب علم الكلام[١٠] وهنا يكفينا الإلتفات إلى هذه الآية الشريفة: " وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ". الأنعام ٩١.

حقاً، لم يعرفوا الله:

الأشخاص الذين يقولون إن الله لم يبعث نبياً هم في الحقيقة يجهلون حكم الله، الله الذي أعطى البشر كل ما يحتاجون، هل يا ترى يترك الإنسان دون إرسال الهداة والأدلة الذين يدلونه على الهدف من الخلقة ويميزون له طريق السعادة من طريق الشقاء، ويطلعونه على مستقبله؟

في حين أن احتياج البشر لهذا أكثر من احتياجه لأي شيء آخر، هل يا ترى حاجة الإنسان لأظافر الأصابع أو الحاجب فوق عينه أو الأشياء الأخرى أكثر من احتياجه للمرشد والدليل؟

المعرفة بعالم الوجود، ببركة المرشد:

البشر الذي أودع الله فيه قابلية الإحاطة بعالم الوجود ومعرفة حقائق الأشياء، والإطلاع على عالم الملك والملكوت، والوصول في مجال معرفة الله إلى مرتبة حق اليقين، وفي مجال العمل أودع فيه سبحانه إمكانية الحصول على الكمالات الإنسانية والفضائل الأخلاقية، هذا البشر الذي أودع الله فيه كل هذه القابليات، والذي يستطيع أن يصل إلى هذه الكمالات إذا توفر له المعلم الروحاني، هل يا ترى يمكن أن لا يرسل الله سبحانه هذا المعلم الروحاني إليه لسبب أو لآخر، كي يستفيد من ينبوع علم الله الذي لا نهاية له؟

---

[١٠] - راجع مثلاً كتاب النبوة للمؤلف رضوان الله عليه.

العقل محدود وتابع للغريزة:

هل صحيح أن نقول إن العقل وحده كافٍ مع أن كل عاقل يفهم أن إدراكاته العقلية محدودة وأن مجهولاته لا نهاية لها، وأنه في مقام تمييز الخير والشر وتحديدهما يكون أسير الغرائز والطباع الحيوانية ويبتلى بالعادات والتقاليد ومرض اتباع الآخرين، بحيث أنه يصاب بالخطأ والتردد، وما أكثر الخيرات التي يحسبها شراً، والشرور التي يحسبها خيراً.

وأكثر من هذا أن العقل البشري لا يعرف شيئاً عن عالم ما بعد الموت نهائياً، ولا يعلم بالتالي الأمور التي هي ضرورية لسعادته في حياته الأخرى حتى يستعدّ لها هنا.

وإذا لم يبين الله سبحانه للإنسان عن طريق رسله وسيلة تأمين سعادة الحياة الأخرى ولم يمكننا من معرفة ذلك، فإن هذا ظلم واضح لا مجال للتردد فيه.

باختصار كما أن العين في الظلام لا ترى شيئاً ولا تميزه إلا إذا كان الضياء موجوداً، فإن العقل الإنساني عاجز عن تمييز الخير والشر وحده – كما ذكر – وهو محتاج إلى نور الشرع والرسل الإلهيين.

إنكار رسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم:

منكرو نبوة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم كاليهود والنصارى أيضاً غير منسجمين مع حكم عقلهم ووجدانهم، ولو أنهم من أهل الإنصاف، ولم يعمهم التعصب والعناد وتقليد الآخرين لكان تذكيرهم بهذه الآية من القرآن الكريم كافياً:

" وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ". العنكبوت ٤٨.

لأن نبي الإسلام لم يقرأ كتاباً ولا أمسك قلماً بيده قبل نزول القرآن، إذن فليس ثمة أي شك في أنه نبي الله ومن البديهي في تاريخ نبي الإسلام أنه لم يذهب إلى مدرسة، ولا عرف أستاذاً ولا تتلمذ عند أستاذ، وكان دائماً في مكة باستثناء رحلتين إلى الشام إحداهما قبل بلوغه مع عمه أبي طالب رضوان الله تعالى عليه والثانية عندما كان عمره خمساً وعشرين عاماً وكان معه " ميسرة " في تجارة سيدتنا خديجة رضوان الله عليها وليست أحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخافية بوجه من الوجوه على أهل مكة، والكل يعلم أنه كان أمياً، ومع ذلك جاء من عند الله بكتاب يضم كل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة والقوانين والأحكام الجزئية في العبادات والمعاملات والسياسات والإجتماعيات مشتملاً على تنبؤات أثبت الواقع صحتها، وهذا الكتاب بعدُ من حيث الفصاحة والبلاغة قد خضع له جميع بلغاء العالم، ولم ير فيه أي اختلاف.

وإضافة إلى ذلك فإن معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أحصاها البعض فبلغت الأربعة آلاف معجزة[١١].

إنكار الولاية والإمامة:

الأئمة الإثنا عشر أي أمير المؤمنين علي عليه السلام والحسن والحسين وعلي ومحمد وجعفر وموسى وعلي ومحمد وعلي والحسن والمهدي عجل الله تعالى فرجه الذين حمل الحسد وحب الرئاسة على المسلمين الخلفاء الظلمة من بني أمية وبني العباس على إنكار إمامتهم، وأصبح واجباً لعلاج الشك في ولايتهم الرجوع إلى الكتب التي تتحدث عن ذلك والتي تنقل مئات

[١١] - يراجع البحار الجزء السادس، وأنيس الأعلام ج ٢، وحياة القلوب للمجلسي رضوان الله تعالى عليه.

الأحاديث عن العامة[١٢]، ولأن الهدف هنا إشارة مختصرة لعلاج الشك والتردد، فإننا ننقل الحديث المسلّم عند الشيعة والسنة والمروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً ".
هذا الحديث ذكره السيد البحراني في كتاب غاية المرام من طرق العامة ب ٣٩ طريقاً ومن طرق الخاصة ب ٨٢ طريقاً.
وهناك أيضاً أحاديث مروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أسماء الأئمة وصفاتهم وأن الثاني عشر منهم هو المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف الذي تكون له غيبة طويلة وتحدث في مدة غيبته فتن وعند ظهوره يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.
وقد روي في هذا الموضوع أكثر من ألف حديث فليراجع الكتاب المذكور.

[١٢] - الشافي للسيد المرتضى، والطرائف للسيد ابن طاووس، والمرجعات، والنص والإجتهاد للسيد شرف الدين وغير ذلك.

النفاق

النفاق أكبر الذنوب القلبية، وأصعب الأمراض النفسية يُسقط صاحبه كلياً من عالم الإنسانية، ويضعه في عداد الشياطين، بل في أسوأ الدركات وقد عين القرآن الكريم مكان المنافقين في قعر جهنم وأسفل درك من النار[١].

فعذاب المنافقين إذن أكثر من عذاب الكفار لأن النفاق أسوأ من الكفر، إن المنافق لأجل الحصول على الآثار الدنيوية للتدين، يظهر نفسه بمظهر المتدينين في القول والعمل، في حين أنه قلباً ليس متديناً، مثلاً يظهر الشهادتين باللسان ويقر بالقرآن وحقانية القيامة في حين أنه لا يعتقد بهما، ولم يعقد عليهما قلبه، بل هو منكر لهما.

" يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ". الفتح ١١.

أو أنه يصلي أمام الناس ليكسب قلوبهم، ويحج، ويتصدق، حتى يُعرف بينهم بالتدين ويمدحونه ويثنون عليه، ليطمئنوا له ويعتمدوا عليه.

بناءاً على هذا فقد جُمع في المنافق بالإضافة إلى الكفر – الكذب

[١] - " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ". النساء ١٤٥.

والخداع والإحتيال – والإستهزاء.
يكذب على الله ورسوله وأهل الإيمان ويخادعهم، ويسخر من الحق، أي في الحقيقة يكذب على نفسه ويخادعها، ويسخر منها بالتفصيل المذكور في القرآن المجيد ويأتي بيانه.

أنواع النفاق:

النفاق يعني التلون، مخالفة الظاهر للباطن، أي أن ظاهره الإيمان وباطنه الكفر، ظاهره حسن وباطنه قبيح، وهذا على ثلاثة أقسام: نفاق مع الله في أصل الإيمان ونفاق مع الله في لوازم الإيمان وفروعه، ونفاق مع الناس.

النفاق على الله في أصل الإيمان:

في قلبه، لم يصدق بالله والآخرة ولكنه في الظاهر وأمام المسلمين يظهر نفسه بمظهر المؤمن، حتى يستفيد من أحكام الإسلام التي تعود عليه بالنفع كالطهارة، الزواج، الإرث وغير ذلك.
يقول تعالى في سورة البقرة حول هذا النوع:
" ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين ". البقرة ٨.
ويقول تعالى:
" وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون ". البقرة ١٤.
وهذه أسوأ مراتب النفاق التي لا يتصور أسوأ منها، وعذاب منافق من

هذا النوع في الآخرة أكثر من الكفار، وسوف لن يكون له نصيب من النجاة أبداً، وقد ذكر في القرآن الكثير من انحطاط المنافقين وشدة عذابهم ولزوم اجتنابهم، وتعداد هؤلاء بين المسلمين كثير بل إن بعضهم كبني أمية حكموا المسلمين عشرات السنين.

على كل حال فإنه بمجرد أن يظهر نفاق هذا النوع من المنافقين بواسطة أقوالهم وأفعالهم كيزيد بن معاوية فإن التبرؤ منه ولعنه في حياته وبعد موته واجب على كل مسلم، وحقاً إن ضرر هذا القسم من المنافقين على الإسلام أكثر من ضرر الكفار.

التقية وأقسامها:

النفاق على الله كما اتضح هو بمعنى إخفاء الكفر والتظاهر بالتدين للإستفادة من امتيازات التدين، ولكن التقية التي يوجبها العقل والشرع هو بعكس النفاق أي إخفاء الإيمان القلبي عن المنكرين ليتخلص من الضرر المالي أو الجسدي أو الإهانة، فيما إذا لم يكن بالتظاهر نفع للدين، أي إذا أظهر معتقده القلبي يراق دمه أو يؤخذ ماله دون أن يكون في ذلك نفع للدين هنا تكون التقية واجبة.

وكلما كان إظهار الحق في مورد سبباً في تقوية الحق فترك التقية المستحبة كعدم تقية ميثم التمار وأبي ذر الغفاري وحجر بن عدي رضي الله عنهم.

وكلما كانت التقية أي إخفاء الحق وعدم إظهاره سبباً في تقوية الباطل واندثار الحق تكون التقية حراماً ويكون تركها واجباً كما أن الحسين عليه السلام لم يتق وأظهر الحق.

وباختصار إن التقية على ثلاثة أقسام: واجب ومستحب وحرام ويمكن تصور قسمين آخرين لها مكروه ومباح.

التقية غير النفاق:

مما ذكر يعلم أن التقية في وجوبها وجوازها ليست نفاقاً بل هي بعكسه وهي بعدُ ضرورة بحكم العقل، والشخص الذي لا يتقي حيث تلزم التقية يوبخه العقلاء على ما فعل، لأن هدر دمه وإلقاء نفسه في التهلكة دونما طائل ليس إلا سفهاً لا غير.

وفي الشريعة الإسلامية المقدسة أُمرنا بإخفاء الحق (والعمل به في حال إخفائه) في موارد الخوف على النفس أو العرض أو المال، وقد بين الله سبحانه في سورة آل عمران الآية ٢٧ وسورة النمل الآية ١٠٨ وجاء التأكيد في روايات أهل البيت على هذا الموضوع كثيراً، والإستطراد في بيانه خارج عن بحثنا.

النفاق على الله في لوازم الإيمان:

أي أن يكون الشخص ذا إيمان ضعيف بالله ويوم الجزاء ولكنه لا يتحلى بشيء من لوازم هذا الإيمان أو أن فيه ضعفاً كبيراً في هذا المجال، ولكنه يدّعي كذباً أنه يمتلك هذه اللوازم ويتحلى بها، مثلاً: كأن لا يكون في نفسه وقلبه أي خوف من القيامة والحساب وميزان الأعمال ونار جهنم، إلا أنه يدّعي أنه يخاف الله، وأنه يخاف يوم القيامة وحسابها، ودليل كونه كاذباً عدم اجتنابه الذنوب، حيث أن من خاف طعاماً مسموماً لا يمد يده إليه كذلك من خاف العدل الإلهي والعقاب الإلهي، فمن المستحيل أن يمعن في المعاصي غير آبه بشيء.

ولذا نقل عن أحد الأعلام أنك إذا سئلت هل تخاف الله فاسكت ولا تجب لأنك إن قلت " لا " كفرت بما أخبر الله به من مجازاة يوم القيامة، وإن قلت " نعم " فقد كذبت لأن علامة الخوف من الله الفرار من الذنوب.

المعصية، لا عن تجبر:

إلا أن الحق أن نقول إن أهل الإيمان يعلمون أن الله حاضر وناظر وهم خائفون من بطشه، مشفقون من عدله، ولذا فإنهم أبداً لا يعصون عن تجبر وإنكار للمجازاة الإلهية، بل إنهم إذا أذنبوا فلغلبة النفس والشيطان وركونهم المفرط للحلم الإلهي، ودليل ذلك الندامة، فيما بعد والسعي لتحصيل التوبة والتعويض.

وباختصار إن صدور الذنب ليس دليل عدم الإيمان، بل إن عدم الندم هو دليل عدم الإيمان.

روي عن الصادق عليه السلام: " من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ".

وفي دعاء أبي حمزة الثمالي يقول الإمام السجاد عليه السلام: " إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد ولا لأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض، ولا لوعيدك متهاون، ولكن خطيئة عرضت، وسوّلت نفسي وغلبني هواي وأعانني عليها شقوتي وغرّني سترك المرخى عليّ ".

الإنفاق علامة الأمل بالله:

من موارد النفاق على الله في لوازم الإيمان ادعاء الرجاء بالله من الشخص الذي ليس في قلبه أمل بالله أو أن أمله ضعيف جداً، أي يقول أنا مؤمل بربي في حين أنه يكذب ويتهرب من بذل عمره وماله في سبيل الله كأن يعتبر الإنفاق في سبيل الله ضرراً ولا يؤمل أن يعوض الله عليه ذلك في الدنيا والآخرة، ولو أنه كان من أهل الأمل بالله لما تهرب من بذل روحه في سبيل الله ولكان اجتنب الإتجار مع غيره ولو بدرهم لا قيمة له.

باختصار كما أن دليل الخوف من الله اجتناب الذنوب والتوبة إليه تعالى فإن علامة الأمل بالثواب الإلهي السعي في الطاعة، كما في الأعمال الدنيوية حيث يبذل الإنسان جهوداً لأن له أملاً مادياً، وخاصة عندما يكون له طمع باستحصال المال فإنه يرتكب في سبيل ذلك من الأعمال ما لا يقال ولا يكتب...

ادعاء المقامات الروحانية:

ومن موارد النفاق أيضاً ادعاء الإنسان مرتبة الزهد في الدنيا والحال أن قلبه ليس خالياً من حب الدنيا، وادعاء مقام التوكل على الله والشكر والرضا بقضائه والتسليم له وحبه سبحانه وتعالى، والحال أن اعتماده حقيقةً على الأسباب المادية وليس أبداً بصدد شكر نعم الله التي لا تحصى، وعندما يتعرض للهزات ويواجه المصائب فإنه لا يكون راضياً بقضاء الله.

إن هذا القسم من النفاق يختلف عن القسم الأول لأن الإيمان بالله ويوم الجزاء موجود في هذا النوع من الناس وإن كان ضعيفاً، وإذا مات صاحبه عليه فإنه ينجو حتماً من الهلاك الأبدي ولا يخلد في العذاب، إنه يخرج من النار ولكن بعد تحمل الآلام ومواجهة الصعاب والإبتلاءات، وحتى بعد النجاة من النار فإنه سيكون بسبب نفاقه محروماً من درجات أهل الصدق ومقاماتهم.

النفاق على الله في العبادة:

النفاق على الله في أنواع العبادات من الواجبات والمستحبات البدنية والمالية كالصلاة والصوم والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون بأن يؤدي الشخص عبادة في حين أن تمام الداعي أو جزء الداعي والتحرك في هذا العمل من أجل أن يظهر نفسه للناس بمظهر المتدين

ليكسب بذلك جاهاً ومنزلة.
شخص من هذا النوع يسمى يوم القيامة بأربعة أسماء: الغادر، الفاجر، الكافر، الخاسر، وطبقاً للآيات والأخبار فإن عمله حرام وباطل، وهو في الآخرة معذب إلا أن يتوب ويتلافى ما مضى، وقد ذكر تفصيل ذلك في كتاب الكبائر.

الذنوب التي تورث النفاق:

بعض الذنوب تقضي على الإيمان، وتسبب النفاق القلبي، ومن مات على غير الإيمان فلا نجاة له أبداً، من جملة هذه الذنوب الرياء كما صرح بذلك في حديث طويل عن الإمام الصادق عليه السلام وحيث قد ذكر في كتاب الذنوب الكبيرة فلا داعي لتكراره هنا.
ومثل قتل النفس وترك الصلاة والزكاة والحج والبهتان أيضاً وكذلك أمور أخرى أشيرَ إلى بعضها في الروايات كالفرح لمصاب سيد الشهداء سلام الله عليه.
ينقل في الجزء العاشر من البحار ضمن حديث طويل عن إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشهادة الحسين عليه السلام قوله صلى الله عليه وآله: " وكأني أنظر إليه وإلى مصرعه ومدفنه بها، وكأني أنظر إلى السبايا على أقتاب المطايا وقد أهدي رأس ولدي الحسين إلى يزيد فوالله ما ينظر أحد إلى رأس الحسين ويفرح إلا خالف الله بين قلبه ولسانه وعذبه عذاباً أليماً ".
أي أن الإسلام سيكون على لسانه فقط، وقلبه غارق في ظلام الكفر.
ومن جملة الذنوب التي تجلب النفاق البخل في أداء النفقات الواجبة كالزكاة وغيرها كما يقول تعالى في سورة التوبة:
" ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكوننّ من

الصالحين* فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون* فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ". التوبة ٧٥ – ٧٧.
وقوله تعالى: " إلى يوم يلقونه " يعني أنهم عند موتهم يموتون على النفاق.

النفاق على الناس:

أي كون الشخص ذا وجهين ولسانين: فهو في حضور شخص يمدحه ويثني عليه ويظهر محبته وحب الخير له، وفي غيابه بخلاف ذلك أي يذمه ويتصدى لإيذائه والإضرار به.
أو أنه عندما يكون عداء بين شخصين يظهر لكل منهما أنه معه ضد الآخر ويحسّن له عداءه للآخر.
وهنا ينبغي القول أنه إذا كان في مثل هذا المورد يظهر لكل منهما الصداقة دون أن يظهر أنه عدو للآخر، ودون أن يوغر صدر أحدهما ضد الآخر فليس ذلك نفاقاً وكذلك إذا أظهر الصداقة لشخص سيء وشرير في حضوره حتى يتخلص من شره فليس ذلك نفاقاً بل هو من موارد التقية التي تصبح في بعض الموارد واجبة.

التقية غير التملق:

وهذا السلوك جائز فقط عند خطر الضرر من ذلك الشرير أما ما يُرى من أكثر الناس من التملق لأشخاص ضعفاً أمامهم أو طمعاً أو توهماً لأمور لا حقيقة لها، ولذلك يتصدون لمدحهم في حين لا يكون في قلبهم أي وجود حقيقي لهذه الكلمات بل قد يكون ما في قلبهم ضد ذلك ويسمّون هذا مداراة وحسن

تصرف فإنه في الحقيقة نفاق قطعي وحرام.

التلون رديف الشرك:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام أن من عزائم الله في الذكر الحكيم التي عليها يثيب ويعاقب ولها يرضى ويسخط أنه لا ينفع عبداً وإن أجهد نفسه وأخلص فعله أن يخرج من الدنيا لاقياً ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها: أن يشرك بالله في ما افترض عليه من عبادته أو يشفي غيظه بهلاك نفس أو يعر بعملٍ فعلَه غيرُه أو يستنجح حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه أو يلقى الناس بوجهين أو يمشي فيهم بلسانين[٢] ".

ويقول الباقر عليه السلام: " بئس العبد عبداً هُمَزة لُمَزة يُقبِل بوجه ويُدبِر بآخر ".

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم مَن إذا ائتُمن خان وإذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف[٣] ".

وعن السجاد عليه السلام: " إن الذنوب التي تردّ الدعاء سوء النية وخبث السريرة والنفاق مع الإخوان وترك التصديق بالإجابة وتأخير الصلوات المفروضات عن أوقاتها وترك التقرب إلى الله بالبر والصدقة واستعمال البذاء والفحش في القول[٤] ونكتفي هنا بهذا المقدار لأن بحث النفاق ورد في كتاب الذنوب الكبيرة ضمن البحث حول الرياء والمكر والغيبة.

---

٢ - نهج البلاغة الخطبة ١٥٣ ويَعُر بمعنى يعيب ويُعير.
٣ - أصول الكافي.
٤ - معاني الأخبار.

عذاب النفاق مرتبط بمقداره:

كما تقدم فإن لكل من النفاق مع الله ومع الخلق مراتب ودرجات تتفاوت عقوبة النفاق وحرمته بتفاوتها مثلاً النفاق مع الله مرتبته الشديدة إظهار الإيمان باللسان وإنكاره بالقلب، ومن مات وهذه حاله يخلد في النار وعذابه أشد من عذاب الكفار.

والمرتبة التي تليه إظهار الإيمان واليقين باللسان في حين أنه في الحقيقة شاكّ، ومن مات على ذلك فهو في جهنم إلا أن عذابه ليس كعذاب المنكر.

والمرتبة التي تليه أن يكون إيمانه باللسان والقلب معاً لكن في مقام عبادته لله يجعل له شريكاً ويرائي، شخص كهذا إذا مات فلا يخلد في النار بل إن إيمانه ينجيه في نهاية الأمر ويدخل الجنة ولكن مدة عذابه في البرزخ ومدة بقائه في النار تتوقفان على مقدار ريائه.

عدل الله – الشفاعة – التوبة:

الرياء الذي مارسه هذا الشخص إما أن يكون في الواجبات، أو في المستحبات، في أصل العمل أو في كيفيته وخصوصيته، مثلاً، جاء بأصل الصلاة لله ولكنه في الأثناء أظهر الخشوع رياءاً، أو راءى في الصلاة كلها، ويمكن أن يكون مرائياً في جميع عمره أو في جانب منه، على كل حال لا شك في أن العدل الإلهي يتدخل وكل شخص يعذّب بمقدار ذنبه، إلا أن يعامله الله بفضله وينجيه بشفاعة محمد وآل محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

ثم أن العذاب هو فيما إذا مات المرائي ولم يتب، فإذا وفق للتوبة الصادقة وقضاء العبادات التي أدّاها رياءاً، وأصلح ما أفسد من أمره، فإنه ينجو من العذاب، وقد تقدم معنا أن المرائي إذا كان مصراً على الرياء

ومستمراً، فبعيد أن يموت على الإيمان، ذلك أن الذنوب التي تورث النفاق إنما تورثه في حال الإصرار عليها.

ولا يفوتنا هنا أن نسجل أن أقل مراتب النفاق مع الله في العبادة أن يزيد خشوع البدن على خشوع القلب وقد ورد بهذا المضمون رواية عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: " ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق[٥] ".

مراتب النفاق في التوبة:

النفاق مع الله من لوازم الإيمان هو الآخر له مراتب أيضاً وتفصيلها يوجب الإطالة، لذا نكتفي بقسم منها هو مراتب النفاق مع الله في التوبة.

الشخص الذي يقول: ندمت على ذنوبي وتبت، ويستغفر بلسانه في حين لا يكون نادماً بقلبه، ولا مقلعاً عن ذنبه، بل هو مصر عليه مستمر به، هذا الشخص مبتلى بأسوأ مراتب النفاق في التوبة.

يقول الإمام الرضا عليه السلام: " والمستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزيء بربه[٦] ".

الندامة القلبية لله وحده:

والمرتبة التالية، مرتبة من ترك الذنب ولكن لم يندم قلبه، فإذا قال تبت فهو كاذب، لأن حقيقة التوبة الندم القلبي على الذنب، ومثل هذا: من يندم فعلاً على ذنبه، ولكن لا يكون ندمه لله، بل للأضرار والإبتلاءات الدنيوية التي

---

[٥] - أصول الكافي كتاب الإيمان والكفر.

[٦] - أصول الكافي كتاب الدعاء والإسنغفار.

سببها له الذنب كأن يكون ارتكب ذنباً مضراً ببدنه أو تسبب بفضيحة له أو جرّ عليه سجناً أو عقوبات أخرى من الحكومة، هذا الشخص إن قال أستغفر الله، لهذا السبب فهو منافق وكاذب.
والمرتبة الأقل، مرتبة الشخص الذي ترك الذنب وهو نادم جداً على ما فعل، ولكن سبب تألمه وحزنه هو ابتلاؤه بعذاب الآخرة وحرمانه من الثواب الإلهي.
مَثَلُ توبة شخص من هذا القبيل واعتذاره من الله سبحانه مثل شخص ظالم وجانٍ مطارد من قبل الحكومة لإلقائه في السجن عقاباً له، لذا يضطر للمجيء إلى المظلوم والإعتذار منه وطلب المسامحة، يقصد بذلك تحصيل رضاه حتى يتخلص من شر الحكومة، في حين أنه لولا ملاحقة الحكومة والخوف منها لما اعتنى بالمظلوم أبداً.
الخلاصة هذا الإعتذار ليس حقيقياً وليس صادقاً بل هو مكر بهدف الخلاص من العقوبة، والشخص الذي يندم على ذنوبه خوفاً من جهنم وعذابها ويطلب العذر من الله ليتخلص من النار، هذا الشخص لو اطمأن إلى أنه لم يدخل النار لما تاب ولما تندم ولما اعتبر نفسه عاصياً.
اعتذار شخص كهذا هو ظاهري وليس حقيقياً، وهو في الحقيقة مرتبة من النفاق.
وقد صرح بهذا المحقق الطوسي والعلامة الحلي في تجريد الكلام وشرحه وإليك النص:
" ويندم على القبيح لقبحه وإلا لانتفت التوبة[٧] ".

[٧] - راجع حول ذلك مرآة العقول ج ١١ / ٢٩٥ والبحار ٦ / ٤٣.

يعفو الله بفضله:

وهذا وإن كان صحيحاً ولا يقبل التشكيك ولكن الأمل بالفضل الإلهي أن الذين يندمون خوفاً من العذاب والحرمان من الثواب يتوبون، إذا كانوا عازمين على الترك في المستقبل وتدارك ما مضى، فإن الله بفضله يتقبل توبتهم وينجيهم مما يحذرون، (أي عذاب جهنم)، وينيلهم ما يؤملون أي الجنة.

ومراتب النفاق مع الناس ذكرت في كتاب الذنوب الكبيرة، ويجب أن نعلم إجمالاً أن كل نفاق يكون ضرره ومفسدته أكثر فإن عقابه أكثر، والمهم هو طريق علاج النفاق واستئصاله.

علاج النفاق مع الله:

المنافق هو الشخص الذي زيّن ظاهره بالإيمان أو التقوى والإخلاص دون أن يكون في باطنه شيء غير ظلمة الكفر والشرك، وهو بسلوكه هذا لا يحصل على أي نفع، ولا يضر سوى نفسه لأن خالق العالم الذي يعلم السر وأخفى، سوف لن يجعله بسبب ظاهره المخادع في عداد الصادقين بل إنه يرميه بسبب خبث باطنه وتظاهره بالصلاح إلى أسفل السافلين في جهنم، إن هذا في الحقيقة يكذب على نفسه ويحتال عليها:

" يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم ". البقرة ٩.

كيف يحتال على نفسه:

مثلاً: رغم عدم وجود الإيمان في القلب فإنه يظهره باللسان حتى يستفيد من الأحكام والآثار الدنيوية المترتبة عليه كطهارة البدن والإرث والنكاح والأشياء الأخرى التي هي من الأحكام الظاهرية في الإسلام، ولكي يحسب من المؤمنين فيما إذا كانت هناك آخرة.

ومثال آخر: المرائي الذي يؤدي بعض العبادات لكي يكسب جاهاً بين الناس في الدنيا ويكون له الثواب في الآخرة، ويحسب نفسه بهذا السلوك ذكياً محتالاً رابحاً، في حين أنه بسلوكه الأحمق هذا أو بتصوره الفاسد قد خدع نفسه، لأنه لن يجني في العالم الآخر الذي هو عالم ظهور الحقيقة وانكشاف الباطن إلا ظلام الكفر والشرك، وكل ما أدّاه رياءاً من العبادات والحسنات والخيرات بتصوره سوف يراه في عداد سيئاته، لأن الحسنة هي العمل الخالص التي تكون لله فقط وعندما يكون غير الله على نحو الإستقلال أو الإشراك هدفاً في العمل فإنه يحسب سيئة بالتأكيد.

الإستفادات الظاهرية ليست نتيجة الإحتيال:

ما يستفيده المنافق في الدنيا من إظهاره الإسلام كطهارة البدن والنكاح والإرث، ذلك من آثاره إسلامه الظاهري وليس من آثار نفاقه واحتياله، لأن مشرع الإسلام جعل هذه الأحكام للإسلام الظاهري لحِكم عدة، دون البحث عن باطن الأشخاص، أي أن من يظهر الإسلام، ما دام كذبه لم ينكشف فهو طاهر ولا فرق بينه وبين سائر المسلمين في النكاح والإرث، حتى إذا كان في الحقيقة كاذباً والمسلمون لا يعلمون.

وأما الآثار المادية الأخرى أي ثراؤه وحصوله على الجاه والمقام بسبب الإحتيال والرياء، فيجب أن يعلم أولاً أن الكذب غالباً ما ينكشف، والشخص الكاذب لا يصل إلى مبتغاه.

ثانياً: أن قلوب الناس بيد الله، وما لم يشأ هو سبحانه فإن قلوب الناس لن تخدع به ولن تتأثر. وإذا قضت المشيئة الإلهية أن يخدع الناس به، فيجب أن يعلم أن هذه الأمور مهلة أعطيت له ليصل إلى جزء من أهدافه، وهي نفسها حيلة من الله تعالى في

مقابل حيلته، لأنه يتصور أن هذه المهلة تنفعه في حين أنها ضرر عليه، حيث أنه كلما أُهمل في الدنيا أكثر يظل يحتال وهذا يزيد في ظلمة قلبه واستحقاقه العقوبة التي تواجهه في الآخرة.
أما بالنسبة لدنياه فإن المال والمقام الذي يصل إليه بالإحتيال ليس إلا عذاباً له في هذه الدنيا، وما يكسبه لسعادته وراحته لن يستفيد منه إلا النكبة والوبال، وهذا المعنى واضح في الأثرياء غير المؤمنين، فعلى رغم أن ظاهرهم رفاهية العيش والراحة إلا أنهم في الباطن في منتهى الضيق والضنك، وهم دائماً مبتلون بالمنغصات يحترقون بنار الحرص والحسد والبخل أو مشاكلهم ومشاكل المؤذين لهم، وقد أشير إلى هذا المطلب في سورة التوبة يقول تعالى:
" فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ". التوبة ٥٥.
من هذا العرض علم أن المراد بالخدعة الإلهية التي هي جزاء خدعة المنافقين هو إمهالهم ووصولهم لآمالهم الفاسدة لأن حقيقة الخدعة إلحاق الضرر والشر بالغير على صورة النفع والخير وواضح أن إمهال المنافق ووصوله إلى المراد ظاهره الخير والنفع ولكن حقيقته الضرر.
يقول تعالى في سورة النساء:
" إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ". النساء ١٤٢.
ولكشف هذه الحقيقة وتشبيه المعقول بالمحسوس تأمل في هذه القصة:

آكل الطين والعطار:
يحكى أن شخصاً كان معتاداً أكل الطين، ذهب إلى عطار ليشتري سكراً وقد كان الوَزْنُ الذي يزن به العطار من طين فوضع العطار وزنه في كفة الميزان وذهب لإحضار السكر ففرح المشتري آكل الطين بابتعاد العطار وشرع يأكل من الوزن فتنبه العطار له، إلا أنه تأخر عمداً، هنا فرح المشتري وتصور أنه ما يزال يخدعه، والعطار تأخر أيضاً مطمئناً لأنه كان يعلم أن المشتري التعيس إنما يخدع نفسه لأنه كلما أكل من الوزن كلما قلت كمية السكر التي سيأخذها.
التوبة من النفاق:
بعد أن اتضح حجم ذنب النفاق وشدة عذاب المنافق وضرره فإن الواجب الفوري بحكم العقل أن يتوب الشخص المنافق من نفاقه، ولأن النفاق ناشيء من عدم الإيمان أو ضعفه، فإذن يجب أن يندم على كفره وشركه ويكون بصدد تحصيل الإيمان والتوحيد بالتفصيل الذي يذكر، يسعى في سبيل ذلك ويزيّن نفسه بزينة الصدق والإخلاص ويوفق بين ظاهره وباطنه وإذا تطابق الظاهر والباطن فلا شك في نجاته حتى ينعم بدرجات الصادقين ومقاماتهم كما يقول تعالى في القرآن الكريم بعد ذكر عذاب المنافقين:
" إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ". النساء ١٤٦.
في هذه الآية ذكر تعالى أوصافاً متعددة وصعبة للتوبة من النفاق لا يمكن استئصال جذور النفاق إلا بها، وهي كما يلي:

شروط الإقلاع عن النفاق:

الأول: التوبة أي الرجوع عن الكفر والشرك إلى الإيمان بالله وعبادته وحده.

الثاني: الإصلاح أي أن التوبة وحدها لا تكفي إلا إذا أصلح الإنسان نفسه وأعماله الفاسدة.

الثالث: الإعتصام أي أن الإصلاح لا ينفع إلا إذا اعتصم الإنسان بالله أي يتبع كتاب الله وسنة نبيه لأنه لا طريق إلى الله إلا الذي عيّنه هو سبحانه.

الرابع: الإخلاص أي الإعتصام بالله إنما ينفع حين يخلص التائب دينه لله، لأن الشرك ظلم لا يغتفر، والمنافق الذي لا يؤدي هذه الشروط الأربع التي ذكرت في الآية الشريفة حق الأداء فلن يشفى من مرض النفاق.

علاج الذنوب القلبية، أصعب:

سر هذا أن الذنوب القلبية التي مكانها الذات الإنسانية كالنفاق، هي أصعب وعلاجها أكثر تعقيداً من الذنوب التي ترتكب بالجسم كالزنا والسرقة لأنه في الذنوب الجسمية يكفي للطهارة من تلك الذنوب الحسرة والندم الحقيقي، وفي السرقة بالإضافة إلى ذلك إرجاع المال لصاحبه.

مثل الكذب الذي تكفي فيه الندامة، والغيبة التي يشترط فيها أيضاً رضا المغتاب، ومعلوم أنه كلما كان تألم القلب وتحسره من الذنب أكثر، كلما ازداد طهارة منه.

ولكن في الذنب القلبي كالنفاق لا تكفي الحسرة والندامة، ولا تزول بذلك ظلمة القلب إلا أن يقطع المراحل التي ذكرت في الآية الشريفة. هناك

يشفى قلبه ويصبح قلبه سالماً من هذه الذنوب.
مثلاً: الشخص الذي قضى شطراً من عمره في الرياء، وفجأة ومض برق من معدن الرحمة الإلهية فإذا به يرى نفسه خاسراً ويعرف عظمة ذنبه ويتأسف على ما فرط ويندم بشدة، هذا الندم وحده لا يطهره ولا يشفي مرض قلبه بل الواجب أن يصلح حاله بأن يقتلع جذور شجرة الشرك الخبيثة من قلبه – كما ذكر في أول كتاب الذنوب الكبيرة – وينور قلبه بنور التوحيد عن طريق التفكير والطلب من الله حتى يتيقن أنه لا مؤثر ولا مدبر في عالم الوجود إلا الذات الإلهية جل جلاله وتمام مراتب الوجود خاضعة له، وهذا وحده لا يكفي بل لا بد من الإعتصام بالله عن الطريق الذي قرره سبحانه ويقترب منه وهو أداء الواجبات وترك المحرمات، وعليه فيجب أن يؤدي مرة ثانية كل العبادات التي أداها رياءاً ولذا كانت باطلة وفاسدة، وهذا الإعتصام إنما ينفع فيما إذا أخلص لله في هذه العبادات التي يقضيها وفي سائر العبادة التي يؤديها فيما بعد.

لا مناص من الإخلاص:

بناءاً عليه ما لم يخلص فلن يتخلص من النفاق ولن يشفى ولكي يصبح مخلصاً فإن عليه بالإضافة إلى صلاة الجماعة ودفع الزكاة الواجبة والحج وغيره مما أمرنا بأدائه علناً أن يؤدي سائر العبادات لمدة خفاء دون أن يعلم الناس به، وخصوصاً الإنفاقات المالية، عليه أن يؤديها بحيث لا يعلم بها إلا الله، حتى يذهب من قلبه بالتدريج مقتضى الرياء والتظاهر أمام الناس وسببهما حتى يصل إلى درجة يتساوى لديه مدح الناس له وذمهم إياه، ولا يؤثر فيه أي منهما.

في إخفاء العمل والإخلاص:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " أعظم العبادة أجراً أخفاها، إن فضل عمل السر على عمل الجهر سبعون ضعفاً[٨] ".

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: " من كنوز الجنة إخفاء العمل والصبر على الرزايا وكتمان المصائب ".

وقد عد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " من يتصدق سراً بحيث لا تعلم شماله ماذا تفعل يمينه (كناية عن المبالغة في السرية) من الذين يظلهم الله بعرشه يوم لا ظل إلا ظله[٩] ".

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: " ما بلغ شخص حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يحمد على شيء من عمله[١٠] ".

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر رضوان الله تعالى عليه: " لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى الناس أمثال الأباعر فلا يحفل بوجودهم ولا يغيره ذلك كما لا يغيره وجود بعير عنده ثم يرجع إلى نفسه فيكون أعظم حاقر لها [١١]".

أي يرى الناس كذلك أثناء العبادة، فيكون الناس والجمل لديه سواء فكما أنه عند عبادته إذا كان بالقرب من بعير لا يكون لوجوده أي تأثير في نفسه، فكذلك وجود الناس ينبغي أن لا يترك أي تأثير في نفسه وقوله أعظم

---

[٨] - سفينة البحار ج ١، ص ٤٠٤.
[٩] - سفينة البحار ج ١، ص ٥٩٥.
[١٠] - سفينة البحار ١، ص ٥٠٠.
[١١] - عدة الداعي. ٢٠٤ والحديث غريب كما ترى. رغم تقريبه المعقول وعبارة فلا يجعل إلى عنده ليس من الحديث بل هو شرح بعضهم كما ذكر ابن فهد عليه الرحمة في المصدر (المترجم).

حاقر لها أي مقابل الله.
إذن فإذا كان حاله بحيث أنه عند رؤية الناس يزيد عمله ويحسّن فعله، فيعلم أنه ما يزال جاهلاً وأسير الشرك والرياء ولم يعرف الله بالربوبية والقاهرية، ومن عداه العبودية والمقهورية.
من هذا البيان يعلم جيداً أن المراد من رؤية الناس كالأباعر هو أنه كما لا يعتني عنايةً خاصة بعبادته بسبب وجود البعير، فكذلك عند رؤية أحد من الناس، لا ينبغي أن يعتني به عناية خاصة لهذا السبب وليس المراد أن يتكبر على الناس، وأن يعتبر نفسه إنساناً والآخرين جِمالاً ولذا يقول في آخر الحديث: ثم يرجع إلى نفسه فيكون أعظم حاقر لها، ويعتبر السجاد عليه السلام نفسه في مناجاته أصغر صغير وأذل ذليل ومثل الذرة أو أقل منها[١٢] ".

علاج النفاق مع الناس:

من الأمراض النفسية التي دنست أكثر الناس اليوم النفاقُ مع بعضهم البعض، فنتيجة غلبة المادية ونسيان " الإنسانية " ونتيجة عدم الإيمان بالله والغفلة عن عالم الخلود، رسخ في القلوب هذا الطبع الشيطاني واعتاد الجميع عليه، وما أشد العذاب الذي يعانيه الناس من بعضهم بسبب هذا الطبع السافل، وما أكثر ما يعانون من صعوباته وآلامه.
الحياة الإنسانية التي يفترض أن تكون عامرة بالأنس والألفة أصبحت مليئة بالوحشة والنفور من الآخرين، والمجتمع البشري الذي يفترض أن يكون حافلاً بتعاون الناس وحبهم لبعضهم أصبح على العكس من ذلك.

١٢ - يقول عليه السلام: وأنا بعد أقل الأقلين وأذل الأذلين ومثل الذرة أو دونها (الصحيفة السجادية دعاء عرفة).

الكل يعيشون التنافر والتضاد والتنافس في غير محله وفي تعاملهم مع بعضهم يتعاملون كالحيوانات، بل كالحيوانات المفترسة همّ كلٍّ منهم افتراس الآخر والإحتيال عليه وابتلاع ونهب ماله، وكالشياطين يُظهر أحدهم تأييد الآخر وموافقته بينما يكون حقيقةً يعمل على الإيقاع به.
ذهب الصدق والصفاء، وحل مكانه الكذب والخيانة ونقض العهد، كما أن حب الذات غلب على الأفراد فصار كل منهم يريد راحته هو وتعب الآخرين، يطلب الثراء لنفسه والفقر للآخرين، يبحث عن عزته هو وفضيحة الآخرين، ولا يأخذ بنظر الإعتبار أبداً أن:

(بنو آدم أعضاء بعضهم البعض لأنهم في الخلقة من جوهر واحد).

(إذا آلم الدهر عضواً لا يقر لسائر الأعضاء قرار).

(أنت يا من لا تغتم لمصاب الآخرين لا ينبغي أن يسمّوك إنساناً)[١٣].

نفاق الدول:

مما يبعث على الأسف أن الدول الكبرى في هذه الأيام التي تطرح نفسها على أنها حاملة راية البشرية، وأنها تقف إلى جانب العدالة، وتجبر الدول الصغرى على اتباعها تقُدم لحفظ مصالحها على إشعال نار الحروب في الدول الصغرى وتبيعها كميات كبيرة من الأسلحة لتملأ بذلك خزائنها من أموال هؤلاء وتتظاهر لها بالصداقة والتأييد، في حين أنها في الباطن تعمل على امتصاص ثرواتها ونهبها.

الدول الكبرى تعاهد وتعقد الإتفاقيات، ولكنها لا تفي بعهدها

[١٣] - مضمون أبيات شعر فارسية مشهورة.

ويضعون اسم هذا النفاق " عدالة ".
إن هذا نموذج من نفاق المجتمعات البشرية اليوم.

الكل يعانون من النفاق:

أما النفاق الفردي أي نفاق المرأة والرجل، الأب، الإبن، والأخ والأخت الرحم مع الرحم، الجار مع الجار، المشتري مع البائع، الأستاذ مع التلميذ، بحيث أن حسن الظن واطمئنان الشخص للآخر الذي هو أساس الحياة البشرية قد انعدم تماماً، وكل شخص يعاني الأمرّين من نفاق الآخرين. كما أن الآخرين يعانون من نفاقه، وإذا وجد قلة من أهل الإيمان ليسوا من أهل النفاق والآخرون منهم في راحة، فإن هؤلاء المساكين هم أنفسهم مبتلون بعذاب نفاق الآخرين.
فيجب إذن على كل فرد أن يعالج أولاً نفاقه وأن يخلي قلبه من جذور هذه الشجرة الخبيثة وينيره بنور الصدق والصفاء والإخلاص وبعد ذلك يسعى ما استطاع لإصلاح الآخرين ويحذرهم من الأضرار الدنيوية والأخروية للنفاق.

الأضرار الدنيوية للنفاق:

الشخص الذي ينافق على شخص آخر ويحاول أن ينتفع من كذبه واحتياله عليه يجب أن يعلم أن الكذب لا يدوم ولا بد أن ينكشف أمره، ولن يجني في النتيجة إلا عدم الإعتماد عليه وعدم الإكتراث بأقواله وبأفعاله.
وإذا أمهله الله ولم يفضحه وادخر مالاً عن طريق النفاق، فلن يستفيد من ماله ذاك، وفي محكمة العدل الإلهي يوم القيامة يعطى للمظلوم من حسناته بمقدار ذلك المال الذي احتال في أخذه وإذا لم تكن له أية حسنة توضع على عاتقه سيئات المظلوم.

وإذا كان هدف المنافق من كذبه واحتياله الإضرار بالآخرين فيجب أن يعلم أنه قد ثبت بالتجربة أنه غالباً ما يكون ضرر الإحتيال على المحتال كما يصرح بذلك القرآن المجيد:
" ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ". فاطر ٤٣.
وفي أمثال العرب قيل: من حفر لأخيه جباً وقع فيه مكباً.
ومضمون ذلك في الشعر الفارسي:
لا تفعل السوء إذا كنت سيئاً ولا تحفر بئراً فأنت الذي تقع فيه.
وقد ذكر حول هذا المضمون قصص في تواريخ العرب والعجم وننقل هنا قصة منها لتنويع مطالب الكتاب:
حسد الوزير أدى به إلى القتل:
دخل رجل عربي على المعتصم الخليفة العباسي، فأعجب به الخليفة وقربه وجعله نديمه، إلى أن أصبح يدخل حرم الخليفة دونما استئذان، وكان وزير المعتصم رجلاً حسوداً، فحسد العربي على منزلته لدى الخليفة وقال في نفسه إذا بقي هذا العربي حياً أسقطني من عين الخليفة وأخذ موقعي، ولذا تظاهر بصداقته حتى دعاه ذات يوم إلى منزله وجعل في الطعام كمية كبيرة من الثوم وأطعمه، وبعد ذلك قال له: لا تذهب إلى الخليفة ورائحة فمك هكذا فإنه يتأذى كثيراً من رائحة الثوم.
ثم ذهب الوزير وحده إلى الخليفة وقال: إن هذا العربي يقول إن فم الخليفة متعفن وأنا متضايق من رائحة فمه، فغضب الخليفة جداً وأرسل في طلب العربي، وهنا خاف العربي أن يؤذي الخليفة برائحة فمه فذهب إليه واضعاً كمه على فمه، فظن الخليفة أن كلام الوزير صحيح وأن هذا غطى فمه

كي لا يتأذى برائحة فم الخليفة، فما كان من الخليفة إلا أن كتب رسالة إلى بعض عماله يقول له فيها اضرب عنق حامل الرسالة، ثم أعطاها لذلك العربي وقال خذها إلى فلان وائتني بالجواب فوراً.

أخذ العربي الرسالة وعندما وصل باب القصر رآه الوزير فسأله أين تذهب فقال أحمل رسالة الخليفة إلى فلان فظن الوزير أن الخليفة أمر للعربي بمال وجائزة فقال له أعطيك ألفي " أشرفي " وأعطني الرسالة لأوصلها على أن يكون كل ما فيها لي، قبل العربي وأعطاه الرسالة وأخذ المبلغ.

أعطى الوزير الرسالة لعامل الملك فقطع رأسه فوراً، وبعد أيام سأل الملك عن الوزير فأخبروه بما جرى له فأحضر العربي الذي نقل له قصته فقال الخليفة: قتل الله الحسد، فقد تسبب بقتل الوزير ثم قلد ذلك العربي منصب الوزارة.

الأضرار المعنوية للنفاق:

ما ذكر من الآيات والروايات حول النفاق كافٍ في إيضاح أضراره المعنوية، وهنا ننبه إلى نقطة هامة:

بمجرد أن يصبح الإنسان يشعر ويميز بين الحسن والقبيح يصبح على مفترق أربعة طرق، فأيها يختار، هل يختار الطريق التي توصله إلى مستوى الحيوانات والكواسر، والغيلان، أم يختار الطريق التي توصله إلى مستوى الملائكة وإليك التوضيح:

إذا جعل إنسانٌ طريقه منذ البداية اتباع شهوة البطن وإرضاء الغريزة الجنسية ومقدماتها، وجعل العقل والشرع والله والآخرة خلف ظهره وجعل كل همه وغاية كل تحركه إشباع هذين الأمرين، فسيكون في النتيجة هو والحيوانات على حد سواء مع فارق أن البهائم حيوانات عالم الجسم، وإنسان

من هذا النوع هو حيوان عالم الروح...
وكما أن البهيمة في عالم الجسم لها مالك يضربها حين تعصيه فالإنسان الذي يكون هكذا أيضاً له في الآخرة صاحب هو مالك النار وسوف يعذبه أيما عذاب.

صفات الرذيلة الناتجة عن اتباع الشهوات:

وأيضاً، فإن الشخص الذي أصبح شأنه السلوك الشهواني، سوف توجد فيه قهراً الصفات المنحطة كالحرص، البخل، الحسد، الخبث، التملق، العبث، وسيكون لكل من هذه عقابها بعد الموت وبالإضافة إلى العذاب الذي يناله في الدنيا بالشرح المتقدم.

خنازير وقردة على شكل إنسان:

قال أبو بصير للإمام الصادق عليه السلام ما فضلنا على من خالفنا فوالله إني لأرى الرجل منهم أرضى بالاً وأنعم عيشاً وأحسن حالاً وأطمع في الجنة.
قال: فسكت عني حتى كان بالأبطح من مكة ورأينا الناس يضجون إلى الله.
قال: " ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج والذي بعث بالنبوة محمداً وعجل بروحه إلى الجنة ما يتقبل الله إلا منك ومن أصحابك خاصة "
قال: ثم مسح يده على وجهي فنظرت فإذا أكثر الناس خنازير وحمير وقردة إلا رجل بعد رجل[١٤] ".

[١٤] - بحار الأنوار ج ٢٧ / ٢٩ – ٣٠.

الحيوانات المفترسة وطباعها:

وإذا سلك طريق الحيوانات المفترسة واطرح العقل والشرع جانباً وأصبح في تعامله مع الآخرين مؤذياً لهم باليد والرجل واللسان بحيث أن الناس يصبحون يعانون من سوء طبعه، إنسان كهذا يكون مفترساً في عالم الروح، وبالطبع إن هذا السلوك ولفترة قليلة يوجد فيه طباعاً قبيحة كالتكبر، العجب، الإستهزاء بالناس واحتقارهم، وإرادة الشر، الشهوة، الظلم، البذاءة، وحس الحقد وحب الإنتقام وأمثال ذلك.

ومن هنا روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن " أهل النار يتعاوون كما يتعاوى الكلاب ".

وكما أنه من أجل إسكات الكلب نصرخ به وننهره بما يناسبه، فكذلك يخاطب أهل النار بنص القرآن المجيد بما يناسبهم.

" قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ". المؤمنون ١٠٨.

شياطين الإنس:

وإذا سلك طريق الشياطين أي عصى أوامر الله وتنكر لعبوديته له، وأنكر الله والآخرة، وعاش مستبداً متكبراً، وجعل شعاره الإحتيال، والخداع، والغش، والسرقة، والخيانة، في قوله وفعله، وأصبح كالشياطين لا يصدر منه شيء غير الشر، سيكون في النتيجة شيطاناً من بني البشر، ويحشر بعد موته مع شياطين الجن ويلحق بهم وقد ذُكر الفريقان معاً وعلى حد سواء في القرآن الكريم[١٥].

[١٥] - " شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ". الأنعام ١١٢. " يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ". الأنعام ١٢٨.

أسمى من الملائكة:
وإذا اختار طريق الإنسانية أي جعل شهوته وغضبه تابعين للعقل والشرع وأصبح في النتيجة متحلياً بكمال الطهر، القناعة، الزهد، الإطمئنان، التقوى، الحياء، الشجاعة، الكرم، الحلم، العفو وأمثال ذلك. وأيضاً ترك طريق الشيطنة الذي هو الإستكبار والإحتيال وسلك طريق الإنسانية الذي هو العبودية، معرفة الله، الصدق، الصفاء، والإخلاص، ليصبح نتيجة ذلك متحلياً بالصفات الكمالية: العلم، التواضع، الصبر، الشكر، الرضا، التسليم، المحبة، حب الخير، وحب نفع الآخرين فإنه يصبح أفضل من الملائكة بل تصبح الملائكة خدماً له.

وهل للحقيقة ضرر:
مما تقدم يعلم أن النفاق طريق الشيطنة، والصدق طريق الإنسانية، وهل هناك ضرر أعظم من أن الإنسان يستطيع الإستمرار في الدنيا في الحياة المشرّفة (الإنسانية) ويكون في الآخرة محلقاً في العالم الأعلى المملوء بهجة وسروراً.
ولكنه رغم ذلك يترك هذا الطريق بسوء اختياره ويختار طريق الحيوانية المملوء نكبة وعذاباً، ويكون بعد الموت هو والشياطين المردة في أغلال النار وسلاسلها يحتضن أحدهم الآخر.
وأي ضرر يجده الإنسان يا ترى في الحياة بصدق وصفاء، حتى يتركها ويختار طريق النفاق ليصبح مصداقاً حقيقياً لـ " خسر الدنيا والآخرة ".

ترك النفاق ودرجاته:
ولا يفوتنا أن نقول أن للنفاق جذوراً وأنواعاً خفية، وغالباً لا يلتفت

إليها، والشخص الذي يطلب الطهارة المطلقة من هذا المرض ويريد أن يصبح من أهل الصدق، ينبغي أن يرجع إلى قول الصديقين وفعلهم، وفي مقدمتهم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليجعل عملهم قدوة له وأسوة لعمله، وكيف أنهم كانوا يجتنبون النفاق ويبتعدون عنه، حتى أنهم لم يكونوا يظهرون شيئاً لا يتحقق فيهم القصد الجاد له، خوفاً من أنه قد يختلف ما يقوله لسانهم عما يضمرون فيختلف الظاهر عن الباطن.

وكنموذج نكتفي هنا بحديث واحد:

التعارف الكاذب:

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وكان من معارفه، وكان إسماعيل ابن الإمام معه، ولما قام الإمام من مجلسه رافقه ذلك الرجل وعندما وصل الإمام إلى باب بيته لم يدع ذلك الرجل للدخول ودخل البيت فقال له ابنه إسماعيل: يا أبت لم لم تتعارف مع الرجل ليدخل البيت. قال الإمام عليه السلام: لم أكن أريد ذلك، قال إسماعيل: وهو لم يكن يريد الدخول، أي كان من الأحسن أن تعرض عليه ذلك رغم أنه لا يريد الدخول.

فقال عليه السلام: " يا بني إني أكره أن يكتبني الله عرضاً[١٦] ". أي أقول شيئاً لست ناوياً له حقيقة.

هذا نموذج طريق الصدق والصديقين، فيجب على من يريد أن يضع

[١٦] - البحار ج ١٦ ص ١٤٢ وفي المنجد: فعله عرضاً: أي من دون روية وقصد. أقول: لم أجد النص في المصدر المذكور هنا، وقد رأيت النص سابقاً في بعض المصادر هكذا: " أكره أن يكتبني الله عراضاً " والظاهر أن المراد به كثير العرض دون قصد. (المترجم).

قدمه في عالم الصدق، وأن يتخلص من جذور النفاق أن يراقب نفسه تماماً خصوصاً لسانه، وأن لا يظهر بلسانه الشيء الذي ينكره بقلبه إلا في مقام التقية بالتفصيل الذي مر.

الشرك

من أمراض القلب الإنساني التي تحرفه عن الصراط المستقيم، مرض الشرك، أي أن يجعل الإنسان لله أنداداً، وذلك ذنب لا يغتفر وخطورة هذا الذنب وأنواعه مذكورة في كتاب الكبائر.
الشيء الذي يجب التذكير به هنا شدة وطأة هذا المرض على النفس الإنسانية الذي هو منشأ كل شقاء، وفي القرآن المجيد آيات عدة توضح أهمية هذا المرض وخطورته.
يقول تعالى في سورة الحج:
" ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ". الحج ٣١.

من أوج التوحيد إلى حضيض الشرك:

أي أن الشخص المشرك يلقي بنفسه من مقام الإنسانية الشامخ وسماء التوحيد العظيمة التي هي حصن الله المنيع، ويخطفه الشيطان ليلقي به في أبعد دركات البعد عن رحمة الله ويقضي عليه، ويجعله أسير الأهواء والهوس

والأماني الكاذبة.
وباختصار: الشخص الذي يسقط من أوج التوحيد إلى حضيض الشرك فإن أهواء النفس تحطمه وتسحقه أو أن وساوس الشيطان تلقيه في وادي الضلال وتودي به إلى الهلاك.

التوحيد، وعبادة الله، مرتبة الإنسانية:

توضيح ذلك أن الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات ترتبط مكانته الشامخة وشأنه وشرفه بالله سبحانه، أن يعتبر نفسه عبداً لله أن يعرفه، ويعتبر كل شيء عنده منه، ويكون خضوعه وتواضعه في محراب عظمته فقط، أو أن يرى جميع المخلوقات من حيث العبودية على حد سواء معه، وأن الله هو المنعم وهو مولى جميع الكائنات، وأن لا يعتبر أي مخلوق قادراً على التأثير وفعل شيء إلا أن يشاء الله.
طبعاً ليس معنى هذا أن لا يبحث عن الأسباب، بل المراد أن يعتبر أن سببية الأسباب وتحقق الآثار والخواص، كله من الله.
مثلاً عند المرض لا بد من مراجعة الطبيب، ولا بد من استعمال الدواء عند اللزوم لكن يَعتبر أن الشفاء من الله، حيث أن الله سبحانه إذا لم يهب ذلك الدواء أثر الشفاء فمحال أن يكون له أثر، كما أنه إذا لم يرد سبحانه فإن الطبيب لن يستطيع أبداً تحديد المرض.
إذن عليه أن يعتبر نفسه وجميع المخلوقات مرتبطين بالله سبحانه ومحتاجين إليه في شؤون الحياة، ويكون على يقين من أن الرازق والآخذ، المعطي والمانع والحافظ والمنجي، له وللآخرين هو الله ويقول بيقين:
أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فله الملك وله الحمد.

هذا هو مقام الإنسانية الشامخ إنه عبادة الواحد الأحد.
وإذن إذا جعل إنسان نفسه أسيراً وذليلاً لمخلوق (جماد – نبات – حيوان – إنسان – ملاك) وخضع له وخشع وأطاع أمره واعتبر نفسه محتاجاً إليه، يتضح كيف أن هكذا إنساناً أسقط نفسه من مقام الإنسانية الشامخ الذي هو أعلى مراتب الوجود وربط نفسه بمرتبة مثله أو دونه وأصبح ذليلاً لها، في حين أن تلك المرتبة هي مثله وجود فقير عاجز وذليل ومحتاج إلى الله، ولا يملك أي استقلال.

العجز عن خلق بعوضة و...:

ويقول تعالى في آية أخرى: " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ". الحج ٧٣.
أي: أنهم في مقام الإيجاد عاجزون عن خلق ذباب، وفي مقام التدبير عاجزون عن استرجاع ما يأخذه الذباب منهم، فهل يصح أن يكون البشر خاضعاً لهؤلاء وذليلاً أمامهم.
يقول الإمام الصادق عليه السلام[١]: " كانت قريش تدهن الأصنام التي كانت في أطراف الكعبة بالمسك والعنبر معاً إلى أن سلط الله ذباباً أزرق له أربعة أجنحة على الأصنام فكانت تأكل ذلك المسك والعنبر ".

أقسام المعبودات الباطلة:

كثيرة هي الأشياء التي تحجب الإنسان عن رب العالمين وتشغله بنفسه

---

[١] - الصافي نقلاً عن الكافي. أقول: لم أجد الحديث في الكافي وهو هنا بالمعنى (المترجم).

وبإغواء الشياطين، فيجعل تلك الأشياء شريكاً في العبادة لله خالق العالم، وهي بشكل عام إما من سنخ الجماد أو النبات أو الحيوان أو البشر أو الجن والملائكة، وشرح كل من هذه الأمور يطول به المقام لذا يكتفى بالإشارة إلى كل منها.
أما المعبودات الباطلة التي هي من سنخ الجماد كالأصنام التي تصنع من الخشب أو الحجر أو جسم آخر مزين بالذهب والفضة، وسائر الجواهر، وتصنع على أشكال مختلفة، كالهياكل التي على شكل نجوم السماء وتنصب في المعابد ويعظمها الجهلة من الناس ويحترمونها رغم أنها من صنع البشر وهي بعدُ عديمة الحس والشعور ويتكل عليها ويطلب حاجته منها.
وقال النبي إبراهيم عليه السلام لعبادة الأصنام من قومه: " أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعلمون ". الصافات ٩٥ ــ ٩٦.
أي كيف يصح بحكم العقل أن يعبد الإنسان ما صنعه هو، ثم أن كل شيء من هذه التماثيل مخلوق لله سبحانه.
والآيات القرآنية في تقريع عباد الأصنام وتأنيبهم، كثيرة.

الخضوع لجماد، غاية الإنحطاط:

ولأن من البديهي أن الإنسان أشرف من النبات والنبات أشرف من الجماد، فإن خضوع الإنسان للجماد الذي لا يمتلك إحساساً ولا شعوراً بحيث يجعل نفسه محتاجاً إليه، مخالف لحكم العقل، حيث أن الإنسان حينئذٍ نزّل نفسه عدة مراتب وجعلها دون مستوى الجماد.

الأعذار الواهية في عبادة الأصنام:

يعتمد البعض مغالطات شيطانية من أجل إظهار هذا المسلك الفاسد بمظهر جميل فيقولون أحياناً: نحن نعلم أن هذه الأصنام ليست الخالق ولا الرازق ولكن حيث أنه لا طريق للبشر إلى خالق العالم فلا مناص من صنع صورته أو صورة ملك مقرب منه من هذه الأجسام لنعبدها حتى تقربنا من الله لأن تعظيم صورة الشخص تعظيم له وقد نقل القرآن الكريم هذا العذر الواهي عن عباد الأصنام:

" ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ". الزمر ٣.

الله قريب: وليس جسماً:

عدم صحة هذا الإدعاء واضح لكل أحد: لأن الله سبحانه أقرب إلى مخلوقه من كل أحد وكل شيء بحكم العقل والفطرة وأخبار الأنبياء.

وثانياً: إن الله سبحانه ليس جسماً حتى تكون له صورة بل هو خالق الجسم، وعليه فإن هذه الصور التي تصنع على أنها صورة الملك أو الله أو روحانية النجوم، كلها من صنع وهم الخيال البشري التي صنعها بإغواء الشياطين وانشغل بها، فغفل عن الله، دون أن يمتلك لعمله هذا أي سند عقلي وأية حجة إلهية كما تم إيضاح ذلك في القرآن الكريم مراراً.

عبادة العناصر الأربعة:

من المعبودات الباطلة أيضاً التي هي من الجماد والتي هي وليدة الأوهام والخيالات البشرية التي يدفع إليها إغواء الشياطين: العناصر الأربعة أي الماء والنار والتراب والهواء.

قسم من البشر يعبد النار ويعتبرونها قديمة وأنها أعظم مخلوقات الله وتجب العبودية لها وقسم آخر يعبدون الهواء ويعتبرونه موجوداً حقيقياً ويمررون حقيقة الله تعالى من خلال رأيهم في الهواء.

وآخرون يعبدون الماء، وغيرهم يعبد التراب ويطلبون من هذه المعبودات حاجاتهم ويعتبرونها قديمة، وقد اتضح سخف هذه العقائد وكونها خرافة مما ذكر حول الأصنام.

عبّاد الشمس والقمر والنجوم:

قسم آخر يعبدون من الجمادات الشمس ويقولون إنها ملك كبير ذات عقل ونفس وهي سيدة الملائكة وملاك الأرض والسماء وعبادتها واجبة ولازمة وفئة أخرى تقول: الشمس حق مطلق وهي الله حقاً، ووجود المجودات منها ونحن نراها أما الموجودات الإسمية فنسمع عنها، والإنسان يجب أن يميل إلى ما يرى لا إلى ما يسمع.

وفئة أخرى يعبدون القمر ويعتبرونه ملكاً عظيماً وملاكاً كبيراً، والزرادشتيون يثنون على نجوم: الزهرة، المريخ، زحل، عطارد، ويرسمون تماثيلها في معابدهم وبيوتهم ويخضعون أمامها.

تكوين النجوم والقمر كالأرض:

في هذا العصر وقد وطأت قدم الإنسان سطح القمر علم جيداً أن الشمس والقمر وسائر الكواكب، كلها أجسام لا تختلف عن الأرض في أصل مادة التكوين، وليس لها على الأرض أية مزية معنوية، وبهذا ينكشف جيداً الجهل البشري الذي يخشع أمامها ويطلب حوائجه منها.

منشأ الخرافات: البعد عن الحقيقة:

نعم إن البعد عن مدرسة الإسلام والقرآن المجيد يجعل الإنسان معرضاً للإبتلاء بالخرافات، بحيث أن فئة في الهند تعبد الآلة التناسلية وقسم يعبدون البقر ويقولون: إنما تصح العبادة بغسل أحدهم وجهه ببول البقر، وأحياناً عندما تريد البقرة أن تبول يملأون أيديهم من بولها ويغسلون به وجوههم ثم يتوجهون للعبادة.

وطائفة المجوس يقولون البقر ترافقه الملائكة. والصابئون يعتبرون الملائكة بنات الله ويقولون إنها منشأ الحوادث، وجعلوا لله زوجة من الجن.

وطائفة أخرى تعبد الجن.

عبّاد الشجرة وطائفة الثنوية:

كان يوجد نخل مقدس في نجران تقدم له النذورات من سلاح وقماش وثياب تعلق عليه.

وفي كتاب أنيس الأعلام يقول: توجد شجرة على شاطيء نهر الكنكاني في الهند تتحرك أوراقها باستمرار بشكل منظم حيث تتحرك في الدقيقة ستين حركة ومشركو الهند يعبدون تلك الشجرة وذلك النهر ويقدسونهما.

والثنوية يقولون للعالم مبدءان أحدهما الله وهو عاقل ومصدر الخيرات وثانيهما الشيطان وهو سفيه ومصدر الشرور.

التوحيد الفطري:

يقول أهل التحقيق إن جميع أصناف المشركين يقولون بوحدانية الله أي باستثناء الدهرية والطبيعيين، فإن سائر الفرق البشرية التي تقول بوجود إله هم

جميعاً يعتبرونه واحداً، وكما أن أصل الإعتقاد بالله فطري فكذلك الإعتقاد بوحدانيته، والكل يقولون إن الله العظيم واحد وكل تلك الأشكال والأشياء التي يعبدها المشركون على أصنافهم يعتبرونها آلهة صغيرة أو مظهر الله وصورته، ويتصورون بوهمهم الباطل أن هذه الأشياء هي مصدر النعم والملاذ ويقولون: حيث أنه لا طريق إلى الله العظيم فيجب أن تعبد هذه الآلهة الصغيرة.

الشرك في الفعل، الإطاعة، العبادة:

وبعبارة أخرى الكل متفقون في توحيد الذات والصفات للحق تعالى والكل يقولون أن الذات الخالدة لرب العالمين وصفاته الكمالية، ليس لها ند ولا معادل لكنهم جعلوا لله شركاء في توحيد الأفعال أي شؤون الربوبية والألوهية كما أنهم في مقام الإطاعة والتسليم المطلقين الذي لا ينبغي إلا لله يعتقدون بوجود شركاء وكذلك في مقام العبادة والحمد الذي ينبغي أن يكون لله فقط نجدهم يعبدون المخلوقات ويحمدونها.

عبادة الأصنام شرك جلي:

ما أشير إليه من أصناف المشركين كله من أنواع الشرك الجلي وكلمة مشرك كوصف تطلق على هؤلاء جميعاً في اصطلاح القرآن المجيد، ولكن شرك أهل الكتاب وأهل الإسلام كما سيأتي لا يصح سبباً لإطلاق وصف مشرك عليهم بل يقال فعلوا فعل المشركين كما يقال لتارك الحج فعل فعل الكفار ولا يقال له كافر.

باختصار هناك فرق بين الشرك الوصفي، والشرك الفعلي، فالمشركون إذن هم الذين يتحقق فيهم الشرك الجلي، وهو الإعتقاد بآلهة صغيرة وعبادتها بالتفصيل المتقدم.

شرك أهل الكتاب شرك خفي:
أما الشرك الخفي فهو شرك أهل الكتاب أي اليهود والنصارى وكذلك المجوس بناءاً على قول جمع من المحققين وشهادة الروايات بأنه قد كان لهم نبي وكتاب سماوي ولكنه رفع من بينهم.
وأهل الكتاب مشركون لعدة أسباب منها قول اليهود بأن عزيراً ابن الله وقول النصارى بالتوحيد في التثليث أي أن خالق العالم في حين أنه واحد فهو ثلاثة: الله وابنه عيسى والروح القدس والثلاثة واحد.
ويقول بالوحدة في التثليث عباد الأصنام وبوذيو الهند بل قال أهل التحقيق أن مذهب النصارى هذا قد أخذ من عبادة الأصنام.
الغلاة والمفوضة أيضاً مشركون:
ومن المشركين طائفة الغلاة من المسلمين الذين يقولون أن التدبير والخلق والرزق بيد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وكذا المفوضة الذين يقولون بتفويض الأمور للأئمة عليهم السلام والظاهر أنهم يجعلون الإمام علي عليه السلام شريكاً لله في الربوبية.
المربي هو الله والإطاعة أيضاً لله:
من جملة شرك أهل الكتاب الشرك في مقام الإطاعة، وتوضيح ذلك: أن خالق العالم هو رب العالمين أي أن يد تربيته وعنايته تواكب البشر وسائر المخلوقات وهو يوصل الجميع إلى الكمال اللائق بهم، ومن يوم يتكون الإنسان في رحم الأم إلى يوم ينتقل من هذا العالم لا يغفل سبحانه لحظة واحدة عن تربيته التكوينية ولن يغفل وكذلك في عوالم ما بعد الموت وإلى الأبد.

بناءاً عليه يجب على هذا الإنسان أن لا يجعل أحداً ربه في مجال تربيته الروحية والمعنوية التي هي مرتبطة بأفعاله الإختيارية ويجب أن يكون مطيعاً فقط لأوامر الله، وأن لا يتبع أوامر غيره أي هوى النفس أو الشيطان أو بشر ما مثله إذن من أطاع أمر أحد غير الله فقد جعل ذلك المطاع شريكاً لله في الربوبية والألوهية كما يقول تعالى عن الذين يعبدون أهواءَهم:
" أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ". الجاثية ٢٣.
ويقول تعالى عن أتباع الشيطان:
" إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ". الأعراف ٣٠.
ويقول أيضاً: " ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ". يس ٦٠.
وعن الذين اتخذوا بشراً مثلهم آلهة لهم وأطاعوا أوامرهم وهم اليهود والنصارى يقول سبحانه:
" اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ". التوبة ٣١.
من هذه الآيات يعلم جيداً أن من يتخذ غير إله العالم مطاعاً وآمراً لازم الإطاعة، فقد جعله له معبوداً.

كانوا يحرمون حلال الله ويحلّون حرامه:

يقول أبو بصير سألت الإمام الصادق عليه السلام عن معنى قوله تعالى: " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً... " فقال عليه السلام: " أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم لما أجابوهم ولكن أحلوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون[٢] ".

---
[٢] - الكافي باب الشرك.

ويقول عليه السلام: " من أطاع رجلاً في معصية فقد عبده[٣] ".

اتباع علماء الباطل أيضاً شرك:

" العالم " الذي يقول قال رسول الله كذا وأقول كذا، ثم يقول بخلاف ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تجوز إطاعته، وإطاعته شرك، وقد نقل عن البعض أنه كان يقول هكذا، إذن إطاعة العلماء في بيان الأحكام الإلهية وتعيين الحلال والحرام حرام وشرك إذاً كان هؤلاء العلماء يحللون ويحرمون وفق أهوائهم لا وفق ما تقتضيه النصوص.

مرجع الشيعة يجب أن يكون خالياً من هوى النفس:

وقد تسأل إن الشيعة الإثني عشرية كذلك أي يعتبرون إطاعة علمائهم لازمة ويوجبون تقليدهم في تحديد الأحكام الإلهية؟

والجواب: أن الإمامية لا يقلدون إلا الفقيه الخالي من هوى النفس، وكل حكم يبينه يستند فيه إلى القرآن المجيد وأخبار الأئمة المعصومين عليهم السلام، أضف إلى ذلك أن إطاعته تستند إلى إطاعة الله والنبي والإمام بالبيان التالي:

حيث أن الله أوجب إطاعة أولي الأمر وهم الأئمة الإثنا عشر وهم أمروا بإطاعة الفقيه العادل في مثل زماننا، إذن فإطاعته إطاعة للإمام والنبي وإطاعتهما إطاعة لله وقد بينت ذلك بالتفصيل في مبحث الشرك من كتاب الكبائر، وقد نبهت هناك على أن إطاعة المرأة لزوجها والولد لأبيه وأمه لأنه بأمر الله فليس شركاً في الطاعة بل هو عين إطاعة الله.

---

[٣] - الكافي.

الشرك في العبادة:

الشرك في مقام العبادة والعبودية لله، والذي يمكن أن يبتلى به أهل الكتاب والمسلمون، كالنصارى الذين يعبدون المسيح عليه السلام باعتقاد أنه ابن الله بل عين الله وكالغلاة الذين يعبدون علياً عليه السلام باعتقاد أنه شريك لله في شؤون الألوهية وكبعض الصوفية الذين كانوا يعبدون مرشدهم باعتقاد أنه متحد مع الله أو أن الله حل فيه، وكالرياء في العبادة بالشرح المتقدم.

يجب معرفة معنى العبودية:

لمعرفة أنواع الشرك الخفي في مقام العبودية يجب معرفة معنى العبد والعبودية ولذا نقول: كل عاقل يفهم لدى التفكر في وجوده ووجود الآخرين أن أصل الحياة وآثارها ولوازمها كل ذلك من الله سبحانه ولا يوجد شخص يملك من نفسه شيئاً والكل مرتبطون في جميع الشؤون بالله سبحانه، وكل ما يراه فيه وفي غيره فهو من الله، إذن هو والجميع ملك ومملوك وعبد حقيقي للخالق " إنْ كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ". مريم ٩٣.

ولأنه عرف في نفسه العدم والفقر الذاتي والإحتياج من كل جهة، وعرف أن الله هو الوجود المطلق والقدرة والعزة، بحيث أنه إذا تركه لحظة واحدة لن يكون له أي شيء، فهو يعتبر نفسه في كل آن في مقابل الله، المولى والمالك ذليلاً ومحتاجاً لمولاه، وبحكم العقل يجب أن يظهر في كل آن ذلته واحتياجه لمولاه وإظهار التذلل هذا يسمى " عبادة " والهدف من ذلك أن يؤدي العبد حق المولى وشكر نعمته – وإن كان لا يستطيع – ولكن في حدود استطاعته، حتى لا يكله الله إلى نفسه ويسلب نعمته عنه – لا سمح الله -.

العبد، يجب أن يكون في عبادة دائماً:

بما أن الله منعم ودائم الربوبية فالعبد أيضاً يجب أن يكون دائم

العبودية، أي أن حق الله أن يتعبد عباده له دائماً ويعبدوه، وعلى العباد في مقابل نعمه الدائمة أن يعبدوه دائماً لكن الله الكريم
أولاً: لم يترك عباده حيارى في كيفية عبادته وبيّن لهم كيفية العبادات بواسطة الرسول الأكرم، ونهى عن اختراع طريقة للعبادة من الخيال والوهم واعتبر ذلك بدعة وحراماً.
وثانياً: سهل الله الأمر على عباده وبسطه لهم فمن العبادات البدنية اكتفى بسبعة عشر ركعة في اليوم والليلة، وفي السنة شهر صيام وفي العمر حجة واحدة، ومن العبادات المالية أوجب الله الزكاة والخمس بمنتهى اليسر، والعجيب أنه في مقابل هذه العبادات الجزئية، ما أعظم الجزاء الذي جعله الله عليها، واعتبر أداء هذه الواجبات الطريق الوحيد للقرب منه تعالى، والسعي في النوافل والمستحبات طريق زيادة القرب وارتفاع الدرجات، إلا أنه شرط صحة كل عبادة وقبولها وتأثيرها بالإخلاص.
إذن ففي كل عبادة واجبة كانت أم مستحبة إذا كان جزء النية بالإضافة إلى عبودية الله جلب انتباه الناس إليه ومدحهم له وثناؤهم عليه، تكون العبادة باطلة بل حراماً، ومن جملة الذنوب الكبيرة (الكبائر).

شرط أن لا يكون عبداً لآخر:

المسألة المهمة التي ينبغي في هذا المجال الإلفات إليها أن الخالق الكريم يغفر غفلة عباده عن عبادته في غير الأوقات التي عيّنها لهم لعبادته، بشرط أن لا يعبدوا في هذه الأوقات غير الله ولا يكونوا عبيداً ومملوكين لغير الله.
بناءاً عليه الشخص الذي هو من الصباح حتى الظهر عبد هوى النفس ومملوك الشيطان بحيث أنه إذا نظر في صورته الباطنية يجد نفسه أثناء ارتكاب

المحرم راكعاً ساجداً أمام خنزير الشهوة وكلب الغضب، وعندما يأتي الظهر يحضر في المسجد لعبادة الله، هذا الشخص إذا أدى الصلاة صحيحة وخالصة فتكليف الصلاة ساقط عنه ولا يعاقب على الصلاة لكن حيث أنه في مقام العبودية ليس صادقاً وهو مبتلى بالشرك، أي حيناً يكون عبد النفس والهوى والشيطان، وحيناً آخر عبد الله، فإن الله سبحانه لا يتقبل العبد المشرك، ولا يجعله في عداد عباده المخلصين.

باختصار صلاة شخص كهذا ليست مقبولة، ولا تبلغه درجات القرب ويقول تعالى بصراحة في القرآن الكريم:

" إنما يتقبل الله من المتقين ". المائدة ٢٧.

عبادة الهوى أثناء عبادة الله:

المسلم الذي يقول في اليوم والليلة عشر مرات " إياك نعبد " أي يا رب نعبدك وحدك في حين أنه غالباً بل دائماً في مقام عبادة النفس والهوى والشيطان ويجعل نفسه من حيث يعلم أو لا يعلم أسير الشهوات والهوى والنزعات النفسية والآمال الشيطانية وذليلاً لها، ويكون خاشعاً أمامها ومطيعاً ومستسلماً لها بحيث أنه لا يمتنع عن اتباعها[٤]، بل هو في الدقائق المعدودة التي

---

[٤] - لاستيضاح ذلك تأمل في أحوال عبّاد المال، وخضوعهم وتذللهم وأسارتهم في سبيل الحصول على المال وجمعه والإزدياد منه، ومدى الآلام التي يتحملونها من أجل ذلك، والإهانات التي يستسيغونها والخيانات التي يرتكبونها، والحقوق التي يضيعونها والتبعات التي تلحقهم إلى حد أنهم قد يضحون بروح عزيز أو بما هو أعز من أجل الوصول إلى مطامعهم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " تعس عبد الدرهم والدينار ".

وما أجمل جواب عالم لسلطان قال له لمَ لم تحترمني وتعظمني؟ قال العالم: أنا السلطان لأني سيد ما أنت عبده ومملوكه، أي أنت عبد المال والمقام (الموقع الإجتماعي) وأنا طليق متحرر منهما.

وحديث تذلل عباد المال أمام المال لا ينتهي، وشواهده التاريخية كثيرة يذكر بعضها كنموذج:

١ – شريح القاضي طلب منه أن يفتي بقتل الإمام الحسين عليه السلام فامتنع، ورغم أن ابن زياد أصر عليه وضربه على رأسه بحيث جرى الدم منه فقد بقي على إصراره، وأرسل إليه ابن زياد ليلاً مبلغاً كبيراً من المال، وعندما جاء في صباح اليوم التالي إلى قصر الإمارة قال:

لقد فكرت في هذا الأمر كثيراً فعلمت أن حرب الحسين واجب لأنه أراد الفساد والخروج على إمام زمانه (يزيد).

وجاء في كتاب جواهر الكلام أنه كان يجتمع في بيت المال في الكوفة مبلغ تسعة ملايين درهم سنوياً، ولم يؤخذ من ذلك المال شيء على عهد معاوية إلى أن توجه الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء فأخذ ابن زياد جميع هذه الأموال التي جمعت طيلة عدة سنين وقسمها بين الجنود والقادة.

٢ – سمرة بن جندب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلب منه معاوية أن يصعد المنبر ويحدث الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – كذباً – أن آية " ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله " أنزلت في ابن ملجم قاتل علي عليه السلام (مع أنها قطعاً نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام) وأن يقول: أن آية " ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام " نزلت في علي، ووعده أن يعطيه مائة ألف درهم ، فلم يوافق. وضاعف المبلغ له فوافق وقد جاء في " تحفة الأحباب " أنه أخذ أربعمائة ألف درهم وصعد المنبر وكذب هذه الكذبة الكبرى.

ينشغل فيها بالصلاة يكون قلبه غافلاً عن ذكر الله مشغولاً بذكر أهوائه، بحيث يكون مخاطبه في قوله إياك نعبد تلك الأهواء والآمال والشهوات، عبد كهذا، هو حقاً مشرك بل متمحض في عبودية الشيطان، وهو بعد يستحق الخذلان بل النيران.

عبد الواحد، وعبد عدة، هل هما متساويان:

يضرب الله في القرآن المجيد للشخص الذي يكون أسير النفس والهوى

وتابعاً للآمال الشيطانية مثل غلاماً مشتركاً، له عدة موالٍ لهم سلائق مختلفة وميول متضادة والغلام هذا مضطر لاتباع الجميع وملزم بإطاعتهم، والشخص الموحد الذي يعبد الله وحده ويطيعه وحده مثل غلام خاص بمولى واحد[٥].

وعبد من هذا النوع يكون في غاية الراحة:

" ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ". الزمر ٢٩.

" اتخِذ صديقاً واحداً، فإن لك قلباً واحداً[٦] ".

الثبات على التوحيد:

الشخص الذي يتمرد على عبادة الله وأوامره ويكون عبداً للشيطان وهوى النفس هو حقاً في هذه الحال خارج عن التوحيد الذي بني أساس الإسلام عليه وأعرض عما قال وقيل أي " أشهد أن لا إله إلا الله " من هنا يقول تعالى في القرآن المجيد: " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ". فصلت ٣٠.

أي قالوا ربنا الله فقط ولم يجعلوا له أي شريك في أية مرحلة ولم يتراجعوا

---

[٥] - ما أجمل ما قاله السيد بحر العلوم عليه الرحمة:

واحذر لدى التخصيص بالعبادة   شركاً وكذباً واتباع العادة

إياك من قول به تُفَنَّد   فأنت عبد لهواك تعبدُ

أي عندما تقول في الصلاة إياك نعبد احذر أن تكون مشركاً وكاذباً وعبداً لعاداتك احذر أن تقول إياك نعبد في حين أنك عبد نفسك. ولحسن الحظ فإن باب التوبة مفتوح ولو أن الإنسان صار عبداً لغير الله مائة مرة فإن باستطاعته أن يتوب وقد ورد بيان التوبة في آخر كتاب (الذنوب الكبيرة) اللهم اجعلنا من التوابين.

[٦] - مضمون بيت شعر فارسي.

عن ذلك حتى جاءهم الموت.
ونقل في تفسير المنهج عن سفيان بن عبد الله الثقفي أنه قال سألت رسول الله أن يدلني على خصلة أتمسك بها فقال صلى الله عليه وآله وسلم: " قل أشهد أن لا إله إلا الله واستقم عليها.. " فقلت: يا رسول الله ما أهم ما يجب اجتنابه فأشار إلى لسانه وقال: " أن تحفظ لسانك[٧] ".

نموذج في الثبات على التوحيد:

وقع عبد الله بن حذافة أسيراً في أيدي الروم وعرض عليه الدخول في النصرانية فامتنع، فغلوا الزيت في إناء كبير وألقوا فيه أسيراً مسلماً آخر فتناثر لحمه وبدت عظامه وعبد الله ينظر ويرى ثم عرض على عبد الله التنصر مجدداً فأبى فأمروا بإلقائه في الزيت المغلي فبكى فقالوا قد جزع قال كبيرهم ردوه فقال عبد الله: لا تظن أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي ولكني بكيت حيث ليس لي إلا نفس واحدة يفعل بي هذا في الله وكنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة فيَّ ثم تسلَّط علي فتفعل بي هذا فتعجب منه وأحب أن يطلق سراحه فقال: قبّل رأسي وأطلقك قال: لا أفعل، قال تنصّر وأزوجك ابنتي وأقاسمك ملكي قال: لا أفعل، قال قبل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين قال: أما هذه فنعم فقبل رأسه وأطلقه وأطلق معه ثمانين من المسلمين فلما قدموا المدينة كان المسلمون يمازحونه فيقولون قبلت رأس علج فيقول لهم: أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين[٨] ".

[٧] - الرواية بالمضمون.
[٨] - سفينة البحار ج ٢ – ١٢٨ بتصرف.

الشرك في الإستعانة بالأسباب:

من أنواع الشرك المتداولة بين أهل التوحيد الشرك في الإستعانة بالأسباب، أي اعتبار الأسباب مستقلة في التأثير.

توضيح ذلك أن الله سبحانه بنى عالم الوجود على أساس الأسباب أي جعل سبحانه وجود أي شيء مستنداً إلى شيء آخر، مثلاً وجود الولد مستند لاجتماع الرجل والمرأة وشروط أخرى، وجود الثروة مستند إلى العمل، والشفاء مستند إلى المداواة، وكذلك سائر الأشياء.

والإنسان من أجل الحصول على منفعة أو اجتناب ضرر يلجأ إلى الأسباب وعندما يحقق ما يريد يعتبر ذلك من السبب، في حين أن سبب المنفعة الحقيقي والمنجي الحقيقي هو الله بواسطة الأسباب، ولدى الدقة يعلم أن جميع الأسباب مخلوقة ومن صنع الله خالق العالم، وتأثير هذه الأسباب أيضاً منه سبحانه وظهور أثرها وترتبه عليها متوقف على إرادة الله وإذنه.

صاحب المعرفة والبصيرة يعلم يقيناً أن مالك النفع والضر هو الله. " قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ". الأعراف ١٨٨.

ولأجل تثبيت التوحيد في الأفعال وتقويته، والنجاة من هذه المرتبة من الشرك يجب أن يقول المؤمن في صلاته في اليوم والليلة عشر مرات " وإياك نستعين " يا رب نطلب منك فقط في الوصول إلى كل خير والنجاة من كل شر دنيوي وأخروي، وكل سبب نتمسك به فبأمرك وبالأمل بك، وهذا معنى التوكل على الله الذي هو من لوازم الإيمان.

أمل التأثير بالمسبب لا السبب:

لأن التوكل ليس ترك الأسباب بل هو أمر قلبي أي يجب أن يكون اطمئنان القلب واعتماده في جلب المنفعة والنجاة من الضرر فقط على الله وبه سبحانه.

والتمسك بالأسباب إنما هو لأن السنة الإلهية جرت على أن تكون تربية العباد وإصلاح أمورهم من مجاري الأسباب.

إذن العاقل حين يتمسك بأي سبب ويمد يده إليه يجب أن يكون نظره إلى صانع ذلك السبب وخالقه وقيومه ويكون انتظاره للأثر من خالق ذلك السبب، ويجب أن يعلم أنه سبحانه إذا لم يرد فلن يترتب أثر ذلك السبب عليه، كما أنه إذا أراد سبحانه فإن ذلك الأثر سيترتب إما بواسطة ذلك السبب أو بواسطة سبب آخر ليس بالحسبان أو بدون سبب أبداً.

وقد أوضح هذا المفهوم في الجزء الأول من كتاب " الذنوب الكبيرة " بالتفصيل.

القسم بالمخلوق أيضاً شرك:

يقول زرارة: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير الآية الشريفة " وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون " فقال عليه السلام: " من ذلك (الشرك) قول الرجل لا وحياتك[٩] " أي أن من الشرك القسم بالمخلوق لتأكيد مطلب أو قضية.

ومروي عن الصادق عليه السلام أيضاً أن: " المراد بالشرك في هذه الآية هو الشرك في الطاعة لا العبادة " أي أن من أطاع آخر في معصية الله فقد أشرك

---

٩ - تفسير العياشي.

ومروي عنه أيضاً " أن من الشرك شرك طاعة قول الرجل لا والله وفلان، ولولا الله وفلان[10] "
وبيان أن القسم بمخلوق أي مخلوق كان هو شرك كما يلي:
حيث أنه في القسم يجب القسم بصاحب العظمة والجلال، وحيث أنه لا شك في أن العظيم الحقيقي هو الله وفقط، والمخلوق أياً كان لا يملك لنفسه من نفسه شيئاً وليس غير الله يستحق التعظيم والإكبار بالذات، فعندما يقسم شخص بمخلوق أو بالله ومخلوق فقد جعل لله شريكاً في التعظيم.

القسم بغير الله ليس حراماً:

وينبغي التنبيه هنا على أن القسم بمخلوق مهما كان حيث أنه ليس شركاً في الطاعة أو العبادة بل هو شرك في تعظيم الله فليس حراماً وهو لدى التحقيق جائز والشيخ الطوسي عليه الرحمة حمل الروايات الواردة في هذا الباب على الكراهة فقال:
تكره اليمين بغير الله كاليمين بالمخلوقات: النبي والكعبة ونحوها وكذلك بالآباء كقوله: وحق أبي وحق آبائي ونحو ذلك كل ذلك مكروه[11].
وروي أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن القسم بالآباء والأصنام وأن يقسم الإنسان إلا بالله وأن لا يقسم به أيضاً إلا عندما يكون صادقاً وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم سمع أن عمراً حلف بأبيه فقال له: " لقد نهاكم الله عن الحلف بآبائكم ".
وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " من حلف بغير الله فقد جعل لله شريكاً.. " وفي بعض الروايات فقد أشرك بالله، وفيما إذا اعتقد صاحب القسم أن عظمة المخلوق الذي أقسم به كعظمة الله، ففي هذا الحال يكون القسم شركاً وكفراً

---
[10] - نفس المصدر.
[11] - المبسوط كتاب الإيمان ج ٦ / ١٩١.

حقيقياً وحراماً ولكن إذا كان لا يعتقد بعظمته كعظمة الله بل كان يعتقد أن شأن المخلوق الذي أقسم وعظمته هي عطاء من الله سبحانه كالشخص الذي يقسم بشأن وحرمة أمير المؤمنين عليه السلام في حين أنه يعتقد أن هذا الشأن والحرمة من الله سبحانه فإن هذا القسم ليس كفراً وشركاً حراماً بل هو مكروه لأن الروايات نهت عنه.

التدريب على التوحيد في القول والعمل:

لعل حكمة النهي عن القسم بمخلوق تمرين أهل التوحيد على أن يراقبوا جيداً كلامهم وأعمالهم وأن يجتنبوا كل كلمة أو فعل تفوح منه رائحة الشرك ليبقى التوحيد صافياً لا تشوبه شائبة.

كما أنه لتأكيد التوحيد وتثبيته قد نهينا عن طلب شيء من مخلوق إلا عند الضرورة.

يقول المحقق الأردبيلي:

إن ذم السؤال من غير الله تعالى معلوم عقلاً ونقلاً (...) وقد روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لقوم قالوا له: اضمن لنا الجنة قال: بشرط أن لا تسألوا أحداً شيئاً فصاروا بحيث لو وقع من يد أحدهم السوط وهو راكب ينزل ويأخذه ولا يسأل أحداً أن يعطيه إياه وإذا عطشوا قاموا وشربوا الماء ولا يطلبونه ممن يكون قريباً منه[١٢].

والخلاصة أن كون طلب شيء من غير الله مكروهاً إلا عند الضرورة إنما هو لتقوية أساس التوحيد وعبادة الواحد الأحد وذلك هو الطريق الوحيد للسعادة وللوصول إلى مرتبة الإنسانية.

---

[١٢] - زبدة البيان – ٦ بتصرف يسير.

لا تلبسوا الإيمان بالظلم:

يقول تعالى في سورة الأنعام: " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ". الأنعام ٨٢.

والظلم أنواع أعظمها الشرك كما قال تعالى: " إن الشرك لظلم عظيم ". لقمان ١٣.

وهل ظلم أكبر من أن يحقق المولى خيراً لعبده أو يبعد عنه شراً، ثم يُعرض هذا العبد عن مولاه وبلا استحياء وينسب هذا الخير بحضوره لغيره رغم أنه بشر مثله، هل هناك ظلم أكبر من غمط هذا الحق.

إذن فكل شخص اعتبر السبب مستقلاً في التأثير وأعرض عن الله سبحانه ونعمه التي لا تحد، وانشغل بمدح الأسباب وحمدها وأظهر العجز وتملق عبيداً مثله فمن الطبيعي أن يخرج من دائرة العدل ويصبح ظالماً ومستحقاً لأنواع العقوبات ولو كان يرى حالاته الأولى يوم كان نطفة لا يملك شيئاً ويتأمل في عطايا الله له لما كان يشك أبداً في كونه ظالماً[١٣].

---

[١٣] - جاء في سيرة السلطان محمود الفزنوي أن " أياز " كان في بداية أمره عبداً من عبيد السلطان وبسبب فطنته وتضحيته أصبح أقرب المقربين للسلطان، كانت لأياز هذا غرفة مقفلة باستمرار لا يأذن لأحد بدخولها، وكان هو يومياً في الصباح وقبل أي عمل يدخل إلى هذه الغرفة ويمكث فيها قليلاً ثم يخرج ويقفل الباب.

وكان اثنان من الوزراء يعملان باستمرار لإسقاط أياز من عين السلطان وحمله على إساءة الظن به، ولفت نظرهما ذلك فقالا للسلطان إن أياز سرق جواهر ثمينة ومبالغ طائلة من الخزينة ووضعها في غرفة خاصة به وهو يذهب كل يوم قبل كل شيء إلى هذه الغرفة وقد وضع عليها أقفالاً ولا يسمح لأحد بالدخول إليها.

وتداخل السلطان الشك وقال لهما: غداً عندما يكون أياز عندي إذهبا واكسرا القفل وادخلا الغرفة وائتياني بكل ما تجدونه من جواهر وأموال.

وفي اليوم التالي ذهب عدة أشخاص بالمساحي والمعاول وبكل حماس إلى غرفة أياز، وعندما كسروا القفل ودخلوا لم يجدوا سوى ثوب بالٍ طويل (جبة) من الجلد، وحذاء عتيق، قالوا لا يعقل أن تكون هذه الأقفال لأجل هذا الثوب وهذا الحذاء الباليين، لا بد وأنه دفن الجواهر في أرض الغرفة، وحفروا وفتشوا ونقبوا، إلا أنهم لم يجدوا شيئاً، فرجعوا خجلين إلى السلطان، واتضح كذبهم وحسدهم قال السلطان لا بد أن يرضى عنكم أياز وألقوا بأنفسهم على قدمي أياز فقال: الأمر للسلطان وعفا السلطان عنهم.

ثم سأل أيازاً عن سبب إقفال هذه الغرفة وزيارته لها كل يوم حتى أساء هؤلاء الظن به فقال:

أيها السلطان لم أكن أكثر من غلام فقير، ولم يكن عندي إلا هذا الحذاء وهذا الثوب وبلطف السلطان أصبحت أملك كل شيء، وحيث أن النفس قد تتمرد وتطغى فقد احتفظت بذلك الحذاء وذلك الثوب الذي كان لباسي قبل أن أكون غلامك، وكنت ألقي عليهما نظرة كل يوم حتى لا أبتلى بالغرور وأعلم أن كل ما لدي فهو من السلطان.

الهدف من نقل هذه القصة أن الإنسان يجب أن لا ينسى حالته الأولى التي هي نطفة قذرة حتى لا يتصور أن ما لديه هو الذي حصل عليه، بل هو كله عطاء الله عز وجل " فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق ". الطارق ٥ – ٦.

وينبغي أن لا تنسى هذه الجملة من تعقيبات صلاة العصر، وأن تقرأ دائماً:

" اللهم ما بنا من نعمة فمنك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك " وكذلك هذه الفقرات من دعاء أبي حمزة الثمالي:

" سيدي أنا الصغير الذي ربيته وأنا الضعيف الذي قويته وأنا الفقير الذي أغنيته وأنا الضال الذي هديته والقليل الذي كثرته ".

النعم على المشركين فتنة لهم:

يقول تعالى في سورة العنكبوت: " فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ". العنكبوت ٦٥ ــ ٦٦.

ويقول تعالى: " وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ". الزمر ٨.

ويقول تعالى أيضاً في هذه السورة: " فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ". الزمر ٤٩.

والمراد بقوله تعالى " بل هي فتنة " أن الله أعطاه هذه النعمة ليمتحنه هل يشكر أم يكفر.

كل ما عندك من نعم فمن الله:

الشقي هو ذلك الذي يقول: ذكائي، قدرتي، أو علم فلان واستطاعته هو السبب في حصولي على هذه النعم، في حين أنه لو فكر لعلم أن كل ذلك العلم وتلك الإستطاعة عارية (إعارة) وهي من جملة العطايا الإلهية وهي من الأسباب التي أراد الله لها أن تكون أسباباً كما تقدم.

الخجل عند انكشاف الحقيقة:

ويلاه على الإنسان حينما ينكشف ليل ظلام جهله وأفكاره الباطلة بالموت وشمس حقيقة القيامة التي تبدأ بالموت، ويرى حينئذٍ أن ما اعتبره رباً ومؤثراً ليس إلا خيالاً باطلاً.

في الحديث[14] أن الإنسان عند العرض على الله تسيطر عليه حالة من الخجل بحيث أنه يتمنى أن يعجل به إلى حفرة من جهنم ليتخلص من هذا الخجل[15].
يقول تعالى في سورة الأنعام: " ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون " الأنعام ٩٤.
وفي تفسير الميزان يقول حول هذه الآية:
تخبر الآية الشريفة عن حقيقة حياة الإنسان في النشأة الأخرى يوم يرد على الله بالموت ويدرك حقيقة الأمر، عندها يفهم أنه كان مدبراً بالتدبير الإلهي وسيكون كذلك، ولم يكن يتولى إدارته أحد غير الحق تعالى وكلما كان يتصوره مؤثراً في تدبير أمر سواء الأموال التي كان يتصورها وسيلة الحياة الوادعة، أم الأولاد التي كان يظنها عوناً له وصاحباً أو الزوجة والأقارب الذين

[14] - كفاية الموحدين ج ٣ / ٢٩٢.
[15] - كان لأحد الخلفاء العباسيين غلام وكان الخليفة يحبه كثيراً بحيث كانت مكانته في البلاط مميزة وذات يوم مرض فجأة وبدأ مرضه يشتد يوماً بعد يوم وقد عجز الأطباء عن معالجته وحدس طبيب حاذق منهم أن لمرضه سبباً نفسياً فاختلى به وظل يحدثه حتى عرف سبب مرضه فقد أقر الغلام بأن عدة أشخاص من أعداء الخليفة أغروه حتى دس الس في شراب للملك ليقدمه له، وفعل ذلك إلا أن السلطان عرف ذلك ولم يشربه قال: ومنذ ذلك الحين زاد إحسانه إلي وإنعامه علي وقد مرضت لشدة خجلي منه وليس لمرضي علاج وسينتهي بالموت.
الويل للإنسان عندما يفهم ويدرك أن ربه كان معه باستمرار وكان يرى جميع خياناته وذنوبه، ويحلم عنه ويزيد في نعامه عليه.
عن مصابيح القلوب للسبزواري / فصل ٣٥.

كان يعتبرهم ملجأه وحماه، كل ذلك لم يكن له أثر في تدبير حياته ولم يكن ظنه إلا خرافة ليس إلا، وكذلك طلب الشفاعة من أرباب غير الله بحيث يؤدي ذلك إلى الشرك، كله وهم في وهم.

الخضوع للأسباب يؤدي إلى الإنحراف:

الإنسان جزء من أجزاء العالم وشأنه في تدبير الله له شأن جميع أجزاء العالم التي تشملها العناية الإلهية وتسلك بها نحو الغاية التي عينها وقدرها له الله سبحانه ولا دخل لأي موجود من موجودات العالم ولا سلطة له عليها، والأسباب التي تبدو بحسب الظاهر مؤثرة، كل آثارها من الله تعالى، ولا شيء منها أبداً مستقل في التأثير.

ولكن ويا للأسف فإن الإنسان عندما يرى نفسه أمام زينة الدنيا الظاهرية والمادية أمام هذه العلل والأسباب الصورية ينخلع فؤاده لها ويبيع نفسه لهذه العلل والأسباب وكأنه لا شيء غيرها في الوجود، فيخضع لها، وهذا الخضوع ينسيه الله سبحانه مسبب الأسباب وخالقها، وبالتدريج يصبح يظن أن هذه الأسباب مستقلة في التأثير بحيث لا يعود له هم إلا تأمين لذائذه المادية عن طريق الخضوع لهذه الأسباب، ويفني عمره بالإنشغال بهذه الأوهام ويغفل كلياً عن الحق والحقيقة.

حقاً، " وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ". العنكبوت ٦٤.

ينسى الله فينسى نفسه:

هذه حقيقة كشف القرآن الغطاء عنها ونبه الناس إليها بعبارات مختلفة ومن جملة ذلك قوله تعالى: " نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ". الحشر ١٩.

بالموت وانفصال الروح عن البدن ينقطع ارتباط الإنسان بجميع الأسباب والعلل المادية لأن ارتباطها كان ببدنه، وحيث لا بدن، فلا ارتباط، عندها يرى عياناً أن ذلك الإستقلال الذي كان يزعمه للعلل والأسباب ليس إلا خيالاً باطلاً، ويدرك بملء بصيرته أن العناية به في البدء والختام لم تكن إلا من الله، ولم يكن له رب سواه، ولا مؤثر في أفعاله غيره.

ولهذا يقول تعالى: " ولقد جئتمونا فرادى "، إنها إشارة إلى حقيقة الأمر، وجملة " وتركتم ما خولناكم " تبين بطلان سببية الأسباب والعلل التي حالت بين الإنسان وربه طيلة حياته، وقوله تعالى: " لقد تقطع بينكم " تبين علة انقطاع الإنسان عن الأسباب وسقوط تلك الأسباب عن الإستقلال في السببية وحاصل هذا البيان انكشاف بطلان التصورات التي كان الإنسان يشغل نفسه بها في الدنيا.

.. نعم، تتضح له حقيقة الأمر، ويعلم أن هذه الأسباب أوهام ليس إلا، كان يشغل بها نفسه ويظن أنها مستقلة في التأثير.

معظم القرآن في توحيد الأفعال:

عند التأمل في القرآن المجيد نجد أن معظمه يتناول التوحيد في الأفعال ولوم البشر على أنهم جعلوا لله شركاء في شؤون الربوبية والألوهية، والسبب في كون معظم القرآن منصباً على هذه الناحية أن التوحيد الذاتي تقبله جميع ملل العالم باستثناء الدهريين كما تقدم، التوحيد الإلهي فطري ولم يسمع حتى الآن أن عاقلاً ادعى أن خالق العالم متعدد، وكل أسباب الشرك تنحصر في زاوية ربوبية الله وعبودية البشر... " أي بدل أن يعبد الله سبحانه لأنه هو رب العالمين تعبد أصنام أو أهواء إلخ – من الشركاء التي يبتدعها الوهم الإنساني ".

التوحيد أساس الدين:

ومن هنا وجب على كل مسلم أن يقوي التوحيد في نفسه فهو الأصل الإعتقادي الأول في الإسلام وهو أساس الدين الذي هو سعادة الدنيا والآخرة.

على المسلم أن يعلم علم اليقين كما أن أصل الخلقة وإفاضة الحياة من الله سبحانه فكذلك بقاؤها واستمرارها وانقطاعها منه جلت عظمته.

فهو المحيي والمميت " يحيي ويميت " وكما أن الخلقة منه وبيده، فالرزق كذلك " الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ". الرعد ٢٦.

وكذلك العز والذل بيده سبحانه " وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ". آل عمران ٢٦، وكذلك الغنى والفقر " وأنه هو أغنى وأقنى ". النجم ٤٨.

والولد وعدمه " يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً ". الشورى ٤٩ – ٥٠.

والشبع، والجوع، والإرتواء والعطش، وسلامة البدن، والمرض كله منه سبحانه " والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين... ". الشعراء ٧٩ – ٨٠، وكل ألم وابتلاء وشدّة ورخاء، منه جلت عظمته " إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ". يونس ١٠٧.

وباختصار كل ما يصيب الإنسان فهو من الله " بيده الخير " والسعادة والشقاء والهداية والضلالة من الله " يضل من يشاء ويهدي من يشاء ". فاطر ٨.

أي أن كل من يهتدي فبفضل الله وكل من يضل فبخذلان الله له وإيكاله إلى نفسه كما أن الحالات العارضة على النفس الإنسانية كالغم والفرح هي أيضاً من الله: " وأنه أضحى وأبكى ". النجم ٤٣.

والحاصل يجب أن نعلم أنه في ملك الله لا يحدث شيء – مهما كان صغيراً – ولو مثل ظهور ورقة على شجرة، أو نمو نبتة في صحراء أو ذبولها وسقوطها – أي شيء في ملك الله لا يحدث إلا بعلمه وإذنه وقضائه وإرادته جلت عظمته وتقدست أسماؤه: " وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ". الأنعام ٥٩.

لا تكتف بالحد الأدنى من التوحيد:

الإقرار بالتوحيد باللسان والإعتقاد به إجمالاً، وإن كان كافياً، بحيث أن الشخص إذا لم يفقد هذا المقدار من التوحيد بسبب ذنوبه ومات على هذه الحالة يكون من الناجين، لكن العاقل لا ينبغي أن يكتفي بهذا الحد الأدنى بل يجب أولاً أن يسعى ويجدّ حتى يحصل على أمر ثابت، أي يصبح توحيد الله وجدانياً بالنسبة له وملموساً وينور قلبه بنور التوحيد بحيث لا يمكن أن يعتريه ظلام أبداً.

وثانياً: يسعى كي يزيد هذا النور، ويجب لتحقيق هذا الهدف الإلتزام بأمرين:

١ – ترك اتباع الهوى وعبادته.

٢ – مراقبة نفسه في مجال التوحيد.

وإليك التفصيل.

عبادة الهوى تنافي التوحيد:

ترك عبادة الهوى والإستمرار في خط عبودية الله يعني إطاعة أوامره ونواهيه سبحانه بحيث لا يفوته أداء واجب واحد، ولا يصدر منه أي محرم ويلتزم بمقدار استطاعته بفعل المستحبات وترك المكروهات.

ويجب أن يعلم هنا أن الإنسان الذي يعبد هواه يستحيل أن يصبح من أهل التوحيد لأنه دائماً يرى نفسه مستقلاً ليس بحاجة إلى أحد، وكل همه أن يبرز نفسه ويحقق نزواته، وشخص هذا شأنه متى يمكنه أن يرى الله أو يطلب رضاه، بعبارة أخرى ما دام الإنسان لا يطلب الشيء فكيف يمكنه أن يحصل عليه، والشخص الذي يعبد هواه، هل هو طالب توحيد الله حتى يعطى له؟ كل ما يريده هذا الشخص هو نزواته وأمانيه النفسية التي يحصل على بعضها.

مراقبة النفس في التوحيد، في القول والعمل:

يجب على الإنسان أن يراقب نفسه باستمرار حتى لا يحيد في قوله أو فعله عن جادة التوحيد ولو لحظة واحدة، أي يجتنب كل ما تفوح منه رائحة استقلاله " عن الله " أو استقلال سبب آخر ورفض الله سبحانه، مثلاً إذا قام بعمل خير فلا يغتر، بل يجب أن يعتبر ذلك من الله ولا يمن على أحد بل يعتبر نفسه طريقاً للخير من الله لهذا الإنسان الذي أحسن إليه، كذلك إذا أحسن أحد إليه فلا يتملق، بل يشكر الله ويشكر السبب حيث أن الخير وصله من الله بواسطته.

وإذا أساء إلى أحد أو أساء إليه أحد، فليعلم أن السبب هو خذلان الله وليخف من حالة استحقاقه للخذلان، وليلجأ إلى الله طالباً منه تجنيبه الشر، وإصلاح أمره، ولا يدَّع الإستقلال أبداً، أي لا يقول أنا فعلت كذا وكذا أو

سأفعل كيت وكيت، ولو أن هذه القضية لم تكن بيدي لحصل كذا وكذا، أنا أغنيت فلاناً ونجّيت فلاناً وأمثال ذلك من الإدعاءات التي هي من باب ادعاء مقام الربوبية والعياذ بالله يقول تعالى: " ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ". الكهف ٢٣ ــ ٢٤.

الأمل بالله والخوف من الذنب:

ويجب على الإنسان أن لا يكون اتكاله أبداً ورجاؤه القلبي إلا على الله وبالله لا على علمه وقدرته هو أو شخص آخر بل يكون رجاؤه فقط قدرة ربه اللامتناهية كما أنه لا يصح أن يخاف أو يحزن من أي حادث مؤلم، بل يكون خوفه دائماً من أن يصبح مورداً لخذلان الله له ومستحقاً لإعراض الله عنه بحيث أنه سبحانه لا يدفع عنه الشر الذي أصابه أو سيصيبه. ولتوضيح هذه النقطة يشار هنا إلى موردين صغيرين من موارد الشرك في الخوف والرجاء ذكرا في الروايات حتى تتضح جيداً الموارد الأكبر.

أخفى من دبيب النملة:

عن الصادق عليه السلام: أن الشرك أخفى من دبيب النمل وقال عليه السلام ومنه تحويل الخاتم ليذكر الحاجة وشبه هذا[١٦].

فالشرك أخفى من حركة النملة وقد يجعل الإنسان شريكاً لله دون أن يكون ملتفتاً لذلك أبداً ومن هذا الشرك تحويل الخاتم، فأحياناً يخرج الإنسان من بيته إلى السوق مثلاً وتكون له حاجة ما، يخاف أن ينساها فيحول خاتمه بحيث يصبح الحص داخل كفه، أو يربط خيطاً بإصبعه، أو يكتب شيئاً

[١٦] - سفينة البحار ج ١ / ٣٧٨.

على يده على أمل أن تقع عينه في الأثناء على العلامة التي وضعها فيتذكر حاجته.
طبعاً مجرد وضع العلامة وحده ليس شركاً ولا مانع منه... الشيء الذي هو شرك أن يكون كل أملك ورجائك منحصراً بهذه العلامة لأن الموحد ينبغي أن يكون كل أمله ورجائه في جميع أعماله منحصراً بالله سبحانه، وإذا لم تقض مشيئة الله أن تتذكر فلن تنفع هذه العلامة ولا غيرها.

إذا كان رجاؤك بالله فليس ذلك شركاً:

والحاصل أنك إذا حولت خاتمك أو وضعت علامة بأمل أنك عندما يقع نظرك عليها يذكرك الله حاجتك فليس ذلك شركاً، كالتمسك بالأسباب الأخرى عندما يكون هدف الإنسان أن الله يوصله إلى ما يريد عن طريق السبب الفلاني أما إذا نسيت الله عند تحويل الخاتم أو وضع علامة واعتبرت هذه العلامة سبباً مستقلاً في تذكيرك بحاجتك، بحيث أصبحت هي كل أملك فقد جعلت لله شريكاً.

التطير أيضاً شرك:

المورد الثاني من موارد الشرك الذي يذكر هنا هو الطيرة والإعتقاد بها، وقد اعتبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ذلك شركاً بالله " الطيرة شرك[١٧] "، أي أن الشخص الذي يعتبر الطيرة منشأ أثر في نظام العالم فقد جعل لله شريكاً في مقام التوحيد الأفعالي وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: من رجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك[١٨] وعن الصادق عليه السلام: أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال:

[١٧] - حياة الحيوان ج ٢ – ص ٦٦.
[١٨] - نفس المصدر.

كفارة الطيرة التوكل[١٩].

معنى التطير وسبب كونه شركاً:

هناك أمور لم يجعلها الله سبحانه منشأ لأي شيء أو سبباً له، ولكن الإنسان بناء على وهمه وخياله وظنه الباطل يعتبره أسباباً مستقلة لحصول الخير أو الشر ويرتب أثراً على هذا التصور والوهم، هذه الحالة تسمى " التطير " وهي في الحقيقة جعل شريك لله سبحانه.

مثلاً قد يريد الشخص فعل شيء طبقاً للموازين العقلية وفي الأثناء يعطس هو أو يعطس شخص آخر هنا إذا اعتبر هذه العطسة سبب شؤم هذا الفعل الذي كان يريد الإقدام عليه وتركه لهذا السبب فقد تطير وأشرك.

العطسة رحمة وشاهد صدق لا صبر:

وهذا التفكير الخاطيء أصبح شائعاً بحيث أن الناس أصبحوا يسمون العطسة بالصبر، وأحياناً عندما يعطس شخص يقولون جاء الصبر ولا يصح الإقدام على العمل الذي كان الحديث عنه أو مباشرته أثناء العطسة، مع أن العطسة عقلاً وشرعاً ليست منشأ أي شيء، بل هي شرعاً رحمة وعافية لصاحبها، وهي أيضاً شاهد صدق على القول الذي زامنها أو الفعل الذي عقدت النية عليه حينها.

ساعة النحس أيضاً من الخرافات:

ومثل ذلك من يعتبر الأوضاع الفلكية وحركات الكواكب مؤثرة في الحوادث ويعتبر الضرر والنفع منها، وإذا أراد فعل شيء ثم تركه اعتماداً على

[١٩] - روضة الكافي حديث ٢٣٦.

قول غيره أو على ظنه هو بأن ساعته ساعة نحس فقد أشرك.
كما أنه إذا اعتبر أن النفع والضرر بيد الخالق القادر واستعان به متقرباً إليه بصدقةٍ أو دعاء ثم أقدم على فعله فذلك توحيد ولن يصيبه إلا الخير.

مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى النهروان:

عندما عزم أمير المؤمنين عليه السلام على المسير إلى النهروان لحرب الخوارج قال له عفيف بن قيس إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك " من طريق علم النجوم " فقال عليه السلام:
أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء؟ وتخوف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضر، فمن صدقك فقد كذب القرآن واستغنى عن الإستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه، وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه لأنك - بزعمك - أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضّر[٢٠].

ثم سار عليه السلام وانتصر:

ولم يعتن الإمام عليه السلام بكلام عفيف وقال لأصحابه: " سيروا على اسم الله ".
ثم خرج في تلك الساعة لحرب الخوارج وانتصر عليهم، بحيث أنهم هلكوا جميعاً إلا تسعة منهم ولوا هاربين، ولم يقتل من أصحابه إلا دون التسعة كما أخبر هو عليه السلام من قبل.

[٢٠] - نهج البلاغة خطبة – ٧٩.

صوت الغراب، والبوم، وعدد ١٣:

من الخرافات الأخرى الشائعة بين الناس والتي يعتبر التطير بها واعتبارها مؤثرة " في الأمور " شركاً أيضاً صوت الغراب، والبوم، وأن تحط بوم على السطح أو عدد ١٣، أو طيران طائر من الجهة اليمنى أو اليسرى حال السفر أو مصادفة شخص معاق بعد الخروج من البيت أو أثناء مجيء ضيف أو ذهابه أو زيارة المريض ليلتي الأحد والأربعاء، وهذه الأمور يعتبرها بعض العوام سبباً في وقوع بعض الحوادث.

ويلحق بذلك أيضاً ما إذا اشترى شخص بيتاً أو تزوج أو رزق ولداً ثم أصابته مصيبة فإنه يتشاءم ويعتبر تلك المصيبة من البيت أو الزوجة أو الولد ويقول " وجهه شؤم " كما أنه إذا أصابه خير يعتبره من هذه الأسباب المادية ويقول " وجهه خير ".

المعتقد بهذه الأوهام ونظائرها يجب أن يعلم أن هذا كله شرك ومناف لتوحيد الله سبحانه لأن الله مالك النفع والضرر والخير والشر.

التجربة ليست دليل صحة التطير:

لو قال معتقد بهذه الخرافات: إنا نعتقد بهذه الأشياء لأن التجربة أثبتتها، مثلاً: جربنا أن لا نتريث بعد العطسة، وكانت نتيجة كل فعل من هذا القبيل سيئة، وكذلك الأشياء الأخرى.

والجواب أن هذا الكلام على إطلاقه غير صحيح، أي ليس كل شخص وفي كل وقت لا يتريث بعد العطسة تكون عاقبة أمره سوءاً، وأنا عملت على خلاف ذلك مئات المرات وأنجزت العمل الذي كنت أنويه بالتوكل على الله ولم يحدث لي أي سوء.

ثانياً: إذا حصل حادث مزعج للشخص الذي لا يتريث بعد العطسة فليس السبب عدم صبره وتريثه بل هو مرتبط بأمور أخرى كان سيحصل بسببها هذا الحادث عطس هذا الشخص أم لا.

طائركم معكم:

يحكي الله سبحانه في سورة " يس " قصة ثلاثة من رسل الله أرسلهم عز اسمه إلى أهل مدينة أنطاكية، ودعوا الناس إلى عبادة الله والإيمان به والإستعداد لمعادهم، وبدل أن يقبل أهل المدينة دعوتهم قالوا لهم : " إنا تطيرنا بكم " فقال لهم رسل الله: " طائركم معكم " أي أن شؤمكم ونحسكم في ضميركم وعقائدكم الباطلة وطباعكم النشاز السيئة التي تجعلكم تعيشون في عالم من التشاؤم والتطير.

وعلى كل حال فإن جميع أنواع التطير خرافة ليس إلا وليست منشأ أي أثر إلا إيذاء صاحبها نفسياً وتعقيده وإتعابه.

عدم الإهتمام بالطيرة:

عن الصادق عليه السلام: الطيرة على ما تجعلها فإن هونتها تهونت وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً[٢١].

وشكى أصحاب رسول الله له صلى الله عليه وآله وسلم الطيرة فقال لهم في حديث الرفع المشهور " وإذا تطيرت فامضِ " أي لا ترتب الأثر ولا تعتنِ بتطيرك.

السفر يوم الأربعاء والدعاء المأثور:

وروي أن من سافر يوم الأربعاء أو أراد الخروج لإنجاز عمل ولم يعتن بما

[٢١] - روضة الكافي حديث ٢٣٥.

قيل من أن يوم الأربعاء يوم نحس يحفظه الله من كل شر وهذا نص الحديث: من خرج يوم الأربعاء لا يدور خلافاً على أهل الطيرة وقي من كل آفة وعوفي من كل عاهة وقضى الله حاجته[٢٢].

وروي عن الرضا عليه السلام استحباب أن يقال عند الخروج يوم الأربعاء:
اعتصمت بك يا رب من شر ما أجد في نفسي فاعصمني من ذلك[٢٣].

الفأل الحسن جيد، ومطلوب:

وينبغي التنبيه هنا على أن الفأل الحسن مطلوب فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إن الله يحب الفأل الحسن[٢٤].

والفأل الحسن أو التفاؤل بالخير هو أن يوجد في الشخص أمل بالفرج، أو يفرح لرؤية شخص أو سماع اسم وما شابه كأن يكون اسم صاحبه في السفر نصر الله أو فتح الله فيتفاءل بالخير لذلك ويقول سيكون النصر حليفنا إن شاء الله.

وفي غزوة الحديبية عندما دخل سهيل بن عمر على رسول الله قال صلى الله عليه وآله وسلم: " سهل أمرنا.

والسبب في أن الفأل السيء مرفوض وشرك، بينما الفأل الحسن مقبول وإيمان هو أن الشخص الذي يتفاءل شراً هو في تلك الحال منقطع عن رب العالمين ويعتبر أن هذا الأمر الموهوم وحده مؤثر وسبب الشر، ولكن الشخص الذي يتفاءل خيراً يزداد حسن ظنه وأمله بالله دون أن يعتبر أن هذا الأمر مؤثر.

---

[٢٢] - سفينة البحار ج ٢ / ١٠٢.
[٢٣] - نفس المصدر / ١٠٣.
[٢٤] - نفس المصدر / ٢٤٠.

وهذا عين الإيمان والتوحيد.

خلاصة البحث:

الموحد يجب أن يكون تمام أمله بالله سواء في الحصول على أي نفع، أو النجاة من أي ضرر، وأن يعتبر أن الأسباب مسخرة لإرادة الله، وعند التمسك بها يكون منتظراً أمر الله ومشيئته، وإذا تمسك بالأسباب واعتبرها مستقلة في التأثير فيكون قد جعل لله شريكاً، وأسوأ من ذلك أن يتمسك الإنسان بالأمور الموهومة التي يتفاءل بها ويتطير منها، مع أن الله سبحنه لم يجعل فيها أي أثر نهائياً، مثال ذلك الأمور الموهومة التي يتفاءل بها.

التوسل بالأئمة عليهم السلام ليس شركاً:

مما ذكر في معنى الشرك بالإستعانة بالأسباب يعلم بطلان ما يقوله بعض الجهلة كالوهابية ويتجرأون بنسبته إلى الشيعة من أنهم مشركون لأنهم يعبدون أئمتهم ويطلبون العون منهم ويأملون شفاعتهم.

وللمزيد من التوضيح في رد هذه التهمة نقول إن طائفة الإمامية والشيعة الإثني عشرية لم يشركوا بالله طرفة عين وهم موحدون حقيقيون، ويعتبرون الرسول والأئمة عليهم السلام عباد الله ومن مخلوقاته ومقربين إليه سبحانه ويعتبرون أن عبادة غير الله شرك وحرام، وما سمعتم أو رأيتم من إطاعة الشيعة للرسول والأئمة عليهم السلام فهو بسبب أمر الله بإطاعتهم.

وهو أيضاً يستند إلى أدلة قطعية أثبتت أن الأئمة الإثني عشر هم أوصياء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد أمر هو صلى الله عليه وآله وسلم بإطاعتهم، وإطاعتُه، إطاعةٌ لله سبحانه.

الزيارة غير العبادة:

وأما إجلال الشيعة وخضوعهم للأنوار الطاهرة الإثني عشر وتعظيم قبورهم

المباركة والتوجه لزيارة مشاهدهم المشرفة، فليس شيء من ذلك عبادة لهم بل أدب وتواضع أمام المقربين للساحة الإلهية.
كما أن التواضع لله واجب عقلاً فكذلك الأشخاص الذين اختارهم سبحانه، وما من شك في أن التواضع لهم لهذا السبب هو عين التواضع لله، كما أن التكبر عليهم تكبر على الله (حب محبوب الله حب لله) أضف إلى ذلك أنا أُمرنا في القرآن المجيد بالأدب والتواضع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي سورة الحجرات يقول تعالى " لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول ". الحجرات ٢.
ويقول تعالى: " لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ". النور ٦٣، أي خاطبوا الرسول بأدب واحترام كأن تقولوا يا رسول الله.
ويقول تعالى: " وتعزّروه وتَوَقّروه ". الفتح ٩.
أي ناصروا رسول الله وعظموه.
وقد ثبت بالأدلة القطعية أن الأئمة الإثني عشر امتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم جميعاً نور واحد، وكما أن تعظيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واجب فكذلك تعظيمهم.

أوليس تعظيم الحكام والأثرياء شركاً:

عجيب أمر هؤلاء الذين يقولون للشيعة أن أدبكم مع الرسول والأئمة عليهم السلام وتواضعكم لهم شرك، في حين أنهم يفعلون أكثر من ذلك مع حكامهم بل وأثريائهم ومع ذلك يعتبرون أنفسهم موحدين والشيعة مشركين، مع أن تواضع الشيعة بأمر من النبي، وتواضعهم قد نهى عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما روي

عنه صلى الله عليه وآله وسلم: من أتى غنياً فتواضع لغنائه ذهب الله بثلثي دينه[٢٥].
حيث يعلم من هذا الحديث أن من تواضع لغني بسبب غناه بقلبه بالإضافة إلى لسانه وبدنه ذهب الله بثلثي دينه، أما إذا تواضع له لإسلامه ودينه أو جهة أخرى غير غناه فذلك جيد لأن التواضع في مقابل الدين تواضع مقابل الله سبحانه.

الشفاعة ليست تأليهاً:

أما الإستعانة بقادة الدين والتوسل بهم للوصول إلى الأهداف الدنيوية والأخروية وطلب الشفاعة منهم في النجاة من المخاطر المادية والمعنوية، فليس خافياً على من عاش في أوساط الشيعة أنه لا يوجد بينهم شخص واحد ولو عامي يعتبر الأئمة " الله "، أو أنهم مستقلون في التأثير وعموم الشيعة يعتبرون الأئمة أصحاب قدرة إلهية، أي أن الله سبحانه أعطاهم قدرة يستطيعون بها مساعدة كل من تواجهه ضائقة، والتوسل بهم كتوسل المريض بالطبيب أو الدواء الذي جعل الله فيه خاصية الشفاء، فيشرب المريض الدواء ويطلب الشفاء من الله، وإذا شفي يعتبر أن سلامته من الله لا من الدواء، كذلك الشيعة فهم عرفوا حق آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويتوسلون بهم ويطلبون حاجتهم من الله ببركتهم وواسطتهم ويعلمون على اليقين أن قدرتهم من الله وشفاعتهم متوقفة على رضاه وإذنه سبحانه، والإستغاثة بهم والتضرع والإلتجاء إليهم عند الحاجة كالشخص الذي ارتكب خطأ مع السلطان، ثم التجأ إلى شخص له منزلة عند السلطان واستجار به ليطلب له الأمان من السلطان، وكذلك سائر أنواع التواضع لهم عليهم السلام[٢٦].

....

[٢٥] - سفينة البحار مادة وضع.

[٢٦] - أورد المحدث الجليل العراقي في كتاب دار السلام حكايات متعددة حول التوسل بأهل البيت عليهم السلام، ولتنويع مضامين الكتاب ننقل هنا إحداها:
قال في آخر صفحة ٥٣٩ ما يلي:
المعجزة الخامسة: ما حدث به الثقة العادل الشيخ عبد الحسين الخوانساري رحمه الله الذي كان من مجاوري كربلاء المقدسة وكان معروفاً بـ " لفاف التربة " إذ أنه كان يأخذ التربة الحسينية من الأماكن الشريفة طبقاً للآداب المأثورة ويعطيها للزوار وقد التقيت به في بعض المجالس في أوائل مجاورتي، وحيث أني رأيت فيه آثار الصلاح والتقوى وعرفت أنه مجاور منذ زمن طويل وملازم للحرم الشريف طلبت منه أن يحدثني بما شاهد هو من الكرامات والمعجزات فكان من جملة ما ذكره قوله:
كنت أقيم في بعض قرى بروجرد فهزني الشوق إلى مجاورة ضريح الحسين عليه السلام، كان الجو بارداً ومقدمات السفر غير متوفرة فأخذت دابتين ووضعت على إحداهما أطفالي وعلى الثانية زوجتي لننتقل إلى بروجرد ونلتحق بالزوار المسافرين إلى كربلاء.
وكان في القرية التي أسكن فيها شيخ اسمه محمد جعفر وكان يحبني، وعندما عرف أني قررت السفر اعترض علي بشدة قال: إن البرد شديد وليس معك ما تحتاجه والسفر هكذا ليس عقلائياً، واشتد إصراره في منعي من السفر، واشتد إصراري على السفر حتى يئس من إقناعي، فتحداني وقال سترى أنك ستقتل أطفالك، وسافرت ووصلنا كربلاء بحمد الله وكلنا بخير.
بعد مدة جاء بعض الزوار من تلك القرية وكان بينهم بعض أقارب الشيخ المذكور فدعوتهم إلى بيتنا لتناول الطعام، وكنت أريد أن يخبروا الشيخ بأننا جميعاً بخير.
حضروا إلى البيت وكان ابني حسن أكبر أولادي يلعب، وفجأة صعد إلى سطح الطابق الثالث وتدلى لينظر إلى داخل الغرفة التي كنا فيها فسقط إلى الأرض ومات.
وتبدل الفرح بالحزن، ومضيت حافياً إلى حرم الإمام الحسين عليه السلام وقلت عند الدخول: السلام عليك يا وراث روح الله وألصقت نفسي بباب الضريح وأخرجت (الشال) وربطت طرفه بالقفل والطرف الآخر بعنقي وبدأت أصرخ وأبكي وأنا أقول: ما صار، وبحق أمك الزهراء لا يصير، أن تثبت صحة كلام الشيخ محمد جعفر، لن يكون ذلك.
واجتمع الزوار حولي متعجبين وسألوني السبب فلم أجبهم وظن بعضهم أني مجنون، ولم يعرفوا السبب إلى أن جاء بعض جيراني وهو من طلاب العلوم الدينية ليأخذني إلى البيت لتشييع الجنازة، فعرفوا منه ما جرى.
جاء جاري وأخذ يعظني: أنت رجل عالم والميت عادة لا يحيى، تعال نذهب ونأخذ هذا الطفل الميت فإن أمه تكاد تموت، وعبثاً حاول وعظي، فأخذ يلومني والحاضرون يؤيدونه ولشدة حسرتي اعترضت عليهم وقلت دعوني أنا لا أريد منكم شيئاً فلماذا تؤذونني.
وعندما سمعوا ذلك ضحكوا وقالوا لندعه ونذهب لنقل الجنازة، قالوا ذلك وخرجوا من الحرم، وترك ذلك في نفسي أثراً كبيراً فاشتد بكائي وجزعي فعلا صياحي وارتفع صراخي وقلت لسيدي: وحق أمك الزهراء لن أترك ضريحك ولن أخرج من حرمك إلا أن يقبض الله روحي أو يرد علي ولدي حسن وأخذت أصرخ وألطم رأسي إلى أن اقترب الظهر، فجأة سمعت ضجة وزغاريد من ساحة الحرم (الصحن) وبدأ الناس يركضون إلى خارج الحرم ولم أكن أعرف ماذا جرى إلى أن دخل حشد كبير من الناس الحرم، عندما تأملت جيداً رأيت ولدي حسن وقد أخذ بيده ذلك الجار المخلص ورأيت أمه خلفه مع جمع من نساء الحي والجميع يصلون على النبي وآله عندما رأيته ألقيت نفسي على الأرض وسجدت سجدة الشكر ثم احتضنت ولدي وقبلت عينيه ثم سألت عما جرى فقالوا: بعد أن يئسنا منك رأينا أن لا بد من أخذه لنغسله ونكفنه وندفنه وأخذناه إلى المغتسل خارج كربلاء وعندما نزعنا ثيابه وألقينا على رأسه طاسة ماء رأينا أطراف أنفه تتحرك كأن أحداً يدلك أنفه ثم حرك رأسه وعطس عطسة وجلس كأنه كان نائماً واستيقظ، وبادرنا بالمجيء إلى الحرم لإنقاذك مما أنت فيه وإظهار إعجاز الإمام العظيم عليه السلام.
قال المؤلف – صاحب دار السلام – كنت أرى حسن المذكور باستمرار والآن يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأول سنة ١٣٠٠هـ، ما زال مستصحب الحياة، وإن كان والده الشيخ عبد الحسين قد توفي منذ فترة. " بتصرف يسير ".

....

الشفاعة في القرآن المجيد:
فإن قيل إن الله أرأف وأقرب إليهم من كل أحد ولا حاجة لشفاعة أحد عنده، فالجواب على هذه الشبهة موجود في الآيات والروايات بكثرة ويكتفى هنا بالتذكير بآيتين من القرآن المجيد:
يقول تعالى: " ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ". النساء ٦٤.
حيث يعلم من هذه الآية جيداً أن لرسول الله الشفاعة عند الله سبحانه.
حادثة استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته:
ينقل في تفسير منهج الصادقين عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه بعدما التحق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى بثلاثة أيام جاء أعرابي وجلس إلى جانب قبره صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ يحثو التراب على رأسه ويقول يا رسول الله سمعنا ما قلت وآمنا به ولكنا لم نؤد حق ما بلغتنا عن الله وقد قال الله في الكتاب الذي أنزل عليكم " ولو أنهم إذ ظلموا " إلخ – يا رسول الله ظلمت نفسي وجئتك يا رسول الله كي تستغفر لي.
فارتفع صوت من داخل القبر: قد غفر الله لك، وفي رواية أخرى أن أهل المسجد سمعوا ذلك الصوت وأجهشوا بالبكاء.
يعقوب يستغفر لأبنائه:
عندما انكشفت خيانة إخوة يوسف ألقوا بأنفسهم على قدمي يعقوب وقالوا له " يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ".

ويقول في تفسير النهج: جعل يعقوب عليه السلام وقت الإستغفار لهم سحر ليلة الجمعة ونقل أنه ظل أكثر من عشرين سنة يأمر أبناءه ليصطفوا خلفه كل سحر ليلة الجمعة وهو يدعو لهم ويستغفر الله لهم وهم يقولون آمين، حتى تاب الله عليهم بعد العشرين سنة.
ومن هذه الآية يعلم جيداً أن الشفاعة كانت في جميع الأديان الإلهية.

إظهار شرف العظماء وخضوع الناس لهم:

وأما حكم تشريع الشفاعة فمنها: إظهار شرف عظماء الدين ومنزلتهم وبيان حرمتهم عند الله لينقاد الناس ويخضعوا لهم ويستفيدوا من روحانيتهم ونورانيتهم فوائد معنوية جمة وبالإضافة إلى ذلك يحققون قضاء حوائجهم بواسطتهم ويعملون بما يبينونه لهم من أوامر الله ونواهيه.
وما من شك في أن من يأمل أن يشفع له رسول الله وأوصياؤه، يكون حتماً خاضعاً لهم ومطيعاً لأوامرهم، وإذا خالف أمرهم فليس ذلك لعدم الإهتمام به بل نتيجة غلبة النفس والهوى، وشخص هذا شأنه يوفق للتوبة وينجو بشفاعتهم.

علاج مرض الشك:

عندما يبدأ الإنسان يدرك، يبدأ يعتمد على حسه وتجربته وينسب كل خير ونفع يراه مؤثراً في نمو حياته المادية أو حياة الآخرين إلى سبب مادي خاص على وجه الإستقلال وكذا السلامة من أي شر وضرر، يعتبرها مستندة إلى سبب مادي خاص، مثلاً الشبع ينسبه إلى المأكولات والرواء ينسبه إلى المشروبات وحفظ البدن من الحرارة والبرودة ينسبه إلى الملبوسات والثراء للسعي والعمل والفقر للخنوع، والخلاص من الألم والمرض للطبيب والدواء، وهكذا بحيث ينتهي به المطاف إلى أن ينسب أصل الحياة والموت

للماديات وبشكل عام يصبح ينسب كل أمر إلى سبب خاص، مثلاً نمو النبتة ينسبه إلى الماء والشمس، وحدوث الليل والنهار ينسبه إلى دوران الشمس، أو دوران الأرض وهكذا.
ولكن عندما يبلغ الإنسان مرحلة الكمال والنضج الفكريين وتضيء نفسه بنور العقل يفهم عندها عدمه وحدوثه الذاتي والوصفي وكذلك حدوث أجزاء عالم الوجود ذاتاً ووصفاً ويدرك عندها خطأ تصوراته الباطلة السابقة.
مثلاً: يلقي نظرة على نفسه وحالاته الأولى يوم كان في رحم الأم وقبل ذلك يوم كان ذرات مبعثرة متناثرة في بدن الأب ثم جمعتها اليد الإلهية المقتدرة وفصلتها عن الأب على شكل نطفة، وقبل ذلك أيضاً يوم كان ذرات متناثرة في الماء والهواء والنار، ثم التقطتها يد العناية الإلهية وأخرجتها على شكل مأكولات كالحبوب والخضراوات وكذلك مشروبات كالماء وغيره ثم جعلتها جزء من بدن الأب والأم ثم ينظر في جميع أجزاء العالم حوله ويرى أنها قد شملتها نفس العناية الإلهية، عندها يقول بكل يقين:
يا من كل الوجود منه وُجد بك أصبح التراب الضعيف قادراً[٢٧].
أي يرى أنه هو وجميع بني البشر ما هم إلا تلك القبضة من التراب التي تولتها العناية الإلهية بالرعاية حتى أصبحت موجوداً عالماً، قادراً، سامعاً، ناطقاً و... كما يقول تعالى في سورة الدهر: " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ". الآية ١ ــ ٢.
كما أنه بعد التدبر والتفكير في جميع أجزاء عالم الوجود والتدقيق في كل

[٢٧] - مضمون بيت من الشعر الفارسي.

تلك الأمور العدمية وتحليلها يعرف أن الله وهبها ثوب الوجود ورباها حتى أصبحت على هذه الصورة.

كل آثار الموجودات من الله:

وبعد أن يدرك الإنسان العاقل أنه ليس هو خالق نفسه، كما أنه ليس مخلوقاً لمخلوق مثله، بل أنه وجميع المخلوقات من الله سبحانه، يدرك أن الآثار الوجودية (الكمالات الثانوية) لكل واحد من المخلوقات ليست منها بل أن كل أثر يصدر عن موجود، فهو من الله سبحانه لأن ظهور الأثر وصدوره متوقف على أصل الوجود المؤثر، ولأن أصل الوجود من الله، فالأثر أيضاً من الله سبحانه.

" الذات التي لا تملك شيئاً من الوجود كيف يمكنها أن تهب الوجود
الجهام السحاب الخالي من الماء لا يستحق وصف معطي الماء[٢٨] ".

تأثير الأسباب حدوثاً وبقاءاً من الله:

طبيعي أنا لا ننكر العلل والمعلولات والأسباب والمسببات، وكيف يمكن إنكار حرارة النار وإحراقها أو رطوبة الماء وبرودته أو أثر الطعام في الشبع والدواء في الشفاء.
كل ما في الأمر أنا ننكر استقلال هذه الأشياء في التأثير أي نقول كما أن أصل هذه الأشياء من الله فكذلك تأثيرها هو منه سبحانه، كما أن استمرار أصل الأشياء وبقاءها من الله فكذلك ترتب الآثار عليها مرتبط به تعالى ومتوقف على إرادته، مثلاً إذا لم يُرد للنار أن تحرق فمحال أن يترتب عليها أثر الإحراق، كما أن نار نمرود المشتعلة لم يترتب عليها أي أثر إحراق، وعلى العكس من ذلك خرج منها نبي الله إبراهيم سالماً يشعر بالبرودة.

---

٢٨ - مضمون بيت من الشعر الفارسي.

" فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ". يس ٨٣.
كل ذرات الأرض والسماء هي جنود الحق تعالى لدى الإمتحان.
رأيت ماذا فعل الماء يوم الطوفان وماذا فعل الريح بقوم عاد، وذلك الذي طغى على فرعون هو البحر الغاضب والذي خسف بقارون هو هذه الأرض.
وما صنعته الأبابيل بالفيل وتلك البعوضة التي أكلت رأس نمرود.
وذلك الحجر الذي رماه داود بيده فصار ثلاثمائة قطعة وهزم جيشاً
وقد أمطر أعداء لوط حجارة حتى غرقوا في الماء الأسود[٢٩].

لا اختيار للبشر في الأمور التكوينية:

يجب أن يكون واضحاً أن الإنسان في أموره الإرادية والإختيارية ليس مستقلاً " ولا تمام العلة " بل ذلك متوقف على إرادة الله وإذنه توضيح ذلك: إن من الواضح عدم اختيار الإنسان في أموره التكوينية كالجهاز التنفسي والجهاز الهضمي وما شابه، وكذلك في الأمور التكوينية العارضة عليه كالمرض والسلامة، والعزة والذلة والبلاء والعافية، والعجز والقدرة، والشباب والهرم وغير ذلك، أما الأمور المرتبطة بإرادة الإنسان واختياره، أي إذا أراد أن تكون، وإذا أراد لا تكون كالتلفظ باللسان والرؤية بالعين والسماع بالأذن والإعطاء أو الأخذ باليد وسائر الأعمال، المشي على القدم ذهاباً وإياباً وأمثال ذلك، كله متوقف على استمرار القدرة التي أعطاها الله له، فهو يستطيع أن يتكلم ما دامت قدرة الله معه، فإذا سلبت منه لن يستطيع تحريك لسانه أبداً وكذلك جميع أموره الإختيارية، وبالإضافة إلى ذلك فإن نفس إرادته ومشيئته متعلقتان بإرادة الله ومشيئته كما يقول تعالى: " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ". التكوير ٢٩.

---

[٢٩] - مضامين أبيات فارسية.

العزم متوقف على إرادة الله:

من هنا وجب على كل مسلم إذا أراد أن يعقد عزمه على فعل أن يعلق هذا العزم على مشيئة الله وإرادته ويقول: " إن شاء الله " وفي القرآن المجيد ذكر تعالى بهذا بصراحة:

" ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله ". الكهف ٢٣ – ٢٤.

والخلاصة ما لم تتعلق إرادة الله بشيء فلن تتحقق إرادة البشر لذلك الشيء.

عرفت الله بفسخ العزائم:

الجملة المشهورة من نهج البلاغة عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وهي: " عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم وكشف الضر والبلية لمن أخلص النية ".

أي أن من جملة الأدلة لمعرفة الله فسخ العزائم فكثيراً ما يتفق أن الشخص يعقد العزم على فعل شيء أو تركه وفجأة ينصرف عنه ولأن فسخ العزيمة هذا لا بد له من سبب حتماً يعلم أن هناك قدرة فوق قدرة البشر محيطة به بحيث أن عزائم البشر تابعة لإرادتها، والبشر خاضع لها من جميع الجهات. ومن جملة الأدلة أيضاً أنه كثيراً ما تسد الأبواب بوجه الإنسان في عمل ما ويقع في ضيق شديد ثم يلجأ إلى الله سبحانه ويتوسل به بإخلاص نية فيسهل الله عليه ويرفع عنه ذلك البلاء ويصلح أمره.

نجاة الحسن المثنى ودعاء الفرج:

كنموذج نذكر شاهداً من التاريخ: كتب الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى عامله على المدينة صالح بن عبد الله المري: أن أخرج الحسن بن الإمام

الحسن عليه السلام إلى المسجد - وكان في سجنه - واجلده خمسمائة سوط فأحضر صالح هذا العظيم إلى المسجد واجتمع الناس فصعد المنبر ليتلو كتاب الوليد ثم ينفذ الحكم.
وفي الأثناء يدخل الإمام السجاد عليه السلام المسجد فينفرج الناس حتى يصل إلى الحسن المثنى ويقول له: يا ابن عم ادع الله بدعاء الفرج فسأله عنه قال قل: لا إله إلا الله الحليم الكريم لا إله إلا الله العلي العظيم سبحان الله رب السموات السبع ورب الأرضين السبع ورب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين. ثم رجع الإمام السجاد فأخذ الحسن المثنى يكرر هذا الدعاء حتى انتهى صالح من قراءة الكتاب ونزل عن المنبر لينفذ الحكم، فما كان منه إلا أن قال فجأة: في رأيي أن الحسن مظلوم، لذا لا بد من التريث في إجراء حكم الوليد حتى أراجعه في أمره ثانياً، وبعد أن كتب إلى الوليد كتب إليه أن أطلق سراحه.

الحيلولة بين الشخص وقلبه:

ومثل هذه القصة كثير، بل هو مما لا يمكن إحصاؤه، وكل إنسان يرى فسخ العزائم آلاف المرات في عمره، وعليه ينبغي أن يعلم يقيناً أن قلبه وقلوب البشر جميعاً تحت تصرف الله سبحانه يسخرها ويربيها كما يقول تعالى: " واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ". الأنفال ٢٤.
ومن الواضح أن فسخ العزائم هو من موارد الحيلولة بين المرء وقلبه.

الكل محتاج لله في جميع الأمور:

عندما يفكر الإنسان العاقل في أمر وجوده هو ووجود الآخرين يعلم يقيناً أن جميع شؤون وجوده من تنفسه وحتى إرادته كل ذلك مرتبط بالله وهو لا يملك

لنفسه أي شأن وأي استقلال كما يقول تعالى: " يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ". فاطر ١٥.
أي أن الإنسان من حيث الذات والصفات والأفعال في كل اللحظات في الدنيا والآخرة مرتبط بالله ومحتاج إليه.

من أدرك لا يغتر:

من اتضح له هذا، يعلم جيداً أن الإيمان الذي يمتلك هو نور أضاءه الله في قلبه وإذا صدر منه فعل خير يعلم أن التأييد والتوفيق الإلهي كان حليفه، وإذا تحلى بطبع حسن أو امتلك ملكة فاضلة اعتبر ذلك تزكية إلهية وعطاء منه سبحانه وكذلك سائر النعم، وبناء على هذا لا يغتر ولا يتكبر بل يخاف أن تسلب منه هذه النعمة إذا كفر بها وكذلك إذا وجدت فيه طباع سيئة كالكفر والشرك والنفاق أو صدر منه ذنب وعمل سيء أو سلبت منه نعمة يعلم أن ذلك نتيجة خذلان الله وإيكاله إلى نفسه لأنه لم يكن أهلاً للعطاء فلم يعطه الله، وهنا ينبغي أن لا ييأس بل يجب أن يطرق باب رحمة الله ويظهر حاجته ويعلم أنه إذا ألح ولم يتراجع فلن يحرمه الله سبحانه.

وعليه يجب أن يعلم:

الشيء المهم هو أن يدرك الإنسان مسكنته واحتياجه في جميع الأمور التكوينية والإختيارية، ويعرف في نفسه المملوكية والمربوبية، ويعرف الله سبحانه بالمالكية والقاهرية.
هل يستطيع الإنسان يا ترى أن ينير قلبه بنور الإيمان في حين أن النور والخير هما فقط في الخزائن الإلهية[٣٠] وهل يستطيع أن يطهر نفسه من أنواع

[٣٠] - من أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك. (دعاء أبي حمزة الثمالي).

الآثام والأدران في حين أن ذلك بيد الله وحده " بل الله يزكي من يشاء ". النساء ٤٩.
هل يستطيع أن يمنع الخواطر السيئة، من أن تخطر على قلبه أو هل يستطيع أن يبعد عن نفسه العزم السيء؟ ومن غير الله يستطيع أن يحول بينه وبين قلبه.

فارحمنا، على مسكنتنا:

والآن أيها القاريء العزيز إذا كنت تحمل هم الدين، وتخاف أن يدركك الموت وأنت لم تتطهر بعد من شعب الشرك وخيوط النفاق الخفية والتي هي أخفى من دبيب النمل على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء، فيجب عليك أن تتأمل كثيراً وتفكر فيما تقدم في هذا البحث لتعرف ميزان التوحيد وتواظب على قراءة الأدعية التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام المتضمنة للمعارف الإلهية وآداب العبودية.
مُدَّ يد الحاجة وتضرع بين يدي الغني المطلق واطلب منه النجاة من الأمراض القلبية من الشرك والنفاق وغيرها، وبخاصة أدعية الصحيفة السجادية التي هي زبور آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم[٣١].
كلنا مساكين منقطعون فارحمنا اللهم على مسكنتنا[٣٢].

دعاء الجوشن الكبير ودعاء عرفة:

ومن الأدعية التي تعتبر المواظبة عليها نافعة في التوحيد بشرط التدبر في

---

[٣١] - سبحانك نحن المضطرون الذين أوجبت إجابتهم وأهل السوء الذين وعدت الكشف عنهم (الدعاء العاشر من الصحيفة السجادية).
[٣٢] - همه بيچاره ايم وامانده برجاى   توبر بيجارگى ما ببخشاى

معانيها دعاء الجوشن الكبير ودعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام المنصبّ كله على معاني التوحيد في الأفعال والشؤون الإلهية وآداب العبودية، وحيث أن ذكر فقرات من الدعاءين توجب الإطالة، فليرجع إليهما القاريء العزيز.

وهنا نختم البحث باسم سيد الشهداء عليه السلام الذي هو مظهر الرحمة الإلهية الواسعة آملين ببركته أن يغسلنا الله بماء رحمته ويتفضل علينا بتطهيرنا من أنواع الأدران المعنوية.

الشك

ما هو الشك:

الشك يعني تساوي احتمال وجود شيء وعدمه، أو احتمال صحة أمر وخطأه وإذا تصورنا احتمال الوجود والعدم ككفتي الميزان فلهما ثلاث حالات: إما أن تكون الكفتان متساويتين تماماً، وإما إحداهما متدنية قليلاً والأخرى ترتفع عليها قليلاً أو إحداهما متدنية تماماً والأخرى مرتفعة عليها تماماً.

وكلما انصب الإهتمام على احتمال شيء وعدمه أو صحة أمر وخطأه، فهذا الإحتمال على ثلاث حالات: إما أن كلا الإحتمالين متساويان وهذا يسمى الشك أو الترديد، أو أن أحد الإحتمالين أكبر فهنا يسمى هذا الإحتمال " الراجح " والمظنون ويقابله " المرجوح " أو الموهوم.

والصورة الثالثة أن يكون أحد الإحتمالين متعيناً تماماً بحيث لا يكون وجود لاحتمال مقابله، مثلاً: تكون صحة أمر ما مسلمة تماماً ومتيقنة بحيث أنه لا يحتمل أبداً عدم الصحة، فهذه الحالة تسمى باليقين.

فالشك إذن حالة الحيرة والتردد وتوزع القلب والضياع.

الشك علامة مرض القلب:
علامة سلامة قلب الإنسان أن يكون عالماً كل العلم ومطمئناً بثبوت الحق وصحته وعدم الباطل وخطأه، كما أن علامة مرض القلب التردد والحيرة في حقانية الحق وبطلان الباطل.
إن القلب الخالي من نور العلم ومعرفة الحق والإيمان والإطمئنان به هو قلب خارج من نطاق عالم الإنسانية، محروم من سعادة الحياة الطيبة، يتخبط في عالم الحيوانية المتدنية.
ومثل هذا المريض كمثل أعمى يشك فيما حوله ويحار فيه لأنه لا يراه. إن من يشك فيما تشهد فطرته ووجدانه والبرهان وعقله على صحته، هو حتماً أعمى القلب محروم من نعمة البصيرة، وأهم ما يجب عليه بحكم الشرع والعقل أن يعمل على علاج مرض شكه.
خطورة مرض الشك:
يقول تعالى: " وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ". التوبة ١٢٥.
أي الذين في قلوبهم مرض تزيدهم آيات الله رجساً.
أما الذين تكون قلوبهم سليمة فإن هذه الآيات الإلهية تزيد نور معرفتهم وبصيرتهم كالعطر يبعث في الإنسان السليم النشاط والفرح ويقوي الشم والإدراك عنده، بينما الشخص المبتلى بالزكام يستاء من هذا العطر ويزداد زكامه.
" المطر الذي لا شك في رقته ينبت في الحديقة الزهر، وفي

الأرض المالحة الخس[1] وعن الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية " رجساً إلى رجسهم " أنه قال شكاً إلى شكهم[2].

ليس في القلب السليم، إلا الله:

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قوله تعالى: " إلا من أتى الله بقلبٍ سليم "، فقال القلب السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه قال وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط[3].

القلق في الدين خسارة في الدارين:

" ومن الناس من يعبد الله على حرف " أي بعض المسلمين ليس إيمانهم بالله والرسول والقيامة إيماناً قلبياً واعتقاداً يقيناً وتصديقاً علمياً " اطمأن به " ثبت على الدين " وإن أصابته فتنة " كالفقر والمرض " انقلب على وجهه " أي يترك إيمانه ويرجع إلى حالته الأولى " خسر الدنيا والآخرة " لأنه في الدنيا ساقط ومبتلى وفي الآخرة يواجه العذاب " ذلك هو الخسران المبين ". الحج ١١.

قال في تفسير المنهج: ومن الناس من يعبد الله ويوحده على حرف التوحيد وحافته لا في وسطه أي أنه لا ثبات له على الإسلام بل هو شاك متردد، وبسبب عدم امتلاكه العلم بالتوحيد فإنه معرض للإنحراف لدى مواجهة أقل شبهة، إنه على الحافة ولم يتقدم إلى الوسط بقلب قوي.

---

١ - بيت شعر فارسي لسعدي.
٢ - تفسير العياشي.
٣ - الكافي باب الإخلاص.

إنه في تردده وشكه وعدم سكون نفسه واطمئنانها كجندي يقف على طرف الجيش منتظراً هل سينتصر الجيش ليدخل إلى قلبه ويشارك في الغنائم، أم أنه سينهزم ليختار الفرار على القرار.
وفي تفسير أبي الفتوح: نزلت هذه الآية في جماعة من الأعراب قدموا إلى المدينة وآمنوا إيماناً مجازياً، وظاهرياً لا إيماناً بالقلب واعتقاداً قلبياً علمياً، وكانوا إذا لم تصبهم مصيبة أو مرض أو آفة وزاد مالهم ووضعت نساؤهم حمْلها بخير وكذلك خيلهم، قالوا: محمد هذا رجل مبارك ودينه هذا دين حق واعتناقنا لهذا الدين صواب، وإذا حدث خلاف ذلك فمرضوا وماتت مواشيهم قالوا: محمد هذا رجل غير مبارك ولا أصل لدينه ونحن منذ دخلنا هذا الدين لم نر إلا الضرر[٤].

لا تشكّوا فتكفروا:

كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول في خطبته: لا ترتابوا فتشكّوا ولا تشكوا فتكفروا.
يقول المجلسي رضوان الله تعالى عليه لعل المقصود بالجملة " لا ترتابوا " الإبتعاد عن الشبهات التي تؤدي بالإنسان إلى الشك أو أن المقصود عدم الرضا بقضاء الله الذي هو أيضاً سبب للشك أو التردد الذي هو مقدمة الشك.

الشاك كافر واقعي:

يقول محمد بن مسلم كنت جالساً عند الإمام الصادق عليه السلام عن يساره وزرارة عن يمينه، ودخل أبو بصير، ثم قال " يا أبا عبد الله عليه السلام ما تقول فيمن شك في الله فقال كافر يا أبا محمد قال فشك في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال كافر ثم التفت

[٤] - نقل النصان بتصرف.

إلى زرارة فقال: إنما يكفر إذا جحد[٥] ".

في هذين الحديثين يعتبر الإمام عليه السلام الشك بالله والرسول كفراً، أي من مات وهو شاك فقد مات كافراً، وأما ما جاء في آخر رواية محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام من قوله: إنما يكفر إذا جحد فالمراد به أن الشخص الشاك إذا لم يظهر شكه وأقر بالشهادتين ظاهراً فهو في الظاهر مسلم – رغم أنه واقعاً كافر – وعلى المسلمين أن يعاملوه معاملة المسلم، فإذا أظهر شكه فهو عندها في الظاهر والواقع كافر كما أن صريح الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام يدل على ذلك وهي قوله عليه السلام:

من شك في الله ورسوله فهو كافر[٦].

الشاك في النار، وأعماله الحسنة هباء:

يقول الصادق عليه السلام: إن الشك والمعصية في النار[٧].

و.. من شك في الله بعد مولده على الفطرة لم يفيء إلى خير الله أبداً[٨].

و.. من شك أو ظن فأقام على أحدهما أحبط الله عمله[٩].

ويقول الباقر عليه السلام: لا ينفع مع الشك والجحود عمل[١٠].

---

[٥] - أصول الكافي، باب الشك. أقول: لعل مراد الإمام عليه السلام الإلفات إلى أن الكفار هم عادةً شكاك لأنه لا دليل لأحد منهم على كفره، بل هم يستبعدون " هيهات هيهات لما توعدون " بالإضافة إلى إرادته عليه السلام التفريق بين إظهار الشك (الجحود) وعدم إظهاره كما سيصرح المؤلف – المترجم.

[٦] - بحار الأنوار، ج ١٥: باب الكفر.

[٧] - أصول الكافي – باب الشك.

[٨] - نفس المصدر.

[٩] - نفس المصدر.

[١٠] - نفس المصدر.

وعنه عليه السلام قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعوذ في كل يوم من ست من الشك والشرك والحمية والغضب والبغي والحسد[11].

الشاك والهلاك الأبدي:

من المسلّم به أن الإنسان إذا مات على الشك والظن أي إذا خرج من الدنيا بلا إيمان ولم يأخذ معه علمه بالله فهو هالك أبداً، ولا نصيب له النجاة نهائياً، وإذا كانت فيه طباع سيئة وأخلاق رذيلة وكانت له أفعال سيئة فلا خلاص له من عذابها، كما أن الإنسان إذا غادر الدنيا عالماً بالله مؤمناً به، فسوف لن يكون الهلاك الأبدي نصيبه حتماً، ولا يبقى في النار إلا غير المؤمنين أما المؤمنون الذين يرتكبون أعمالاً سيئة، فهم إما أن يوفقوا للتوبة وإصلاح أنفسهم في الدنيا، أو تنقذهم شفاعة قادة الدين أو أنه بعد أن يتعذب في النار بمقدار ما يطهر من ذنوبه والله أعلم بذلك، ثم ينجو من النار ويدخل الجنة ويلتحق بالمؤمنين.

الخلود في النار لا ينافي كرم الله:

فإن سأل سائل: لماذا يُحرم من يموت على غير الإيمان من الجنة ونعمها اللامتناهية مع أن الله الكريم والرحيم لو أدخل جميع العباد الجنة فلا ينقص من ملكه شيء ولا يخسر شيئاً وليس ذلك خارجاً عن قدرته سبحانه، كما أنه إذا أدخل جميع العباد النار فلا يزيد في ملكه شيئاً.

والجواب: حرمان غير المؤمنين من نعم الآخرة سببه أنهم لا يمتلكون قوة إدراك تلك النعم، وبديهي أن استفادة الإنسان من أي شيء تتوقف على إدراكه لذلك الشيء.

---

[11] - أصول الكافي – باب الشك.

مثلاً: إذا ألبس حمار لباساً فاخراً وأدخل إلى قصر مزيّن بأنواع الزينة وقدمت له مائدة عليها ما لذ وطاب من أنواع المأكولات، فهل يا ترى يستفيد الحمار من هذا شيئاً وهل يتنعم بشيء من هذه النعم وهل هذا التصرف صحيح أصلاً؟ الجواب قطعاً بالنفي بل إن مقتضى الحكمة الحقيقية ووضع كل شيء في محله أن تكون الأرواح الرقيقة، والأبدان المناسبة لأرواحها في الجنة، والنفوس " الغليظة " والأقسى من الصخر (نفوس الكافرين وغير المؤمنين) مع أبدانها المناسبة لباطنهم في الجنة.

طريق الجنة وإرادة الآخرة:

وأيضاً إن للجنة طريقاً من سلكه ومشى عليه فهل يمكن أن لا يصلها، وهل يمكن أن نقول إن عدم وصوله الجنة حرمان له منها؟ لو أن شخصاً زرع بذر الحنظل فأثمر له ثمراً مراً، هل يصح أن يقال: حرم من الثمر الحلو؟

ونقول أيضاً: وصول الإنسان إلى شيء وتحقيقه لهدف ما متوقف على إرادته وطلبه ذلك الشيء، الشخص الذي لم يكن مؤمناً بالله، لم يطلب القرب منه ولم يرده حتى يصل إليه وينعم به، ولم يكن يعتقد بالجنة ولا يصدق بها حتى يطلبها ويصل في النتيجة إليها.

يقول تعالى في القرآن المجيد: " ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ". الإسراء ١٩.

عذاب الآخرة ليس انتقاماً:

مما تقدم يعلم أن عذاب المجرمين على أعمالهم القبيحة ليس من باب التشفي والإنتقام بل هو من باب ترتب المسببات على الأسباب مثلاً أثر العدل

والإنصاف والنور والرحمة الإلهية في العالم الآخر كما أن أثر الظلم العذاب والألم.

من لا إيمان لهم، هل هم معذورون؟:

وشبهة أخرى تقول: لا مبرر لعذاب غير المؤمنين على ذنوبهم، لأنهم لم يعرفوا الله حتى يجتنبوا عصيانه، مثلاً: إذا تنكر أحد السلاطين وبقي فترة بين الناس ورأى منهم أنواع سوء الأدب وعدم الإحترام، فلا يحق له فيما بعد أن يعاقبهم ولو فعل لكان ذلك منافياً للعدل، وسيمكنهم القول: إنا معذورون لأنا لم نعرف السلطان.

الله لا يخفى على عاقل:

الجواب أن الجاهل الغافل عن الله ليس معذوراً أبداً والتشبيه بالسلطان المتنكر الذي لم يعرفه الناس خطأ لأن الله سبحانه ليس خافياً على أي عاقل وإذا لم يعرفه عاقل فلأنه لم يرد أن يعرفه نعم إذا كان محروماً من نعمة العقل فهو معذور وإلا فإن العاقل الذي يكتفي في إثبات شيء بدليل عقلي قطعي ويطمئن إليه كيف يشك في الله مع أن نجوم السماء وحبات المطر وأوراق الشجر وكل ذي روح وكل متحرك في البر والبحر وكل ما تلبّس بثوب الوجود، كل ذلك شاهد على كمال علمه وقدرته.

كل نبت من الأرض يقول وحده لا شريك له.

كل ورقة من ورق الشجر الأخضر في نظر الفطن دفتر في معرفة الله[١٢].

يمكن التشكيك في كل شيء إلا في الله سبحانه، ففيه لا مجال لأي شك:

---

[١٢] - مضمون بيتين من الشعر الفارسي.

" أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ". إبراهيم ١٠.

وهؤلاء المشككون؟:

قد تسأل: كيف لا مجال للشك في الله مع أننا نرى أكثر بني البشر يشكّون في الله بل أن أصحاب اليقين والإطمئنان في غاية القلة، وكذلك حول القيامة والقرآن المجيد يقول تعالى: " وأن الساعة آتية لا ريب فيها ". الحج ٧ " وذلك الكتاب لا ريب فيه ". البقرة ٢ أي لا مجال للشك فيهما أبداً مع أن كثيراً من غير المؤمنين يشكون في القيامة وغير المسلمين كلهم يشكون في القرآن.

الأعمى لا يرى الشمس:

الجواب أن الله والقرآن والقيامة كل ذلك عين الحق والحقيقة، بحيث أن أصحاب الفطرة السليمة والعقل الصريح لا يسوغون الشك فيها، تماماً كمن له عين يرى فيها الشمس فلا يسوغ الشك فيها، أما الذين يشكون في هذه الحقائق الثلاث فهم مبتلون بمرض نفسي، أي أنهم فقدوا فطرتهم الأولى وأعمى غبش الشهوات والهوى والنزوات عيون قلوبهم بحيث لا يمكنهم بعد رؤية الحقيقة كالأعمى أو السجين في سجن مظلم الذي يشك في طلوع الشمس، نعم إن ما يملأ كيان هؤلاء هو الشك والإضطراب لا الحق.

إننا إذا تأملنا في أحوال أهل الشرك لوجدنا أنَّ شكهم ناتج عن أنهم لا يريدون أن يعرفوا الحق، لأنهم لو كانوا حقاً يريدون ذلك وتأملوا بعين الإعتبار في أجزاء عالم الوجود ونظروا في دلائل الحكمة والقدرة فيه، لما أقاموا على شكهم أبداً.

أهل الشك مثلهم كمثل قوم وقع في يدهم كتاب قيّم كتبت مضامينه بخط جميل وطبع طباعة أنيقة، فانشغل جماعة منهم بتأمل الخط وجماله،

وآخرون بالورق وطباعته في حين ينشغل آخرون بقراءة مضامينه والتأمل فيها.

تأملوا جيداً في كتاب الوجود:

أهل اليقين مثلهم كمثل جماعة يدركون بقراءة هذا الكتاب عظمة مقام مؤلفه العلمي، ومدى قدرته على سبك المعاني العميقة في قوالب لفظية جميلة.

من كانت روحه متجلية فكل العوالم لديه كتاب الحق تعالى.

الغرض هو الإعراب والجوهر كالحروف والمراتب كآيات الوقوف على الحق.

وكل عالم كسورة خاصة فهذه الحمد وتلك الإخلاص.

معرفة الله بدلاً من معرفة الطبيعة:

في عصرنا هذا يبذل الإنسان جهوداً مضنية ويصرف من عمره وماله على التعرف على أجزاء عالم الوجود، أما خالق هذا العالم فلا يبذلون أي جهد للتعرف عليه، بل إنه سبحانه لا يخطر ببالهم.

إنا نجدهم يرصدون موازنات طائلة للوصول إلى القمر ودراسة طرق استخدامه لأغراض مختلفة ويتحملون مشقات جسام، ويخسرون الكثير الكثير ولكنهم ليسوا على استعداد لصرف شيء من عمرهم للتعرف على خالق هذه الكرة (القمر) ومحركها بهذا النظام المحير.

ولهذا السبب فإن العلوم العصرية عاجزة عن إسعاد المجتمع البشري وتأمين راحته الحقيقية، لأن حدّ العلم البشري هو هذه المخلوقات ولا يتعداها إلى الخالق.

" فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم ". النجم ٢٩ ـ ٣٠.

تقدم علم التشريح، والغفلة عن الصانع:

ومثال آخر: في علم الطب أحرز الإنسان تقدماً مهماً في مجال تشريح البدن وتحديد أنواع الأمراض ومعالجتها، ولكنه في غفلة تامة عن صانع هذا الجهاز العجيب وخالقه، إن علم الإنسان يقف عند الله، أما عنه سبحانه فلا يملك الإنسان سوى الجهل والشك والغفلة أي أن الإنسان لا يعرف شيئاً أبداً عن خالق العالم وأسمائه وصفاته، وكذلك الملائكة الذين هم جنود الرحمن وهم في عالم الغيب وملكوت هذا العالم، وكذلك بالنسبة للأنبياء والكتب السماوية والحياة بعد الموت ومحطة الإنسان الأبدية التي يلقى فيها جزاء أعماله ومعتقده.

" بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم معرضون ". النمل ٦٦.

أي أنه لا أمل بعد في أن يخرجوا من الشك ويحيطوا بتلك الحياة ويبصروها.

لماذا لا نعمل على معرفة الله:

لماذا يقتصر علم الإنسان على ما دون الله، وأما بالنسبة له سبحانه فلا علم له؟ هل الإنسان عاجز واقعاً عن العلم بالله، أم أنه لا يعمل على معرفة الله كما يعمل على معرفة مخلوقاته؟ ولو كان الإنسان يستطيع العلم بالله، فلماذا لا يعمل على تحصيل هذا العلم؟

هذه أسئلة يمكن الإجابة عليها بصراحة وما أفهمه هو أنه لا يمكن القول

أبداً إن الإنسان عاجز عن معرفة الله، مع العلم أن أصل خلقه وتزويده بنور العقل إنما هو لتحصيل العلم الحقيقي والمعرفة بالله سبحانه والتنعم بمقام التقرب منه.
أضف إلى ذلك أن العقل يحكم والقرآن الكريم يصرح بأن الله سبحانه خلق كل شيء للإنسان وخلق الإنسان للمعرفة والوصول إلى مقام العبودية للخالق.

وضاعة الهمة والقناعة بالنفع المادي:

أما لماذا لا يعمل الإنسان على معرفة الله ولا يتحمل صعوبات هذا الطريق فإن السبب الوحيد هو الهمة الوضيعة والإقتناع باللذائذ المادية أي أنه يبذل الجهد للوصول إلى المنافع المادية وما يتعلق بها من ثروة وجاه وعلوم مادية " علم كل شيء إلا الله وما يتعلق به " ولأنه لا يرى في معرفة الله والعبودية له أي نفع مادي وأية لذة حيوانية فهو لا يعمل لأجلها ولا يبحث عنها ويبقى مقيماً على جهله.
بل إن معرفة الله بالإضافة إلى أنها ليست فيها لذة مادية، فهي تمنع عن التحلل والعجب وحب الذات، وتُطوق الإنسان بطوق العبودية لله ليصبح مطيعاً لأمره تماماً.
وهذا المقام لا يرغب به إلا أصحاب الهمم العالية والمميَّزون من بني البشر والنخبة منهم.
" بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ". القيامة ٥.

نموذج تاريخي للهمم العالية:

وقع اثنا عشر شخصاً من جنود الإسلام أسرى بيد الروم وحملهم الروم

إلى الإمبراطور في العاصمة وكان الإمبراطور يفكر في المسلمين وكيف أنهم استطاعوا رغم قلة عددهم إحراز هذه الإنتصارات فقال لهؤلاء الأسرى المسلمين: دربوا جنودي ليصبحوا مثلكم ولكم مقابل ذلك مبالغ طائلة فقالوا له ديننا لا يجيز لنا أن نساعدكم ثم قرأوا هذه الآية: " ربِّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ". القصص ١٧.

فأمر الإمبراطور أن يأخذوهم إلى الكنيسة ويعرضوا عليهم الفتيات الجميلات ويعدوهن بهن إذا أعجبنهن، فلما دخلوا الكنيسة ووقعت أنظارهم على الفتيات غضوا أبصارهم وقالوا ليس هذا معبد إنما هو مرقص، فأخبر الإمبراطور بذلك فقال قولوا لهم إن لم تقبلوا عرض الملك فليس أمامكم إلا القتل، وعندما قالوا لهم ذلك استبشر الجميع وفرحوا، وقالوا إن نبينا أخبرنا أن من يموت على فراشه قد يدخل الجنة وقد لا يدخلها، أما الشهيد في سبيل الله فهو إلى الجنة حمتاً.

المال والجاه والشهوة والتهديد:

فليتأمل القاريء العزيز جيداً في شهامة هؤلاء وفتوتهم واستقامتهم على صراط التوحيد والعبودية، وكيف أن المال والمقام والرئاسة والغريزة الجنسية لم تؤثر عليهم رغم أن كل واحد من هذه الثلاثة كافية كافٍ وحده في إخضاع الأشخاص الذين تكون همتهم وضيعة وإرادتهم ضعيفة وذليلة.

فليتأمل القاريء كيف لم تستطع كل هذه الإغراءات أن تثني هؤلاء الرجال عن طريق العبودية للحق تعالى وكيف أنهم فضلوا الموت على خيانة الإسلام والمسلمين لأن ذلك في الحقيقة خيانة لله سبحانه ومن هنا يعلم سبب قلة أصحاب الحق ومعرفة الله تعالى.

اللذة الروحية أسمى:

يجب أن يكون واضحاً أنه وإن لم توجد لذة حيوانية ومادية في معرفة الله والعبودية له بل أنه يجب على سالك هذا الطريق أيضاً اجتناب اللذائذ غير المشروعة، إلا أن اللذائذ الروحية والنعم المعنوية التي يلتذ وينعم بها المؤمن هي أفضل وأحسن وأكثر وأكمل بحيث أن من يتذوق هذه اللذائذ يعرض في سبيلها عن أفضل اللذائذ المادية.

إذا اعتبرت اللذة ترك اللذة، فلن تسمي لذة النفس لذة[١٣].

كما أنه إذا واجه أنواع الحرمان والضيق، فإن لذة المعرفة والعبودية تعوضه عن ذلك كله.

ولأن الهدف في هذا الكتاب الفائدة العامة، فبدلاً من ذكر البراهين العقلية، على أهمية اللذة الروحية وتقدمها على اللذة المادية نذكر هنا شواهد تاريخية على ذلك:

يصيبه السهم ولا يقطع الصلاة:

في إحدى الغزوات التي شارك فيها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كلف بالحراسة الليلية عمار بن ياسر وعباد بن بشر وقد اتفقا أن تكون الحراسة مناصفة من أول الليل إلى منتصفه لعباد والنصف الثاني لعمار، فنام عمار وفيما كان عباد يصلي توجه يهودي نحو معسكر الإسلام ليغتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعيد رأى في المعسكر شيئاً، ولشدة الظلام لم يستطع أن يميز هل ذلك إنسان أم حيوان أم شيء آخر فرماه بسهم فاستقر السهم في جسد عباد فلم يقطع صلاته، ثم رماه بسهم آخر وثالث واستقرا أيضاً في جسده ولم يقطع صلاته أيضاً فعجل في

---

[١٣] - مضمون بيت شعر فارسي.

صلاته وأيقظ عماراً فلما نظر إليه عمار ورأى الدم يسيل منه عاتبه لمَ لم يوقظه مباشرة عندما أصابه أول سهم فقال يا عمار كنت أقرأ سورة الكهف ولم أحب أن أقطعها ولولا خوفي أن يقتلني ويصل إلى رسول الله وأكون قصرت في واجبي لما تركت قراءة السورة ولما عجلت في صلاتي ولو كان في ذلك حياتي، ثم مضيا معاً وأبعدا العدو عن جند الإسلام.

نظرة إلى أبطال كربلاء:

تأمل أيها القاريء العزيز في اللذة الروحية للصلاة وكيف أن هذا المجاهد تغلب على جراح السهام، بل كان مستعداً لبذل روحه ثم لا يقطع الصلاة.

وإذا أردت أكثر، وأردت أن تعلم مدى قوة اللذة الروحية وشدتها فتأمل في أحوال أصحاب سيد الشهداء عليه السلام، التي هي حقاً محيرة، فقد أعرضوا عن المال والجاه والعيال والأولاد بملء اختيارهم، واستقبلوا أنواع البلاء والصعوبات ببهجة وسرور باذلين في سبيلها مهجهم.

ألم تسمع بمزاح برير ليلة عاشوراء حيث قال: " والله لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلاً، ولكني والله لمستبشر بما نحن لاقون... [١٤]".

وهل تدبرت في حالات عابس يوم عاشوراء حيث رمى بدرعه وخوذته ورمى بنفسه في بحر جيش العدو حاسراً غير دارع.

وبالرغم من أن الإمام الحسين عليه السلام أذن لهم، عدة مرات بالذهاب حيث يريدون ولكنهم لم يتركوه، وكان بعضهم كالغلام الأسود يترجى الإمام عليه السلام أن يأذن له بالمشاركة في الحرب وكان لسان حالهم جميعاً:

---

[١٤] - إبصار العين في أنصار الحسين عليه وعليهم السلام / للسماوي / ٧٠.

تركت الخلق طراً في هواكا ويتمت العيال لكي أراكا
فلو قطعتني بالحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا[١٥].

العلم المادي يؤيد عبادة الله:

مما تقدم يعلم أن على الإنسان أن لا يقصر في الوصول إلى منزلة سامية في معرفة الله بل يكون إلى جانب تحصيله للعلوم المادية ساعياً للحصول على المعرفة الإلهية، فهذان العلمان لا أنهما ليسا متنافيين وحسب بل أن العلم المادي يؤيد " معرفة الله " كما سيأتي في مبحث علاج الشك.

يجب أن يكون واضحاً أن الهدف من إيجاد السماوات والأرض وإرسال الأنبياء والكتب السماوية، وصول البشر إلى مقام معرفة الله والعبودية له سبحانه، وهنا إشارة إلى آيتين من القرآن المجيد:

المعرفة هدف الخلقة:

" الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ". الطلاق ١٢.

أي أن الهدف من خلق السماوات السبع والأرضين السبع وجميع أنواع التدبير الإلهي تعريف البشر بقدرة الله وعلمه اللامتناهيين.

---

[١٥] - لم يورد المؤلف هذين البيتين وإنما أورد بيتين فارسيين هذا مضمونهما:
أيها الملك إذا أوصلني سرير فضلك إلى العرش، فإني أظل مملوكاً لك محتاجاً لبابك نزعتُ قلبي من حبك وصرفتُ حبي عنك فعلى من ألقي حبي، وأين أذهب بقلبي.

خلق الجن والإنس للعبادة:

" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ". الذاريات ٥٦.

أي خلقتهم ليصلوا إلى مقام العبودية الذي فيه السلطنة الإلهية والهدف من الإيجاد وصول الإنسان إلى مقام العلم والعمل اللذين هما بمثابة جناحين له، وبهاتين القوتين يحلق في العالم الأعلى ويصل إلى المقامات التي ما رأت عين مثلها ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر.

وهكذا تعلم خطورة مرض الشك والجهل ووجوب تحصيل العلم واليقين، فيجب التذكير بطريق معالجته.

علاج الشك، والوصول إلى اليقين:

الإيمان بالله يعني معرفة الحق واتباعه والإيمان ليس شيئاً موجوداً خارج الإنسان يدخل إلى قلبه عن طريق الحواس كالعين والأذن بل هو أمر تكويني وفطري أعطي للإنسان حين خلقه كما أعطي للإنسان القدرة على زيادته بحيث أنه يستطيع ببركة اتباع الشرع والإلتزام بتطبيق التعاليم الإلهية أن يصل إلى درجة اليقين، بل يمكنه أن يصل إلى أعلى درجات اليقين كما سيأتي.

الإيمان كالطاقة الكهربائية:

هذه الفطرة والقدرة على معرفة الله في كيان الإنسان هي كالتيار الكهربائي في الأجسام كما أن الإستفادة من الطاقة الكهربائية الكامنة في الأجسام تتوقف على الأسباب والوسائل العلمية والتجريبية فكذلك ظهور نور العلم والإيمان المستقر في كيان الإنسان والمودع فيه يتوقف على أمور إذا سعى الإنسان وعمل على تحصيلها يظهر هذا النور ويظل يزداد حتى يصل إلى درجة اليقين، وإذا أهمل الإنسان تحصيل هذه الأمور يتضاءل هذا النور رويداً رويداً حتى ينطفيء نهائياً.

الطهارة من الأدران:

الأمور التي يتوقف عليها ظهور نور الفطرة هي بشكل عام أمران:

" التخلية " أن يطهر القلب ويفرغ من أنواع الأدران والتلوثات من النزوات والأفعال الحيوانية والشيطانية وباختصار أن يطهر قلبه من الغفلة عن الحق التي طغت على فطرته فأصدأت مرآة قلبه وغطتها بالتفصيل الذي سيأتي.

" والتحلية " أن يقوي نور الفطرة بواسطة التفكير والذكر ليحلو القلب بذكر الله، كما سيأتي.

الإيمان فطري:

" فأقم وجهك للدين حنيفاً " أي أقبل بوجهك على التوحيد والإسلام الذي هو الدين الحق (الحنيف) والتفت إليه " فطرة الله التي فطر الناس عليها " المراد بالفطرة تلك القدرة على معرفة الله وتوحيده والإلتزام بلوازم التوحيد وهذه القدرة أودعها الله في كيان الإنسان " لا تبديل لخلق الله " أي أن فطرة الله لا تقبل التغيير أو أن المراد أنه لا يصح لك أن تغير فطرة الله، أي يجب عليك الثبات على التوحيد وطريقة الإسلام " ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ". الروم ٣٠.

لا تبديل لخلق الله:

توضيح ذلك أن كل مخلوق خلقه الله سواء كان جماداً أو نباتاً أو حيواناً وغير ذلك قد منحه سبحانه قدرة التكامل أي الوصول إلى الكمال الذي يناسبه وخلق فيه الحركة نحو هذا التكامل بحيث أن التبديل والتغيير في ذلك محال، حبة القمح مثلاً أودع الله فيها قدرته بحيث إذا توفرت الأسباب أي إلقاؤها في

التراب ووصول الري إليها فإنها تنشق ويصبح نصف منها جذراً يستقر في الأرض والنصف الآخر يخرج من التراب ويصبح نبتة تعطي من القمح أضعاف الحبة الأصلية، وهذه السُّنة في حبة القمح لن تتغير أبداً، أي أن حبة القمح لن تنبت عدساً أو شعيراً أبداً.
والنطفة الحيوانية مثلاً: إذا استقرت في الرحم فإنها ستنمو تدريجياً حتى تصبح على صورة الحيوان الذي انفصلت عنه ولن تظهر على شكل حيوان آخر.

الإستقامة على طريق الفطرة، كمال الإنسان:

والإنسان قد أودع الله فيه القدرة على التكامل، وتكامل الإنسان في تنظيم حياته المادية وتأمين راحته في حياته الأبدية والوصول إلى المراتب الروحية، وهو لا يبلغ هذا الكمال إلا إذا استقام على طريق التوحيد والإلتزام بدين الله.
ولأن بلوغ الإنسان الكمال الذي يناسبه يتوقف على اختياره ورغبته في توظيف تلك القدرة المودعة فيه واستخدامها حتى يصبح من أهل الإيمان والمعرفة متحلياً بالأخلاق الفاضلة، فمن الواضح جداً أن الإستقامة على طريق التوحيد تتنافى مع الميول الحيوانية التي يحتاج الإعراض عنها إلى همة عالية كما تقدم.
وخلاصة القول إن بلوغ كل موجود الكمال الذي يناسبه هو أمر حتمي عند توفر الأسباب وفي الإنسان يعتبر السبب الرئيس إرادته، وغالباً ما يقنع الإنسان بالمستوى الحيواني، ولا يطلب " الإنسانية " ولا يريدها حتى يصل إليها، والهدف من كل المواعظ والتحذيرات والترغيب بالثواب والتخويف من العقاب هو إيجاد هذه الإرادة والطلب في الإنسان، أي لكي يصبح طالباً الوصول إلى

مستوى الإنسانية غير قانع بمستوى " الحيوانية ".
من هذا العرض يعلم جيداً جواب السؤال: إذا كان الإيمان بالله فطرياً فلماذا نجد أكثر الناس غير مؤمنين، وخلاصة الجواب أن ظهور الفطرة وبروزها في الإنسان تتوقف على إرادته.

لو كان حقاً يريد لعرف:

وكل إنسان توجد فيه هذه الإرادة، أي أنه حقاً يريد أن يصبح من أهل المعرفة بالله، ويستقيم على هذه الإرادة فهو حتماً سيصل إلى ما يريد.
ما أكثر الأشخاص الذين قضوا شطراً من أعمارهم أسارى الهوى والعجب والأوهام الباطلة التي نسجها لهم الشيطان والنفس فتصوروها أدلة على عدم وجود الله فأنكروا وجود خالق مدبر لهذا الكون العظيم وأنكروا مرتبة الإنسانية السامية واعتبروا الإنسان حيواناً بلغ حد الكمال أي ألقى عنه القرنين والذنب والصوف أو الوبر الذي كان يكسوه وتطور من المشي على أربع فأصبح يمشي على اثنين وأصبح على هذه الصورة التي هو عليها وما أكثر الغافلين الذين قبلوا هذه الأوهام التي تنسجم مع التحلل والعبث واتباع الشهوات واعتقدوا بها وبنوا كل تصرفاتهم وممارساتهم على أساس المادية والحيوانية بل ما أكثر الناس الذين هم إلى الآن على هذا الطريق يعيشون هذه الأوهام، بينما نجد أن الذين حملوا راية هذا المنهج الفكري الخاطيء عندما عادوا إلى رشدهم وفكروا في أنفسهم أيقظهم وجدانهم وشعورهم الباطني وكشف لهم زيف أفكارهم، ونذكر هنا كنموذج أسماء عدة منهم:

داروين يعترف:

صاحب النظرية المشهورة " أصل الأنواع " أو التطور " شارلز روبرت

داروين " أو الشخص الذي أخذ الإلحاد عنه في القرون الأخيرة قسم من الملاحدة ومؤسس المدرسة الداروينية التي ملأ ضجيجها الآفاق ركع أخيراً أمام ضغط قوة الفطرة والوجدان، فهو كما ينقل عنه جان كلو ورمونسا الكاتب الأميركي المعروف اعترف في أواخر أيام حياته أنه تراجع عن نظريته واعترف بالقوة الإلهية الأزلية والأبدية، وينقل عنه (بخنر) العالم الألماني في كتاب أصل الأنواع أنه اعترف في رسائله إلى أصدقائه أن " من المحال على العقل أن ينكر وجود مبدأ مدبر لهذا الكون وهو يرى فيه هذا النظام والتناسق المحيرين ".

التلميذ يتبع أستاذه:

الفيلسوف الألماني الشهير " رئينغ " الذي كان في البداية من أتباع داروين المتعصبين له أضطر أخيراً للتسليم والخضوع أمام ضغط الوجدان والفطرة وألف كتاباً باسم " الدنيا المخلوقة " واعترف فيه بمنتهى الصراحة بأن لهذا العالم خالقاً.

و" رومين " أيضاً:

فيلسوف آخر إنكليزي باسم " رومين " الذي كان من دعاة المادية والإلحاد، حملته تلك القوة المودعة فيه على أن يقول أخيراً: كل الأسس العلمية والفلسفية التي اعتمدتها سابقاً في مجال وجود العالم من مادة غير مدركة، أسس باطلة ووجود العالم من دون صانع متعال مقتدر حكيم كما يشهد بذلك إحساسي الباطني وتصدقه حكم الوجود محال، وخالق العالم حق.

و" فارادي " يركع:

ميكائيل فارادي فيلسوف إنكليزي وباحث في علوم الطبيعة والفيزياء والكيمياء كان يعتبر العالم موجوداً من التركيبات التصادفية للمواد لا غير ولم يكن يعتقد بالله الحكيم المدبر وأمضى تمام عمره في أبحاث الفيزياء والكيمياء يقول في أحد أيام عام ١٨٦٧ للميلاد وكان على فراش المرض جواباً لصديقه الذي سأله بأية نظرية تفكر، يقول: أشكر الله أني لا أفكر بأية نظرية، أنا أسجد أمام عظمة الله وأركع معترفاً بالحق، إني أفكر فقط بالله الذي تشهد بوجوده فطرتي وإحساسي وشعوري الباطني وكل أنظمة العلوم، أنا أعرف ربي وأنا مطمئن أنه سيغفر لي تقصيري وزلاتي لعجزي وانكساري وتوبتي[١٦].

التوحيد، الإسلام، معرفة الله، كل ذلك فطري:

في أصول الكافي يروى عن الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: كل مولود يولد على الفطرة وهي معرفة الله.

مغيث من لا مغيث له:

في تفسير الإمام العسكري عليه السلام أن شخصاً سأل الصادق عليه السلام عن طريق معرفة الله فقال له الإمام: " يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من

[١٦] - نقلاً عن كتاب بالفارسية " جاهليت وإسلام " بتصرف.

ورطتك؟ قال: نعم، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء الذي هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث[١٧] ".

علم معرفة الله في قلب الإنسان:

قال المسيح عليه السلام: يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من يصعد فيأتي به ولا في تخوم الأرض من ينزل يأتي به ولا وراء البحار من يعبر يأتي به العلم مجبول في قلوبكم، تأدبوا بآداب الروحانيين وتخلقوا بأخلاق الصديقين يظهر العلم في قلوبكم.

ويقول الصادق عليه السلام: ليس العلم بالتعلم إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله أن يهديه[١٨].

والظاهر أن المراد بهذا العلم ليس العلوم الإكتسابية بل الإيمان بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وما يتعلق به سبحانه.

لماذا نهينا عن التفكير في ذات الله:

ما ذكر من أن الإيمان بالله ومعرفته فطريان للإنسان، المقصود به اليقين بأن خالق كل شيء واحد، عالم، قادر، أما معرفة الذات الإلهية وحقيقة الله فذلك فوق مقدور البشر بل وجميع المخلوقات، بل محال أن يعرف المخلوق ذات الله، لأن معنى معرفة الذات الإحاطة بها ومحال أن يحيط المخلوق بخالقه بل الله محيط بكل شيء:

" ألا إنه بكل شيء محيط ". فصلت ٥٤.

ولهذا نهى الشرع المقدس عن التفكير في ذات الله، وأوجب التفكير في

---

[١٧] - بحار الأنوار ج ٣ / ٤١.

[١٨] - بحار الأنوار المجلد السابع عشر.

أفعاله ونعمه حيث أن هذا التفكير سبب لزيادة المعرفة به جلت عظمته.
قال الباقر عليه السلام: تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً[19].
ويقول الصادق عليه السلام: من نظر في الله كيف هو هلك[20].
وقد حاول أشخاص هذا الأمر المستحيل أي التفكير في ذات الله فأدى ذلك بهم إلى الهلاك والإلحاد أي قالوا حيث أننا لم نهتد إلى ذات الله فالله غير موجود.

وهل يصح إنكار شيء لا نعرفه؟

يجب أن يقال لهؤلاء أولاً إن تفكيركم في ذات الله خطأ وطلب للمحال لأن المخلوق لا يمكنه الإحاطة بالخالق أبداً وثانياً: بما أنكم لم تعرفوا ذات الحق تعالى فكيف أنكرتموها في حين أنكم لم تعرفوا ذات وحقيقة كثير من الموجودات ومع ذلك لم تنكروها مثلاً: هل عرفتم إلى الآن حقيقة النور، وحقيقة الأمواج وكيفية الرؤية، والقدرة على التفكير وسائر القوى الباطنية، كل ذلك تعتقدون بوجوده في حين أنكم لا تعلمون شيئاً عن حقيقته، فلو قال لكم شخص: لا عقل لكم ولا فهم، تتأذون منه وتقولون كيف لا عقل لنا، فإن قال: أنا لم أعرف حقيقة العقل حتى أعترف به، فهل تقبلون جوابه.

كيف نؤمن بإله لم نره:

وخلاصة القول إن الإنسان الذي لم يدرك حقيقة كثير من الأمور ومع ذلك يعتقد بوجودها بواسطة آثارها، كيف يأمل أن يدرك حقيقة الله خالق هذه

[19] - الكافي.
[20] - الكافي.

الأمور، وإذا لم يعرفها فإنه ينكر وجوده.
والأسوأ من ذلك ما يقوله بعض الغافلين أصحاب الأفكار المنحرفة: كيف نؤمن برب لم نره؟
ويجب أن يقال لهؤلاء: وهل يصح إنكار وجود العقل والذاكرة وسائر القوى الباطنة حيث أنكم لم تروها أنتم ولا غيركم، وكذا هل يصح إنكار الأجسام الشفافة التي لا ترى بالعين مع أنها تشاهد بآثارها، وأثارها تدل عليها.

عين الإنسان الظاهرية لا ترى إلا الماديات:

يروى أن أبا حنيفة قال ذات يوم لأصحابه أن جعفر بن محمد (الصادق عليه السلام) قال كلمات حيرتني إنه يقول أن الله لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة وكيف يمكن للموجود أن لا يرى.
ويقول: إن إبليس يعذب يوم القيامة بالنار مع أن إبليس هو من نار فكيف يعذب بما خلق منه.
ويقول: إن أفعال العباد تنسب إليهم مع أن القرآن ينسب أفعال العباد إلى الله.
وكان بهلول حاضراً في المجلس فأمسك قطعة طين يابسة وضرب بها رأس أبي حنيفة فسال منه الدم ثم ولى هارباً.
واشتكى أبو حنيفة على بهلول فأحضروه للمحاكمة فقال إنه اعترض على الإمام الصادق ثلاث اعتراضات وأنا أجبته على هذه الإعتراضات بهذه الضربة.
إنه يقول الشيء الموجود لا بد أن يرى وهو يدعي الآن أني آلمت رأسه فليرني الألم، وحيث أن الألم لا يرى فهو يكذب.

ويقول إن الشيطان من نار ولا يمكن أن يعذب بالنار والطين الذي ضربته به تراب وهو من تراب فيجب أن لا يؤلمه.
ويقول: إن فعل العبد ينسب إلى الله، فلماذا اشتكى علي إذن؟
فأطلق سراح بهلول.

انحراف بعض علماء الطبيعة:

هناك قاعدة بديهة هي: " عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود " أي عدم عثورك على شيء لا يدل على أنه غير موجود، ورغم أن هذا بديهي فإننا نجد بعض علماء الطبيعة لأنهم أحرزوا تقدماً ملموساً في مجال تحليل المادة واكتشفوا بعض خصائصها وآثارها المحيرة ونجحوا في اختراعات مدهشة، فقد تملَّكهم الغرور ونسوا هذه القاعدة العقلية البديهية فقالوا: إن عالم الوجود منحصر بعالم المادة التي فهمناها وأخضعناها للبحث والتحليل، وأنكروا عالم الغيب وما وراء الطبيعة واعتبروا الروح والملائكة والجن وغير ذلك من أمور ما وراء الطبيعة أموراً خرافية وزعموا أنه لا وجود لخالق عالم قادر مجرد عن المادة ومنزه عنها، وقد فضحوا أنفسهم بين عقلاء العالم بهذا الإدعاء.

علمنا قطرة في محيط:

الشكر لله أن أكثر علماء الطبيعة خاصة في عصرنا الحاضر القرن العشرين قد اكتشفوا زيف أستار الجهل والغرور هذه وأذعنوا لعظمة الله وقدرته وحكمته واعترفوا ببقاء الروح بعد الموت، وبعالم الجزاء وهم يقولون: إن معلوماتنا كقطرة، ومجهولاتنا تشبه المحيط الكبير اللامتناهي.

معلوماتنا كتصورات نملة:

في الجزء الثاني من تفسير الطنطاوي ص ٤٨ يذكر أسماء عشرين عالماً

كبيراً من علماء الطبيعة يعتقدون بالله والروح والآخرة منهم اسپنسر الإنكليزي الذي هو أكبر فلاسفة هذا القرن، والأستاذ إيلي دوسيون ولهم كتب ومقالات، بهذا الصدد لا داعي لنقلها هنا.
وفي ص ١٦١ ينقل الطنطاوي قسماً من مقالة مطولة للورد أوليفر لورج الإنكليزي يقول فيها:
إن مقدار علم الإنسان بموجودات ما وراء الطبيعة (الأرواح) هو كمقدار علم النملة بحياة الإنسان مثلاً: النملة تمر أسفل عمود التلفون وترى منه بمقدار ما ترى عينها ولكنها لا تعلم أن هذا العمود واسطة لتمديد الأسلاك التلفونية التي هي وسيلة ربط المدن بعضها بالبعض الآخر. وهكذا نجهل نحن عالم الغيب.
وفي الجزء الأول من دائرة المعارف لمحمد فريد وجدي وكتب أخرى ذكر أسماء الكثيرين من علماء الطبيعة الذين آمنوا بالله واعترفوا بالحقيقة.

العلم والتوحيد يجتمعان:

يقول هرشل الإنكليزي وهو من كبار علماء الهيئة: كلما اتسعت دائرة العلم ازدادت البراهين الساطعة على وجود خالق أزلي قادر غير متناه لأن علماء الجيولوجيا والرياضيات والفلكيات وعلماء الطبيعة كلهم متعاونون على إحكام عرش العلم، وهذا العرش ليس إلا عرش عظمة الإله الواحد وليس شيئاً آخر.

قوة أبدية فوق الإنسان:

يقول العلامة الإجتماعي هربرت اسپنسر: إنا ندرك من بين كل هذه الأسرار التي تزداد غموضاً كلما تقدمنا في البحث حقيقة واحدة واضحة وقطعية هذه الحقيقة هي أنه توجد فوق الإنسان قوة أزلية وأبدية هي سبب حدوث كل الأشياء.

تناسب الكائنات مع عظمة الخالق:

" لينه " العالم الفيزيولوجي الفرنسي يقول: إن الله الأزلي العظيم الذي يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء قد ثبت عندي واتضح لي بواسطة بدائع صنعه فأدهشني وحيرني وما أعظم القدرات والحكم والإبداعات التي أودعها تعالى في مخلوقاته صغيرها وكبيرها.

ثم يقول هذا العالم الكبير: المنافع التي نحصل عليها من الكائنات خير شاهد على عظمة رحمة الله الذي سخرها لنا كما أن جمالها وتناسبها يحكيان حكمته الواسعة، وصيانتها من التلف والفساد وتجددها وتطورها، شاهد على عظمته وجلاله.

أقوال موجزة لعلماء آخرين:

يقول العلامة " فونتتل " في دائرة معارفه: ليست أهمية العلوم الطبيعية فقط في أنها تطفيء لهب طموحنا العقلي بل إن أعظم أهمية لها أنها ترشدنا إلى خالق العالم وتغمر أرواحنا بالإحساس بجلاله وعظمته.

ويقول " پاسكال " الفيلسوف المعروف: لا شيء غير الإعتقاد بالله يروي ظمأ روحنا ويطفيء لهيبنا الباطني. ويقول " لامنه ": إن كلمة تقال في إنكار الخالق تحرق شفة قائلها.

ويقول " لوكوردين ": الله هو أشعة التوحيد التي تهب أشعة خلوده الموجودات الحياة وتمدها بالقدرة على الإستمرار.

ويقول " فيو ": الله عالم بكل شيء ويتصرف بكل شيء وهو رب كل شيء يدبر أمور الموجودات ويديرها.

ويقول " جوردن ": الله هو الناموس الأزلي الثابت الذي تستمد جميع الكائنات وجودها وتكاملها منه.
وتنقل دائرة معارف القرن التاسع عشر عن العالم الإقتصادي " پرودن " أنه قال: الله هو تلك الحقيقة التي لا يحدها إدراك ولا وصف، ووجودها رغم ذلك بديهي ولا يمكن إنكاره.
وقال أيضاً: قبل أن تكتشف عقولنا وجود الله فإن قلوبنا تشهد بوجوده ويقول " لامارتين " الشاعر والكاتب الفرنسي الكبير: القلب الخالي من الله كمحكمة بلا قاضي[٢١].
والهدف من نقل نماذج من آراء العلماء الغربيين، هو إلفات الشباب الأعزاء الذين يدرسون علوم هؤلاء ويُكبرونهم إلى أنهم كانوا معتقدين بالله معترفين بوجود الخالق جلت عظمته.

التخلية هي التطهير من الأدران:

التخلية هي أن ينظف الإنسان نفسه ويخليها من كل ما يمنعه عن معرفة الله وينقي مرآة قلبه من الكدورات والأوساخ المعنوية التي أهمها العجب أي أن يعتبر نفسه مستقلاً ويفرح بالموهومات والخيالات والتصورات الخاطئة التي عرفها عن طريق تقليده الآخرين وأن يعتبر نفسه عالماً لأنه يعرف بعض خصائص الأشياء ويفهم بعض الأمور، في حين أن نسبة معلوماته إلى مجهولاته نسبة المتناهي إلى اللامتناهي.
وكيف يمكن أن يعتبر إنسان نفسه عالماً في حين أنه غافل كلياً عن أكثر العلوم بداهة، وأعلاها مرتبة، أي العلم بالله سبحانه وهل يملك هذا

[٢١] - نقلاً عن " فرهنگ، قصص قرآن " / ٣٥٤.

الإنسان إلا الغرور والجهل المركب أي لا يعلم أنه لا يعلم.

علاج العجب:

علاج العجب أن يفكر الإنسان باستمرار في مسكنته وضعفه وعدم استقلاله (في الذات والصفات والأفعال) ويعود بتفكيره إلى الوراء، ويتذكر حالاته الأولى حين كان ذرات متناثرة في العناصر، ثم انتقل إلى صلب الأب ورحم الأم، ثم إلى المهد، وحتى بلوغه الرشد، ووضعه الفعلي ثم يفكر في مستقبله ويتدبره بدقة حتى ساعة الموت، وما بعد الموت، حين يصبح مرة ثانية تراباً وذرات متناثرة كما كان أول مرة " منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ". طه ٥٥.

عندها يرجع إلى نفسه في حالته الفعلية ويتأمل فيها وكيف أن حياته وموته، وسلامته، ومرضه، قدرته وعجزه، شبابه وهرمه، عزته وذلته، وجميع شؤونه، كل ذلك ليس بيده ولا باختياره أي ليس تابعاً إرادته ورغبته، وحتى ذاكرته وفهمه ليس بيده فما أكثر الأمور التي يجب أن يتعلمها ولكنه لا يستطيع، وما أكثر الأمور التي تعلمها ولكنه نسيها، ولا يستطيع تذكرها مهما حاول.

باختصار يجب أن يدرك المعجب بنفسه ضعفه وقصوره من كل الجهات، وكلما تقدم على طريق الإقرار بعجزه ونقصه كلما أصبح مهيئاً أكثر فأكثر لمعرفة خالقه وخالق كل شيء، ومعرفة علمه وقدرته اللامحدودين.

معرفة النفس ومعرفة الله:

ولهذا فسر جماعة من المحققين الحديث النبوي المشهور (من عرف نفسه فقد عرف ربه) بأن من عرف في نفسه الحدوث والفناء والزوال فقد عرف

في الله القدم والبقاء والدوام، من عرف في نفسه الضعف والعجز والجهل فقد عرف في ربه القدرة والإستطاعة والعلم بلا حدود، من عرف أنه مخلوق مربوب مرزوق فقد عرف في ربه الخالقية والربوبية والرازقية، وهكذا.
وبعد التأمل والتدقيق يتضح أن هذا صحيح لا جدال فيه، حيث أن العاقل عندما يعلم أن وجود بدنه ونفسه ورزقه وتدبيره ليس منه أو من شخص آخر مثله يتيقن أن خالقه ومدبره ومربيه ورب جميع أجزاء العالم ومدبرها هو الله سبحانه لا غير.
من أراد أن يتعمق في معرفة الله يجب أن يفكر في هذه النقطة السالفة الذكر كثيراً، ومن المفيد لهذا الهدف قراءة مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام والتأمل في معانيها[٢٢].

لا تعتقد أنك ناج:

سيأتي مزيد توضيح لمرض العجب في مبحث الكبر والعجب من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، ويجب أن يعلم إجمالاً أن الإنسان ما دام يعتبر نفسه مستقلاً ولا رقيب عليه ولا يرى في عالم الوجود إلا نفسه، فلن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في عالم المعرفة وعندما يدرك بنور عقله عدم استقلاله، سيزول عن نور فطرته الحجاب الأعظم، وسيعرف ربه بكل وضوح، ويرجع إليه.
وما دام الإنسان يعيش في عالم العجب محجوباً عن عالم المعرفة فأبسط

[٢٢] - إليك بعض فقراتها: مولاي يا مولاي أنت الحي وأنا الميت وهل يرحم الميت إلا الحي، مولاي يا مولاي أنت الباقي وأنا الفاني وهل يرحم الفاني إلا الباقي، مولاي يا مولاي أنت الدائم وأنا الزائل وهل يرحم الزائل إلا الدائم، مولاي يا مولاي أنت الرازق وأنا المرزوق وهل يرحم المرزوق إلا الرازق (مفاتيح الجنان أعمال مسجد الكوفة).

الأمور أن لا يعتقد أنه اهتدى طريق النجاة.

اتباع الهوى والأماني الكاذبة تحول دون معرفة الله:

بشكل عام فإن اتباع الهوى والركض وراء الأماني الشيطانية والإفراط في اللذة الحيوانية كالتخمة والإكثار من النوم، والثرثرة – كثرة الكلام – هي عموماً حجب تغطي نور الفطرة الإنسانية وتجعل الإنسان في غفلة عن الله وتسبب مرض القلب والنفس، والإفراط في بعض هذه الأمور إذا تسبب بضرر البدن ضرراً يعتد به العقلاء فهو حرام وإلا فمكروه، عن الصادق عليه السلام:

النظرة سهم مسموم من سهام إبليس وكم من نظرة أورثت حسرة طويلة[٢٣].

فعندما تكون النظرة الحرام سهماً مسموماً من سهام الشيطان يصيب قلب الناظر ونفسه فما هو حال الذنوب الأكبر والأشد يا ترى؟ وما هو حال الشخص الذي يقضي يومه وهو يلوث نفسه بذنب النظر الحرام وما هو حجم مرضه القلبي؟ وبعد كل هذه الممارسات القبيحة والتلويث لنفسه كيف سيشرق نور الفطرة فيه ليتذكر الله، العين الملوثة النظرات محجوبة عن وجه المعشوق أنظر إلى وجهه من مرآة صافية[٢٤]. وكيف يمكن أن يدرك الحقيقة بقلب استقر فيه السهم أم كيف يستطيع أن يرى الحق ويعرف الله؟ اللهم إلا إذا شملته العناية الإلهية، وتندم على ما فعل وتحسر فأحرقت نار الحسرة الحجب التي اكتنفت قلبه وغسله ماء التوبة.

اغتسلت بالدمع غسل العاجز إذ يقول أهل الطريقة تطهر أولاً ثم انظر إلى ذلك الطاهر[٢٥].

---

[٢٣] - سفينة البحار ج ٢ / ٥٩٦.

[٢٤] - مضمون بيت شعر فارسي.

[٢٥] - مضمون بيت شعر فارسي.

وباختصار إن كل ذنب يرتكبه الإنسان حتى إذا كان صغيراً فإنه يغطي من نور فطرته بقدره ويغبش مرآة قلبه ويحجب رؤيته ومعرفته بالله ويبعده عنه سبحانه، والشواهد على هذا كثيرة من الآيات والروايات، من جملة ذلك في سورة المطففين يقول تعالى: " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ". المطففين ١٤ – ١٥.

وفي سورة الروم يقول تعالى: " ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ". الروم ١٠.

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: " ما من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب خرج في تلك النكتة نكتةٌ سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد، فإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى الخير أبداً وهو قول الله عز وجل: " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون[٢٦] ".

وعن الصادق عليه السلام قال: وكان أبي يقول ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله[٢٧] ".

وإذا أصبح أعلى القلب أسفله فلا يستقر فيه حق أبداً ولا يقبل نصيحة، ولا يعترف بحقيقة.

أخطر أمراض القلب:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: لا وجع أوجع للقلوب من الذنوب ولا

---

[٢٦] - أصول الكافي.
[٢٧] - أصول الكافي، باب الذنوب.

خوف أشد من الموت وكفى بما سلف تفكراً وكفى بالموت واعظاً[28].
ويقول عليه السلام: إنما أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الأمل أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة[29].

الآمال تحجبنا عنك:

يقول الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي: وأن الراحل إليك قريب المسافة وأنك لا تحتجب عن عبادك إلا أن تحجبهم الأعمال (الآمال) دونك.
إن الراحل إليك قريب المسافة لأن طريق الله هو طريق القلب، ولا شك في أن المخلوق الذي يعبد مولاه ويكون على اتصال دائم به، فإن خالقه أقرب إليه من كل أحد ومن كل شيء...
وإنما هي الأعمال والآمال تزرع الحجب بين الله وعباده وتمنعهم من رؤيته.
الصاحب أقرب مني إليّ والأعجب أني بعيد عنه[30].

الملهيات تصرفنا عن ذكر الله:

مما تقدم يعلم أن أهم عقبة تحول بين العبد وربه هي العجب واتباع الهوى والنزوات، بل جميع الذنوب الجسمية والقلبية حجب وعقبات تمنع القلب من معرفة الله.

---

[28] - المصدر السابق.
[29] - نفس المصدر، باب اتباع الهوى.
[30] - مضمون بيت شعر فارسي.

وإذا نظرنا في أحوال مجتمعنا اليوم نعلم أن عدم الإيمان والبعد عن الله المخيمين على المجتمعات البشرية ليس لهما من سبب إلا إشاعة الفحشاء وإشاعة المنكرات واتباع الشهوات وأنواع الملاهي أي التي تتسبب بغفلة الإنسان عن الله والآخرة كدور السينما وسائر ما يحرك الشهوة في الإنسان، بحيث يصبح الإنسان حيث اتجه لا يرى إلا أسباب الغفلة ولا يسمع سواها، ويصبح هم جميع الناس الحصول على مستوى مترف من العيش مليء بالكماليات والتجملات والنفع والإدخار وحب الجاه.

ويبذل الجميع جهوداً مضنية ولكن من أجل الوصول إلى أهداف دنيوية زائلة.

أضعنا الطريق:

إنهم فرحون مغتبطون عندما يحققون رغبة مادية، ومحزونون موَلولون عندما يصيبهم مرض دنيوي، يتذكرون كل شيء إلا الله، يبذلون الجهد ويتحملون المشقات للحصول على رغباتهم المادية، أما في مجال المعنويات فكأنهم لا علم لهم بها، تراهم يشْكون لفقد أي شيء، إلا لفقدهم صفات الإنسانية، يجتنبون كل خطر ويفرون منه، إلا خطر الذنب والضرر الأخروي تراهم متيقظين حذرين فيما يتعلق بزيادة ثروتهم وممتلكاتهم الدنيوية ولكنهم غافلون تماماً عن ثروتهم الأبدية ورأس مالهم الحقيقي الذي هو الإيمان، إنهم لا يفكرون به أبداً ولا يخشون نهائياً أن يقل ويتضاءل، وأن يموتوا غير مؤمنين.

والعجيب في هؤلاء أنهم مع هذه الصفات يشكون باستمرار ويئنون من ضغط الحياة عليهم، وهم يعانون من أنواع الأمراض النفسية والجسدية باستمرار، وليست المستشفيات فقط هي التي ملئت بهم، بل إنهم لم يدعوا

مكاناً في دور المجانين أيضاً وعدد مرضاهم في ازدياد دائم، ومع ذلك فإنهم لا يقلعون عن اتباع الشيطان ولا يتوبون ولا يذكرون الله الذي هو شفاء كل ألم، ولا يعالجون اضطراب قلوبهم وحيرتها وهلعها بذكر الله حتى يدخلوا وادي الأمن وينعموا به.
" ألا بذكر الله تطمئن القلوب ". الرعد ٢٨.
حقاً إن أحوال الناس اليوم كما وصفها أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: " وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً، ولا الشر فيه إلا إقبالاً، ولا الشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً، فهذا أوان قد قويت عدته، وعمّت مكيدته، وأمكنت فريسته (أي استسلم الناس لاصطياد الشيطان لهم بحيث أنه يصطادهم بكل يسر) أضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً (أي فقيراً لا يصبر على فقره) أو غنياً بدَّل نعمة الله كفراً (أي أن الغني لا يؤدي حق شكر النعمة بأن يصرف ماله في مرضاة الله على الفقراء بل يصدر منه ما يدل على كفران النعمة).
أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً (اتخذ البخل طريقاً لزيادة ثروته) أو متمرداً كأنَّ بأذنه عن سمْع المواعظ وقراً[٣١] ".

هل يجب اجتناب الناس:

وقد يسأل سائل عندما يكون وضع المجتمع هكذا، وتصبح العقبات التي تحول بين الإنسان ومعرفة الله كثيرة لا تحصى فماذا يفعل من يريد المعرفة، والوصول إلى مرتبة اليقين وتأمين آخرته؟ هل يجتنب الناس ويعيش وحيداً ويترك الكسب والعمل، ويترك جميع اللذائذ، أم يتبع من يدّعون

---

[٣١] - نهج البلاغة خ – ١٢٩.

" الإرشاد " من فرق الصوفية؟

شرور النفس والعزلة أكثر:

والجواب: ليس هذا طريق معرفة الله والوصول إلى منزلة الإنسانية، إن العقل والشرع يرفضان هذا المسلك، هل من الممكن يا ترى أن تكون العزلة سبباً للإيمان والعلم والتحلي بالفضائل، وهل أن فرار الشخص من الناس، واختياره العزلة يخلصه من الشر في حين أن منبع كل شر أي النفس والشيطان هما معه دائماً، وما لم يتطهر ويترك (بالتفصيل الذي سيأتي) فلن يصدر منه إلا الشر.

إذا كنت ملتزماً بمضمون الصلاة والصوم فيجب أن تجد حلاً لنفسك المكارة[٣٢] ".

بل إن اختيار العزلة هذا عندما يكون وفقاً لهوى النفس ورغبتها هو عين الشر.

إحذر اتباع النفس التي هي أخطر على سالك طريق الله من غول الصحراء[٣٣].

صلاة الجماعة والحج شعار الإسلام:

أعظم الفرائض الإلهية، الصلاة، وهي ينبغي أن تؤدى جماعة، وفي سورة البقرة يأمر الله سبحانه صراحة بذلك: " واركعوا مع الراكعين ". البقرة ٤٣، ويلي الصلاة الحج الذي يجب أن يجتمع له الناس في وقت خاص لأدائه مجتمعين، وإذا تأملنا جيداً في الخيرات التي يعود بها التجمع

---

٣٢ - مضمون بيت شعر فارسي.

٣٣ - مضمون بيت شعر فارسي.

والإختلاط بالناس لوجدنا أن شيئاً منها لا يتحقق عن طريق العزلة.
ثم إن اتباع من يدعي مرتبة الإرشاد من فرق الصوفية لا يعود على صاحبه إلا بالضرر والضلال، ذلك أن هذا الداعي هو نفسه لم يصل بعد إلى درجة اليقين وما يزال أسير النفس وكيف يستطيع طالب مقام وشهرة وكثرة أتباع ومريدين أن يرشد غيره ويحرره من قيد النفس " أعمى صار يقود أعمى آخر ".

إذن، ما العمل:

يجب أن نعلم أن الخالق العليم والحكيم الذي يعلم داء عباده ودواءهم أحسن منهم قد أضاء طريق النجاة بواسطة أنبيائه وأوصيائهم ولم يترك عباده هملاً، بل أمرهم أوامر وعين لهم واجبات بحيث أن كل كلمة يقولها الإنسان أو نظرة ينظرها أو لقمة يبتلعها، أو مكان يذهب إليه أو يجلس فيه، أو شخص يتعامل معه، لكل ذلك، ولكل حركة وسكون قد جعل الله حكماً من الأحكام الخمسة: (الحرام، الواجب، المستحب، المكروه، المباح) حتى التخلي قد ذكرت أحكامه، كما هو مذكور في الرسائل العملية.

تطبيق أحكام الدين:

على هذا، فإن واجب الجميع أن يقدروا نعمة الله ويشكروها وينعموا بها، وذلك بتعلم أحكام الدين أولاً (بطبيعة الحال ما هو محل الإبتلاء بالدرجة الأولى) وبعدئذٍ يحملون أنفسهم على تطبيق ما تعلموه، أي أن لا يفوت الإنسان المتعلم واجب ولا يرتكب حراماً ولا يقصر في ترك المكروهات وفعل المستحبات، بمقدار استطاعته.
ومن المؤكد أن الشخص الذي يحيط علماً بأمر الدين ويعمل به سوف لن يتلوث لوجوده في هذا المجتمع الملوث، بل إن التلوثات والأدران الموجودة

في نفسه ستزول و" تزكية النفس بإكسير[٣٤] الشرع حتمية " بل إنه ببركة الشريعة المقدسة لن يجد أمامه إلا طريق تزكية النفس والتفصيل في هذا يستدعي الإطالة وكنموذج تذكر هنا بعض الأحكام:

الإغتسال خمس مرات في اليوم والليلة:

مثلاً: من الأحكام الإلهية الصلوات الخمس في أوقاتها الصبح، الظهر، العصر، المغرب، العشاء فمن واظب عليها وأداها أول وقتها مراعياً آدابها والشرائط، وخصوصاً الجماعة يطهر من الأدران التي تصله من المجتمع بين أوقات الصلاة.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن " مثل المواظب على أوقات الصلوات الخمس كمثل من يغتسل من اليوم والليلة خمس مرات[٣٥] "، فهل يرى في بدنه وسخ كذلك قلب المصلي.

لكل حكم أثره الخاص:

وكالصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، وسائر الواجبات فإن لكلٍّ منها أثره الخاص في تزكية النفس وعلاج مرض القلب الذي لا يوجد، في الحكم الآخر، بحيث أنه إذا أدى كل الواجبات إلا واجباً واحداً فإنه يحرم من خاصية ذلك الواجب ويظل مبتلى بمرض القلب ومعذباً بمقدار ذلك الواجب الذي تركه ولن يعوضه عن ذلك شيء.

---

[٣٤] - الإكسير مادة لها تأثير سحري قيل إنها تحول المعدن إلى ذهب وهو أيضاً اسم شراب قيل إنه يطيل الحياة.

[٣٥] - لم أجد هذا الحديث، وهناك عدة أحاديث بمضمونه في ميزان الحكمة ج ٥ / ٣٧٣ ومن لا يحضره الفقيه ج ١ / ٢١١ ومستدرك الوسائل ج ١ / ١٦٩.

كما أن في ترك كل حرام حيلولة دون مرض القلب وتلوث النفس والإبتلاء بعذاب الآخرة.

ذكر الموت يطهر القلب:

وفي القيام بكل مستحب أيضاً أثر في تزكية النفس ليس موجوداً في المستحب الآخر وهو أيضاً يوجب الثواب والأجر الأخروي، وفي تركه حرمان لا يعوض مثلاً: من المستحبات التي هي تزكية للنفس وإزالة للعقبات التي تمنع من معرفة الله كثرة ذكر الموت، في خطب أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة تجد أن الخطب التي لم يأمر بها سلام الله عليه بذكر الموت قليلة جداً من ذلك قوله عليه السلام:

أوصيكم بكثرة ذكر الموت وإقلال الغفلة وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم.

ويقول عليه السلام في رسالته لعامله على مصر محمد بن أبي بكر:

فأكثروا ذكر الموت عندما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات، وكفى بالموت واعظاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يوصي أصحابه بذكر الموت ويقول:

أكثروا من ذكر الموت فإنه هادم اللذات حائل بينكم وبين الشهوات.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي المؤمنين أكيس قال: أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم له استعداداً[٣٦].

وستذكر خواص تذكر الموت في بحث قسوة القلب وعلاج ذلك إن شاء الله.

---

[٣٦] - الكافي.

أكلك ونومك يبعدانك عن مرحلة العشق:

واجتناب المكروهات هو أيضاً لمنع تلوث النفس ومرض القلب فمن يفعل مكروهاً يترك ذلك فيه أثراً سيئاً (طبعاً لا يكون بمقدار أثر الحرام) ويوجب قلة الأجر والثواب الأخروي، مثلاً من جملة المكروهات التخمة، كثرة الأكل وإدخال الطعام على الطعام، هذا فيما إذا لم يكن مضراً ضرراً يعتد به وإلا يصبح حراماً، وكذا كثرة النوم وكثرة الكلام (فيما إذا لم يكن الكلام محرماً وإلا فإن الكلمة الواحدة منه حينئذٍ حرام).

يقول تعالى في سورة الأعراف: " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ".
الأعراف ٣١.

ويقول الصادق عليه السلام: إن الله يبغض كل أكول نؤوم[٣٧].

ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: وعليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك[٣٨].

والروايات كثيرة في ذم الإفراط في الأكل والنوم وكثرة الكلام، وكذلك في مدح الإعتدال في كل منها، وإجمالاً يجب العلم أن للإعتدال في كل منها (الأكل، النوم، الكلام) تأثيراً كبيراً في طهارة القلب وتزكية النفس وإشراق نور الفطرة، وبالإضافة إلى هذا فإن التجربة والوجدان أكبر شاهدين على صحة هذا الكلام.

---

[٣٧] - فروع الكافي.
[٣٨] - سفينة البحار ج ٢ / ٥٠.

الصلاة وقت السحر ولذة المناجاة:

أيها القاريء العزيز جرب واقتصد في طعامك ونومك واستيقظ وقت السحر وصلّ بضع ركعات، وانشغل بمناجاة خالقك والتضرع إليه، ولا تكتف بليلة وليلتين بل اجعل ذلك عادتك، عندها ستدرك قرب الله وتتذوق حلاوة ذكره، وستفهم إلى حد ما معنى المقامات الروحية.

اقتصد قليلاً في النوم والأكل واحمل هدية للقائه.

صر قليل النوم " مما يهجعون " وكن ممن هم " بالأسحار يستغفرون[٣٩] ".

إحياء الليل وصوم النهار سلاح المؤمن:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: " ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله من النفس والهوى وليس لقتلهما سلاح وآلة مثل الإفتقار إلى الله والخشوع والجوع والظمأ بالنهار والسهر بالليل[٤٠] ".

" إحذر اتباع النفس فهي أخطر على سالك طريق الله من غول الصحراء ".

صعب ولكنه يستحق:

تزكية النفس أي تطهير الإنسان نفسه من أنواع الأدران المعنوية طبق أوامر الشرع المقدس كما تقدم باختصار، وإن كان صعباً على النفس وعزيزاً عليها

---

[٣٩] - مضمون بيتين من الشعر الفارسي.

[٤٠] - سفينة البحار ج ٢ / ٦٠٣.

ولكن، بما أنه الطريق الوحيد للسعادة[٤١] والوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحياة الإنسانية الطيبة[٤٢] فيجب على الإنسان تحمل أنواع الصعوبات وبذل الجهود للحصول على ذلك، على أمل أن يحصل على السعادة الأبدية.

" بدون المشقة لا يمكن الحصول على الكنز، وحقك يا أخي إن من يعمل يأخذ الأجرة ".

ومن الطبيعي أن الإنسان عندما يحصل على فوائد هذا الطريق ويتذوق لذائذه من الحياة الطيبة والثواب الإلهي في الآخرة فستعوض عليه كل تلك المشقات التي تحمل والصعوبات التي اجتاز.

التحلية، بالفكر والذكر:

بعد إزالة العقبات التي تمنع من معرفة الله تجب المواظبة على شيئين: التفكير، والذكر.

يقول تعالى في سورة آل عمران: " إن في خلق السموات " (والكواكب التي تظلنا بأسرارها وعجائبها) و (في خلق) " والأرض " (التي نعيش عليها بما فيها من عجائب المخلوقات) " واختلاف الليل والنهار " (وفق هذا النظام الثابت) " لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم " (أي يذكرون الله في جميع حالاتهم وعلى جنوبهم تعني حالة النوم والإستراحة) " ويتفكرون في خلق السموات والأرض " (فيدركون أن هذا العالم العظيم لم يخلق عبثاً بل خلق لهدف سامٍ هو وصول الإنسان إلى مقام المعرفة والعبودية ومن ثم إلى السعادة الأبدية) ويقولون:

---

[٤١] - " قد أفلح من زكاها ". الشمس ٩.

[٤٢] - " فلنحيينه حياة طيبة ". النحل ٩٧.

" ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك " (أنت منزه عن العبث) " فَقِنا عذاب النار " (ودلنا على طريق المعرفة وثبتنا عليه).
ويقول تعالى: " أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ". الروم ٨.
والمراد بقوله تعالى: " إلا بالحق " أي أن الله سبحانه لم يخلق السموات والأرض إلا لهدف ثابت لا يمكن أن يتغير، كما أن المراد بقوله تعالى: " وأجل مسمى " أي أن هذا العالم يستمر مدة يعلمها الله ثم يفنى، فعالم الآخرة هو الذي لا يفنى.

التقدم الدنيوي والتأخر المعنوي:

أيها القاريء العزيز: تأمل جيداً في هذه الآية الشريفة: " يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ". الروم ٧.
أليس أكثر الناس اليوم كذلك، كل علومهم تنصبّ على عالم الدنيا والحياة المادية، وقلما تجد موضوعاً لم يحرزوا فيه تقدماً مذهلاً.
مثلاً: في علم الزراعة، وعلم النبات، وصلوا إلى حد الكمال، في علم الطب والجراحة، وطريق تشخيص المرض والدواء لبدن الإنسان، أحرزوا تقدماً هائلاً بحيث يمكنهم إجراء عملية جراحية للقلب أو استبداله.
وفي مجال اختراع لوازم المعيشة وتأمين وسائل الراحة، ابتكروا أشياء لم تكن تخطر لهم على بال.
وقد تجاوزوا الأرض لتسخير الفضاء وقطعوا مسافة أكثر من ثلاثمائة وعشرين واثنين وعشرين ألف كيلومتراً وحطوا على سطح القمر.

ولكن يا للأسف، بالرغم من كل هذه العلوم عن ظاهر هذا العالم فإنهم يجهلون كل شيء عن باطن العالم وخالقه، وهم لا يعتقدون بفناء هذا العالم وزواله، رغم أن العلماء في هذا العصر وصلوا إلى هذه الحقيقة وقالوا إن للأرض أجلاً وعمراً تتلاشى بعده، وقالوا إن منظومتنا الشمسية هي الآن في سن الشيخوخة والهرم.
وأوضح من هذا كله فناء كل فرد، فلا بقاء لأحد هنا، ولكن هذا لا يؤثر في قلوبهم حتى يبعثهم على التفكير بحياة ما بعد الموت.

إذن، هناك عالم آخر:

إنهم لا يفكرون أيضاً أن خلق هذا العالم المليء بالحكمة إنما هو لهدف مهم ونتيجة ثابتة وهي أن بعد هذا العالم الفاني عالم باقٍ خالد، وما إن يتخلص الناس من هذا العالم المزعج فإنهم يردون ذلك العالم ويبلغون منتهى السعادة أي أنهم يصلون إلى الراحة التي لا تعب بعدها، واللذة التي لا حرمان بعدها والسرور الذي لا حزن بعده.

عالم الخلق، لمعرفة الحق:

الخلاصة إن على الإنسان أن يفكر في عظمة الكون في السموات والأرض وما فيهما[٤٣]، كي يدرك أن خلق كل جزء صغير من أجزاء الوجود إنما أوجد لحكمة، إذن فكل عالم الوجود قد أوجد لحكمة مهمة.
ولأجل معرفة هذه الحكمة يجب الرجوع إلى كلمات الله والرسول وأهل البيت عليهم السلام.

[٤٣] - " قل انظروا ماذا في السموات والأرض ". يونس ١١٠.

عالم الوجود مخلوق للإنسان والإنسان مخلوق لمعرفة الله وعبادته، والمعرفة والعبودية بمثابة جناحين يحلق بهما الإنسان في العالم العلوي للوصول إلى الحياة الطيبة التي فيها لذائذ وبهجات لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب بشر.

" فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون "[44]. السجدة ١٧، وبعبارة أخرى إن الهدف من خلق الله الإنسان والعالَمَيْن الفاني والباقي:

أولاً وبالذات إظهار الصفات الجمالية (أي قدرة الله اللامتناهية وفضل وجوده وكرمه)، وسيتجلى ذلك بصورة كاملة في جزاء أهل الإيمان والخير من البشر في عالم الآخرة وما هو في الدنيا من ذلك ليس إلا نموذجاً.

ثانياً وبالعرض: ظهور الصفات الجلالية للحق تعالى أي العدل الحقيقي والقهارية الشديدة الذي يتجلى بصوره كاملة في جزاء الأشرار والكافرين من البشر ويذكر مزيد توضيح لهذا المطلب في مكانه المناسب.

والآيات القرآنية في الأمر بالتفكير والتعقل والنظر والتدبر كثيرة، إلا أنه يكتفى بما ذكر.

التفكير في الخلق أفضل العبادات:

" كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: نبِّه بالتفكر قلبك.... "[45].

ويقول الصادق عليه السلام: أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي

[44] - للشيخ البهائي عليه الرحمة بيان جميل لشأن الإنسان في عالم الوجود والمرتبة التي يجب أن يصل إليها حيث يقول: (شعراً بالفارسية وهذه ترجمته)
" يا مركز دائرة الإمكان ويا زبدة عالم الكون والإمكان ".
" أنت ملك الجواهر الناسوتية وشمس المظاهر اللاهوتية ".
" حتى م تبقى بسبب العلائق الجسمية في بئر الطبيعة ".
" إلى كم تقنع في التربية البدنية بالخزف بدلاً من الدر العدني ".
" مائة ملك تنتظرك وترنو إليك فاخرج من البئر يا يوسف مصر ".
" عندها ستصبح والي مصر الوجود وسلطان سرير (عرش) الشهود ".
" أنت بعيد عن المعارف العقلية مغرور بزخارف عالم الحس ".
" لا يخطر لك الموطن الأصلي ببال مسرور دائماً باللهو واللعب ".
" ثب إلى رشدك لحظة وانظر أي شخص أنت بماذا تعلق قلبك ومن تصاحب ".

[45] - أصول الكافي – باب التفكر، ج ٢.

قدرته[٤٦].
وعن الرضا عليه السلام: ليس العبادة بكثرة الصلاة والصوم إنما العبادة في التفكر في أمر الله[٤٧].
وعن الصادق عليه السلام أيضاً: كان أكثر عبادة أبي ذر رحمه الله التفكر والإعتبار.
تفكر ساعة خير من عبادة سنة " إنما يتذكر أولو الألباب[٤٨] ".
لعل معنى هذا الحديث أن تفكير ساعة في صنع الله قد تكون نتيجتها معرفة لا يمكن أن يبلغها الإنسان من عبادة سنة بدون تفكر[٤٩] ويقول أمير

---

٤٦ - أصول الكافي – باب التفكر، ج ٢.
٤٧ - نفس المصدر.
٤٨ - البحار ج ١٥ / ١٩٥.
٤٩ - للشيخ البهائي عليه الرحمة بيان حول هذا الحديث ونظائره خلاصته أن العبادة توصل إلى ثواب الله، أما التفكر فيوصل إلى الله تعالى وفرق كبير ما بين يوصل إلى الله وما يوصل إلى ثوابه عز وجل.

المؤمنين عليه السلام:
ولو فكروا في عظيم القدرة وجسم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق.
أي لأدركوا أن وراء هذا العلم عالم جزاء وثواب وعقاب، ولخافوا منه.

الطرق المتعددة للتفكر:

عن أمير المؤمنين عليه السلام: التفكر يدعو إلى البر والعمل به.
يقول العلامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه في شرح هذا الحديث: كأن التفكر المذكور في هذا الحديث يشمل جميع أنواع التفكير السليم كالتفكير في عظمة الله الذي يدعو الإنسان إلى طاعة الله وخشيته، وكالتفكير في فناء الدنيا ولذاتها الذي يدفع الإنسان إلى تركها وكالتفكير في عاقبة من مضى من الصالحين فإنه يدفع الإنسان إلى الإلتزام بنهجهم واقتفاء أثرهم، وكالتفكير في عاقبة المذنبين الخاطئين فإنه يدفع إلى اجتناب أعمالهم وكذلك التفكير في آفات النفس البشرية وعيوبها فهو يدفع إلى إصلاحها.
وكالتفكير في أسرار العبادات وأهدافها فإنه يحمل على أدائها بشكل أفضل، وكالتفكير في درجات الآخرة وعليين، الذي يُرغِّب الإنسان في العمل للحصول عليها، وكالتفكير في الأحكام والمسائل الشرعية الذي يدعو الإنسان إلى العمل به، وكذلك التفكير في الأخلاق الحميدة الذي يدعو الإنسان إلى تحصيلها والتحلي بها[٥٠] ... ".

---

[٥٠] - مرآة العقول، ج ٧ / ٣٤٢ بتصرف.

أين الماضون؟:

يقول الحسن بن صيقل: سألت أبا عبد الله عليه السلام عما يروي الناس أن تفكر ساعة خير من قيام ليلة قلت كيف يتفكر قال عليه السلام يمر بالخربة أو بالدار يقول أين ساكنوك؟ أين بانوكِ؟ ما لك لا تتكلمين؟[٥١].

ومما تقدم يعلم فضل التفكر ودرجاته وأنواعه، وحيث أن التفكير هو الطريق الوحيد لمعرفة الله يذكَّر هنا بطريقة التفكير باختصار:

طريق التفكير ومعرفة الله:

كل موجود يراه الإنسان صغيراً كان أم كبيراً[٥٢]، يجب أن يلتفت إلى كيفية كونه آية ودليلاً على وجود الله، بأن يفكر الإنسان بأن لكل ظاهرة موجد، ولكل متحرك محرك، وحيث أنه يرى أن لكل موجود منافع وهدفاً،

---

[٥١] - الكافي باب التفكر ج ٢.

[٥٢] - " ڤولتر " أشهر الفلاسفة والكتاب الفرنسيين (١٦٩٤ – ١٧٧٨) الذي يعتبر من أكبر العقول البشرية، يقول في كتابه " القاموس الفلسفي ":

الطريق الطبيعي للوصول إلى معرفة الله وأفضل الطرق لتنمية المدارك والمشاعر العامة هي أن لا نحصر تأملنا وتفكيرنا بنظام الخلق والإيجاد بل نوجه فكرنا وذهننا إلى الأهداف والحِكَم التي خلق لأجلها كل من الموجودات ويضيف:

عندما أنظر إلى الساعة التي يدل عقربها الصغير على الأوقات المختلفة، أصل حتماً إلى نتيجة هي أنه قطعاً هناك عقل وفكر رتب عجلات هذا الجهاز بحيث يستطيع العقرب بسب ذلك النظم والترتيب تعيين الساعات المختلفة.

كذلك عندما أنظر في أعضاء البدن أصل إلى مثل هذه النتيجة وهي أنه قطعاً هناك عقل نظم هذه الأعضاء والأجزاء والأجهزة وجعلها جاهزة للحياة.

" فرهنگ قرآن " ٣٥٦.

فيعلم أن صاحب هذا العالم ذو إرادة وعلم وقدرة لا متناهية، خصوصاً إذا كان التفكير بالموجودات ذات الإرادة والعلم والقدرة كالحيوانات أو ما فوقها وهو الإنسان.
هل يا ترى يعقل أن يكون الإنسان – وهو ظاهرة من ظواهر الكون – ذا إرادة وإحساس، ثم يكون خالقه فاقداً للإرادة والإحساس، في حين أن هذه الإرادة والإحساس من الظواهر التي خلقها خالق هذا الكون سبحانه.

نظرة على أجزاء ساعة:

مثلاً الساعة التي تشتمل على أجزاء دقيقة مختلفة الأحجام بما في ذلك العقارب ولوحة الأرقام، وكل جزء منها صغير أم كبير له خاصيته بحيث إذا لم يكن يختلّ عمل الساعة ويتوقف هذا الجهاز كله، هل يستطيع عاقل أن يقول إن صانعها لم يكن يمتلك الإرادة والشعور، إن هذا غير معقول، فكل عاقل يتيقن عند رؤية الساعة أن صانعها حي مريد وقادر، وسوف لن يعتريه في هذا أدنى شك.

هل أجهزة البدن أقل أهمية من الساعة:

هنا نقول: هل أن بدن الإنسان بما فيه من أجهزة مدهشة: التغذية، الهضم، التصفية، النمو، الإنتاج، الدم، القلب، الكبد، الكلية، السمع، البصر وأعجب من ذلك كله جهاز الذهن ومركز الإدراك و.. هل هذا كله أقل أهمية من جهاز ساعة، ألا يجب أن يتيقن الإنسان العاقل لدى التأمل أن صانع هذا البدن ذو إرادة وشعور وقدرة لا متناهية هذا بالرغم من أن هذه الساعة وأمثالها هي أيضاً من صنع الله قال تعالى:

" والله خلقكم وما تعملون ". الصافات ٩٦.
لأن الأجزاء الأصلية لكل شيء يصنعه البشر هي مما خلق الله سبحانه بالإضافة إلى أن الإرادة والشعور والفهم والقدرة التي اعتمدها الإنسان في صناعته هي أيضاً مخلوقات الله.

نظرة عادة لا عبرة:

كل ما في الأمر أن الإنسان عندما يولد ويبدأ يرى الموجودات لا يكون قد امتلك بعدُ القدرة على التمييز، والعقل، حتى يستطيع أن يعرف الله بواسطتها، وعندما يبلغ مرحلة التمييز والعقل، تتملكه عادة رؤية هذه الموجودات طيلة سنين دونما اعتبار بها، فيصبح أسيراً لهذه العادة ويصبح نظره إلى الأشياء لا يرشده إلى وجود خالق عظيم عالم قدير، باختصار يصبح نظره إليها نظر عادة لا عبرة.
يدلنا على ذلك أن الإنسان إذا رأى شيئاً لم يره من قبل تراه يقول مباشرة " الله أكبر " ما أعجب هذا المخلوق، في حين أنه هو أعجب.
والخلاصة أن واجب الإنسان بعد أن يبلغ مرحلة العقل أن يعتبر بكل ما يراه ويتنبه لدلالته على وجود الله وعظمته وقدرته وعلمه.
" وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها غافلون ". يوسف ١٠٥.
ما أكثر الآيات التي يعرض الناس عنها فلا يعرفون الله من خلالها.
يجب التأمل بدقة في كتاب الوجود ليدرك الإنسان عظمة الله ووحدانيته.
" من كانت روحه متجلية فإن كل العالم لديه كتاب الحق تعالى ".

إقرأ " توحيد المفضل":
لكي تتعلم طريقة التفكير في آيات الله وتتدرب عليها، اقرأ الكتاب الشريف " توحيد المفضل " الذي يشتمل على حديث الإمام الصادق عليه السلام على أربعة مجالس في بيان آيات الله في السماء والأرض وما فيهما، وبيان علائم قدرة الله وعلمه في خلق البشر، ولزيادة البصيرة في طريق التفكير تذكر هنا عدة قصص:

قصة السلطان الكافر والوزير المؤمن:
يحكى أنه كان في قديم الزمان ملك كافر وكان له وزير موحد مؤمن وذات يوم فكر الوزير بطريقة لهداية الملك وحمْله على التفكير، فأمر بإقامة بناء فخم في صحراء مقفرة، وأمر أن تغرس حوله أنواع الشجر والورود، وبعد اكتمال البناء والغرس، مر الملك والوزير في طريقهم إلى الصيد بالقرب من ذلك البناء، فتعجب السلطان وسأل من بنى هذا؟ لقد مررت من هنا كثيراً وما رأيت بناء؟..

فقال الوزير لعله وجد صدفة دون أن يبنيه أحد..

فقال الملك: وهل هذا ممكن أو معقول؟

قال الوزير: نعم فهنا مجرى السيل ولعل السيل اقتلع الصخور من الجبال، وتكسرت في الطريق، واقتلع الأشجار من الغابة فتقطع بعضها ليصبح أبواباً وبقي البعض الآخر سالماً لينغرس هنا، والطين احتمله السيل، وعندما وصل الجميع إلى هنا، انتظم هذا البناء بهذا الشكل.

فقال السلطان: ما من عاقل يقبل بهذا الكلام. إن هذا البناء يشهد بأن مهندساً ومعماراً مدركين عاقلين بنياه.

يجب أن تبحث عمن بنى هذا البناء هنا.
قال الوزير: أنت تقول إن العاقل لا يمكنهُ التصديق بأن بناء كهذا وجد من غير صانع مدرك وعاقل، فهل هذا البناء أكثر أهمية من بناء جسدي وجسدك وسائر الناس والحيوانات وأنواع النباتات، وعالم الوجود بهذا النظام البديع المحير، فهل يا ترى يمكن لعاقل أن يقول إن هذا كله وجد صدفة، وأن ليس له علة ومُنشيء مريد، عالم، إرادة وعلماً غير محدودين.
وهكذا استطاع الوزير بهذا العرض الطريف أن يحرك فطرة الملك فأشرق نورها في نفسه وعرف به ربه.

مناظرة علي بن ميثم مع ملحد:

ينقل الشيخ المفيد أن أبا الحسن علي بن ميثم من علماء الشيعة في عصر المأمون دخل ذات يوم على الحسن بن سهل وزير المأمون وإلى جانبه ملحد قد عظّمه والناس حوله فتألم ابن ميثم لذلك وقال للوزير:
" لقد رأيت ببابك عجباً، قال: وما هو؟ قال رأيت سفينة تعبر بالناس من جانب إلى جانب بلا ملاح ولا ماصر (حبل يوضع بين جانبي النهر لتعبر بواسطته السفينة).
فقال الملحد للوزير: إن هذا أصلحك الله لمجنون قال ابن ميثم فقلت: وكيف ذاك؟ قال: خشب جماد لا حيلة له ولا قوة ولا حياة فيه ولا عقل كيف يعبر بالناس؟
فقال أبو الحسن (ابن ميثم): فأيهما أعجب هذا أو هذا الماء الذي يجري على وجه الأرض يمنة ويسرة بلا روح ولا حيلة ولا قوى، وهذا النبات الذي يخرج من الأرض والمطر الذي ينزل من السماء تزعم أنت أنه لا مدبر لهذا

كله وتنكر أن تكون سفينة تتحرك بلا مدبر وتعبر بالناس.
قال: فبهت الملحد[٥٣] ".

بياض البيضة وصفارها:

دخل أبو شاكر الديصاني وهو زنديق على أبي عبد الله عليه السلام فقال له: يا جعفر دلني على معبودي فقال أبو عبد الله عليه السلام: إجلس، فإذا غلام صغير في كفه بيضة يلعب بها فقال أبو عبد الله عليه السلام: ناولني يا غلام البيضة فناوله إياها، فقال أبو عبد الله عليه السلام:
يا ديصاني هذا حصن مكنون له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة فلا الذهبة المائعة، تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن إصلاحها، ولم يدخل فيها داخل مفسد فيخبر عن إفسادها، لا يدرى للذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترى لها مدبراً، فأطرق ملياً ثم قال:
أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأنك إمام وحجة من الله على خلقه، وأنا تائب مما كنت فيه[٥٤].

لا نفاد لكلمات الله:

من نافلة القول أن الإنسان لا يستطيع إحصاء آيات الله وشواهد وحدانيته

---

[٥٣] - الفصول المختارة للشيخ المفيد / ٤٦ وبحار الأنوار ج ١٠ / ٣٧٤ وتجد فيهما عدة مناظرات لعلي بن ميثم رضوان الله عليه تدل على قوة شخصيته وحجته، وقد ذكره في تنقيح المقال تحت الرقم (٨٥٣٥) وقال إنه " إمامي جليل ".
[٥٤] - بحار الأنوار ج ٣ / ٣١ – ٣٢.

ولو أن الأشجار صارت أقلاماً، والبحار حبراً، تنفد الأقلام وتنفد البحار ولكن آيات الله لا تنفد ولا تنتهي.
" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ". الكهف ١٠٩.
ذلك أن كل موجود هو كلمة من كلمات الله تشهد على علم خالقها وقدرته ووحدانيته وعدم محدوديته ذاتاً وصفاتاً.
" كل ورقة من ورق الشجر الأخضر هي لدى العاقل دفتر في معرفة الخالق ".

لا بد من قوة فوق الإنسان:

أيها القاريء العزيز: تأمل جيداً في حالاتك أنت والآخرين، ما أكثر الأعمال التي ينوي الإنسان نية قاطعة على إنجازها، ثم بعد برهة قصيرة تنتفي هذه النية تماماً، وما أكثر الأمور التي ينوي الإنسان تركها بكل تأكيد ثم يفعلها، وما أكثر الأمور التي يهيء مقدماتها بحيث يصبح تحققها قطعياً لكنها لا تتحقق، بل أحياناً يتحقق ضدها.
أليست هذه التغيرات شاهداً كبيراً على وجود قدرة فوق قدرة الإنسان، وهي قدرة الله رب العالمين كما تقدم في مبحث الشرك.
" إذا كان محوّل الحال هو الناس لا القضاء فلماذا تسير الأمور خلاف رغبة الناس، إننا ننوي ألف نية ولا يتحقق منها شيء كما نتصور، ولا يستطيع أحد أن يعترض فقول: كيف ولماذا، لأن تقدير الأمور ما وراء الكيف واللماذا[٥٥] ".

[٥٥] - مضمون ثلاثة أبيات من الشعر الفارسي.

ولمزيد من التوضيح يشار إلى بعض القصص الدينية المشهورة:

شداد لا يرى الجنة التي بناها:

خلاصة قصة شداد المذكورة في كتب التاريخ كما يلي:

بنوا له بأمره مدينة كل ضلع منها أربعون فرسخاً، وكانت مبانيها لبنة من ذهب ولبنة من فضة وزينوها بأشجار من الذهب الأحمر والأسلاك البيضاء، ووضعوا عليها بدل الفواكه الجواهر، وصبوا في القنوات عوضاً عن الحصى اللؤلؤ والمرجان.

وعندما تم بناؤها أخبروا شداداً ليذهب لافتتاحها، ولكنه جاء أجله ومات قبل أن يصل إليها.

يطارد بني إسرائيل ولكن:

طارد فرعون النبي موسى عليه السلام وبني إسرائيل بجيش قوامه ستمائة ألف مقاتل حتى يرجعهم ويعذبهم، وكان متأكداً أنه منتصر عليهم لا محالة، وعندما وصل إلى النيل رأى أنه فُتح في النيل اثنا عشر طريقاً سلكها بنو إسرائيل ونجوا، فسلك فرعون وجيشه تلك الطرق وعندما أصبحوا جميعاً وسط البحر أطبق الماء عليهم بأمر الله وغرقوا جميعاً.

نمرود، أبرهة، سليمان عليه السلام:

ألقى نمرود النبي إبراهيم في النار المضطرمة ليقتله، ولكن إبراهيم لم يحترق وخرج منها سالماً، وقتل نمرود بالنتيجة على يد أضعف مخلوق وهو البعوضة.

وأبرهة توجه نحو مكة على رأس جيش جرار مستخدماً الفيلة المدربة على

الحرب، بهدف هدم الكعبة المعظمة، ولكنه لم يحقق غايته وأرسل الله عليهم طير السنونو، يحمل كل طير ثلاث حصيات وضربوا بها ذلك الجيش فمزقوه شر ممزق.
والنبي سليمان عليه السلام قال ذات يوم: أريد أن أستريح اليوم فلا يراجعني أحد بحاجة وصعد إلى سطح القصر واتكأ على عصاه فجاءه ملك الموت وقبض روحه.

الذكر

عندما ترى المخلوق، تذكر الخالق...:

ذكر الله على قسمين: واجب ومستحب، والواجب منه في ثلاثة موارد:

الأول: عند مشاهدة المخلوقات، فإنه يجب أن يتذكر الإنسان خالقها وموجدها فيعرف قدرته وحكمته اللامتناهيتين، وكذلك سائر صفاته الكمالية، ويُدرك أن نعمه التي لا تحصى هي منه تعالى فيستشعر حبه تعالى.

وعندما يعرف الإنسان الله ويحبه عن طريق ذكره عند رؤية مخلوقاته، فإن استمرار هذه الحالة فيه مستحب، أي يستحب أن يذكر الله عندما يرى أي شيء من مخلوقاته، وعندما يواجه أية نعمة من نعمه، ولا ينسى الله أبداً بوجه من الوجوه[1].

[1] - المراد أن غير المؤمن بالله تعالى يجب عليه ذكر الله تعالى عند رؤية مخلوقاته سبحانه حتى يصل إلى الإعتقاد به عز وجل ويحبه فإذا بلغ هذه المرتبة يصبح ذكر الله عند رؤية مخلوقاته مستحباً بالنسبة له. (المترجم).

وهذه المرتبة من الذكر هي أفضل العبادات كما مر عند الكلام على التفكر، وقد أشير في عدة آيات من القرآن المجيد إلى هذه المرتبة من ذلك قوله تعالى: " الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ". آل عمران.

أي الذين لا ينسون الله سبحانه ولا يغفلون عنه نهائياً وفي أية حال.

ويقول تعالى: " فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ". الأعراف ٧٤.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن في ذكر الله الصلاح، وفي الغفلة عنه الفساد.

ويقول تعالى: " فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ". البقرة ٢٠٠.

ذكر الله أكثر من ذكر الأب:

كان العرب في الجاهلية يقضون أياماً في منى بعد انتهاء أعمال الحج وينشغلون فيها بالتفاخر شعراً ونثراً، وفي هذه الآية المتقدمة يأمر الله سبحانه المسلمين أن يشتغلوا بذكر الله بعد انتهاء أعمال الحج أكثر مما كان العرب في الجاهلية يذكرون آباءهم في هذه الفترة، لأن الأب واسطة في التربية ليس إلا، وهو في هذا مسخر من الله سبحانه، وهذه التربية هي في الحقيقة كسائر النعم التي لا تحصى وكُلها من الله سبحانه، فإذن يجب شكره هو سبحانه والإفتخار به والإتكال عليه.

" واذكروه كما هداكم ". البقرة ١٩٨، أي يجب ذكره سبحانه في نعمة الهداية التي هي من النعم المعنوية، وعدم الغفلة عنها، والإلتفات أنها من

الله عز اسمه.
" فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ". الجمعة ١٠.

استمرار ذكر الله عند كل نعمة:

وخلاصة القول إن ذكر الله عند كل نعمة حيث أنه وسيلة معرفته سبحانه وحبه والإيمان به فهو واجب، أما الإستمرار في الذكر عند كل نعمة فهو مستحب وموجب للقرب منه تعالى وسبب للإستفادة من منزلة الشاكرين، ولكن يجب أن يعلم أن استمرار الذكر عند كل نعمة أمر صعب وشاق ولا يقدر عليه الإنسان، لأن النعم الإلهية على كل إنسان لا تحصى ولا تعدّ[٢]، وغفلة الإنسان اللااختيارية كثيرة جداً.

فمثلاً إحدى النعم الإلهية جهاز التنفس الذي يعمل في اليوم والليلة – ٢٤٠٠٠ – مرة بسهولة في حين أن قسماً مهماً من عمله يكون أثناء النوم، وفي اليقظة تمنع الإنشغالات الإنسان عن الإنتباه إلى هذه النعمة وقد أجاد سعدي الشيرازي في بيان هذه النقطة:

كل نفَس ينزل يمد الإنسان بالحياة، وكل نفس يصعد يفرح الإنسان. إذن في كل نفس نعمتان، وكل نعمة يجب الشكر عليها.

" يد مَن ولسان مَن يمكنهما أداء حق شكره ".

" العبد الأفضل هو الذي يعتذر لله عن تقصيره ".

" وإلا فإن أحداً لا يستطيع القيام بحق الألوهية ".

---

[٢] - " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ". إبراهيم ٣٤.

" نحن وجميع كروبيي الملأ الأعلى لا نستطيع وصف حمدك "[٣].

نسوا أنفسهم:

كما أن ذكر الله سبب في ازدياد المعرفة والحب والسعادة في الدارين: ففي مقابل ذلك الغفلة عن ذكر الله التي هي سبب الشقاء والحرمان ونسيان الإنسان نفسه، أي لأنه نسي الله فسينسيه الله نفسه ويحرم في النتيجة من منزلة تحصيل السعادة التي هي الإيمان والعمل الصالح.

" ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ". الحشر ١٩.

أي لم يستفيدوا من الدنيا أي فائدة أخروية.

لا يفهم من نفسه إلا البدن:

توضيح الفكرة: إن من الثابت بالبراهين العقلية والنقلية أن حقيقة الإنسان هي هذه النفس، والبدن بمنزلة واسطة نقل ووسيلة أعمال النفس، وكل حركات البدن فإنما هي من النفس، وبفساد الجسد وموته تنفصل الروح عنه ولكنها لا تفنى، بل تبقى في عالم الملكوت وتخلد وتظل تتنعم بآثار أعمال الخير التي أدتها بواسطة الجسم كما أنها إذا كانت قد أدت أعمال شر فإنها تظل في عذاب دائم.

الإنسان الذي نسي الله في الدنيا ولم يعرفه، ولم يتجه إليه، فهو في النتيجة ينسى أيضاً ذاته وحقيقته هو ويظن أنه هو فقط ذلك الجسد، وحياته فقط بضعة أيام في الدنيا، إنه يحسب أن الموت فناؤه الحقيقي، وهو لذلك يجعل كل همه تأمين حياته المادية وسلامة جسده، بحيث أنه يجتنب أصغر الأمور

---

[٣] - مضامين أبيات لسعدي الشيرازي.

التي يعتبرها مؤثرة على سلامته البدنية، ولكنه لا يجتنب أبداً الأشياء (الذنوب) التي تقضي على سلامة نفسه.
إذا ابتلي بمرض عادي بسيط فإنه ينهمك بعلاجه بواسطة الطبيب أو الدواء أو عملية جراحية، ولا يتردد في صرف المال والوقت لذلك أبداً، أما مرضه النفسي الذي سيظل يعاني العذاب من أجله آلاف السنين في عالم البرزخ، فإنه لا يحسب له أي حساب.
إن من الواضح أن هذا ناتج عن نسيان الذات الذي هو نتيجة طبيعية لنسيان الله.
لا نقول إذا مرض البدن فلا يداوه، بل تجب معالجته حتى يتمكن فعل الخير بواسطة البدن السليم، ولكن المفروض أن يكون الإهتمام بمرض النفس أكثر بآلاف المرات.
وطبيعي أن الإنسان يفعل ذلك عندما يعرف نفسه ولا ينساها وهذا إنما يكون فيما إذا عرف ربه وجعله نصب عينيه دائماً.
" لا تبنِ بيتاً في أرض الناس وانصرف إلى عملك لا تشتغل بشيء غريب عنك " (لا علاقة لك به).
" من هو هذا غريب جسدك الترابي (الروح) الذي أنت مغموم لأجله " (أي الجسد الترابي).
" ما دمت تقدم لبدنك الدسم والحلو فلن ترى جوهر الروح سميناً ".
" ولو أن الجسد وضع في المسك فعند الموت سيدبّ إليه العفن ".
" لا تمسح المسك على الجسد بل امسحه على القلب وليكن مسك الإسم الطاهر ذي الجلال ".

" أنت يا أخي هذا " الفكر " والباقي عظم وألياف ".
" إذا كان الفكر ورداً فأنت زهرية (مزهرية) وإذا كان شوكاً فأنت حطب الموقد[٤] ".

ذكر الله عند الواجبات والمحرمات:

المورد الثاني من موارد وجوب الذكر، هو حينما يواجه الإنسان واجباً أو محرماً، فهنا يجب ذكر الله وأداء ذلك الواجب وترك المحرم.

مثلاً: في شهر رمضان، لا يترك الصيام، وفي موسم الحج، يؤدي الحج إذا اجتمعت فيه شرائط الوجوب، في موعد رأس سنته المالية، إذا وجب عليه خمس أو زكاة فليؤد ذلك فوراً، وعند حلول بلاء ومصيبة، فليذكر الله وليصبر على ما أصابه، وليطمئن قلبه بأمل حصوله على الثواب.

وإذا واجه مستحباً، فليذكر الله بمقدار استطاعته وليؤد ذلك المستحب، مثلاً: عندما يلتقي بالمسلمين لا يترك الإبتداء بالسلام، وإذا سلموا عليه فيجب أن يرد السلام حتماً، أو صلة الرحم، إذا كانت بحيث يعتبر تركها عرفاً قطع رحم فهي واجبة، مثال ذلك عيادة الرحم في مرضه أو مساعدته على مصيبة ألمّت به، وفيما عدا ذلك فإن صلة الرحم مستحبة، والإهمال فيها لا ينبغي...

وكذلك عند مواجهة أي محرم، فإن من الواجب أن يتركه، ولا ينسى الله وعند مواجهة المكروهات فلا يهمل قدر المستطاع وليتركها مثلاً: إذا

---

[٤] - مضامين سبعة أبيات من الشعر الفارسي.

سنحت نظرة حرام فليذكر الله وليغض بصره، وإذا تناهى إلى سمعه غناء محرم فلا يستمع إليه، أو فليبتعد عنه ويتخلص منه، وإذا وقع في يده مال حرام فلا يتصرف به، وإذا خطرت له كلمة حرام فلا يُجْرها على لسانه ولا يتلفظ بها، وباختصار: لا ينسى الله في أية حال وليطع أوامره سبحانه، (وكذلك في المكروهات).

وهذا هو المراد من الذكر الكثير في القرآن الكريم حيث ورد مراراً " واذكروا الله كثيراً " وقد ورد بيان هذا المعنى في عدة روايات عن الإمام عليه السلام.

أحسن الأعمال وأصعبها:

عن الإمام الصادق عليه السلام (وفي رواية أخرى أصعب الأشياء) التي أوجبها الله على عباده، ثلاثة، وفي رواية أخرى: ما امتحن المؤمن بشيء أصعب من ثلاثة:

١ – الإنصاف مع الناس: أي أن تنصف الناس في سلوكك معهم فلا ترضى لهم بشيء إلا إذا كنت ترضاه لنفسك.

٢ – المواساة: أي واسِ أخاك في الدين في مالك، ابذل له إذا كان فقيراً، أو محتاجاً.

٣ – ذكر الله في كل حال وليس المراد به أن يدور اللسان بقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (مع أن هذا ذكر) لكن المراد أنك إذا واجهت شيئاً أمر الله بأدائه أديته، أو أمر بتركه تركته[٥].

[٥] - قال الصادق عليه السلام: سيد الأعمال ثلاثة، إنصاف الناس من نفسك، حتى لا ترضى بشيء إلا رضيت لهم مثله، ومواساتك الأخ في المال، وذكر الله على كل حال ليس سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فقط ولكن إذا ورد عليك شيء أمر الله به أخذت به، وإذا ورد عليك شيء نهى الله عز وجل عنه تركته. (أصول الكافي / الإيمان والكفر / باب الإنصاف والعدل).

وقد جاء في أصول الكافي أربعة أحاديث بهذا المضمون:

أهم أقسام الذكر:

بناء على هذا، تعلم جيداً أهمية هذه المرتبة من الذكر، بل إنه إذا لم يراع الحلال والحرام في القول والعمل، فإن العبادة البدنية والأذكار اللسانية، إما لا فائدة فيها، أو فائدتها قليلة، وقد ذكر بيان هذا في أول كتاب " الذنوب الكبيرة " وهنا يكفي التذكير بهذه الآية الشريفة:

" إنما يتقبل الله من المتقين ". المائدة ٢٧.

هذه هي المراقبة:

هذه المرتبة من الذكر أي الإلتفات في جميع الأحوال إلى أن الله حاضر وناظر وعدم مخالفة أوامره، هي المراقبة التي هي الوسيلة الوحيدة للنجاة من كل تهلكة والوصول إلى أية درجة.

أي كما أن الله سبحانه رقيب (ناظر) على عباده دائماً، وقد وضع على أعمالهم وأقوالهم حفظة حراساً من الملائكة ليسجلوا ذلك كله فعليَّ أن أكون مراقباً لحضوره ورقابته ملتفتاً أن لا تصدر مني في حضرته أية معصية.

ومن أجل التنوع في مضامين الكتاب تذكر هنا عدة قصص:

درس من قصة يوسف وزليخا:

يقال إن زليخا عندما اختلت بالنبي يوسف عليه السلام وغلقت الأبواب

رفعت حجابها عن رأسها فجأة ووضعته على الصنم الذي كان منصوباً في تلك الغرفة، فسألها عليه السلام عن سبب ذلك فقالت أردت أن أعانقك وخجلت أن يراني واستحييت منه فغطيته.
فقال عليه السلام: أنت تخجلين من جماد صنعه البشر، ولا أستحيي أنا وأخجل من حضور رب العالمين، ثم ولى هارباً، وفي النتيجة شهد الطفل في المهد ببراءته وطهارته، ومن ثم أصبح سلطاناً بالتفصيل المذكور في القرآن المجيد[٦]، وتزوج زليخا بالطريقة المشروعة.

التلميذ المؤمن:

كان أحد العلماء يكرم تلميذاً من تلامذته أكثر من زملائه ويهتم بتربيته ويبالغ بالعناية به وعندما سئل عن السبب قال: ستعرفون يوماً ما، وذات يوم أعطى لكل من تلامذته دجاجة وقال: اذبحها حيث لا يراك أحد فذهبوا جميعاً ثم عادوا وقد ذبح كل منهم دجاجته إلا ذلك التلميذ الذي كان الأستاذ يكرمه ويهتم به فإنه أرجع الدجاجة حية دون أن يذبحها فسأله أستاذه عن السبب فقال: أمرتني أن أذبحها حيث لا يراني أحد، وحيثما ذهبت رأيت أن الله حاضر وناظر فقال الأستاذ: إن وعيه لرقابة الله، ومراقبته لحضوره سبحانه هو سبب اهتمامي به أكثر من زملائه[٧].

كلام الراعي مع ابن عمر:

يقال أن ابن عمر رأى غلاماً يرعى غنماً، فقال له: بعني شاة، قال الراعي: ليس الغنم ملكي، ولم يأذن لي المالك بالبيع، فقال ابن عمر:

---

[٦] - حياء العلوم للغزالي.
[٧] - لوامع البينات للفخر الرازي ص ٢٠٦.

بعني الشاة وخذ ثمنها وقل للمالك: أكلها الذئب، فقال الراعي: فأين الله؟
أي إذا لم يكن المالك موجوداً، فإن الله حاضر ناظر.
وقد كان لمراقبة هذا الراعي لحضور الله سبحانه أثر كبير في نفس ابن عمر بحيث أنه ذهب إلى مالكه واشتراه وأعتقه، ثم اشترى قطيع الغنم من المالك ووهبه لذلك العبد المحرر، وكان ابن عمر فيما بعد يردد كلمة هذا الراعي ويقول: " فأين الله[٨] ".

يسلم الغنيمة النفيسة:

عندما دخل المسلمون المدائن، وغنموا ما استطاعوا جمعه، جاء رجل يحمل صندوقاً ليسلمه لبيت المال، فشك المسمون فيمَ يكون هذا الصندوق الذي لم يروا مثله، وسألوا الرجل هل أخذت منه شيئاً، فقال لولا أني أؤمن بالله وأني أعتقد أن الله مطّلع على خفايا أعمالنا، لما جئتكم بهذا الصندوق، فسألوه عن اسمه، فأقسم بالله أن لا يذكر اسمه حتى لا تنقل قصته فيمدح فيدخله الغرور، ولما رجع لحق به من يراقبه ليعرفه فإذا هو عامر ابن عبد قيس[٩].

الذكر اللساني الواجب: الصلاة:

القسم الثالث من ذكر الله، الذكر اللساني، والواجب منه الصلوات الواجبة أي الصلوات الخمس في اليوم والليلة وصلاة الميت، وصلاة الطواف والقضاء عنه أو عن والديه بالتفصيل المذكور في الرسائل العملية.

---

[٨] - نفس المصدر.
[٩] - الطبري ج ٤ ص ١٦. (بتصرف).

وقد ذكرت أهمية الصلاة وعظمتها وثوابها وشدة عقوبة تركها في كتاب " الذنوب الكبيرة ".
والدليل على أن الذكر اللساني الواجب هو الصلاة الواجبة أنه تعالى يقول في سورة الجمعة:
" يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ". الجمعة ٩.
وفي سورة طه يقول: " وأقم الصلاة لذكري ". طه ١٤.

التسبيحات الأربع، الدعاء، الصلوات:

الذكر المستحب أيضاً أنواع: التهليل: أي الشهادة بوحدانية الله. التحميد: حمد الله والثناء عليه. والتسبيح: الشهادة بتنزيه الله. التكبير: الشهادة بعظمة الله. ومختصر ذلك كله: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وكذلك قول: لا حول ولا قوة إلا بالله ومن ذكر الله أيضاً: الدعاء ومناجاة قاضي الحاجات جلت عظمته ومن الدعاء الصلاة على محمد وآل محمد، ومن الذكر تلاوة القرآن المجيد.

ذكر الله كلما كان أكثر فهو أحسن:

ينبغي أن يعلم أنه ليس لذكر الله حد، وكلما انشغل الإنسان بالذكر أكثر، كلما كانت فائدته أكثر.
يقول تعالى في سورة الأحزاب: " يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً، وسبحوه بكرة وأصيلاً ". الأحزاب ٤١ – ٤٢.
وقد أورد في " عدة الداعي " الروايات في فضيلة الذكر ولم تنقل هنا

رعاية للإختصار ويكفي أن نعلم أن الفلاح الدائم والسعادة الحقيقية يتحققان عن طريق زيادة الذكر ويقول تعالى: " واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ". الجمعة ١٠.
وقد ورد عن أهل البيت من أنواع الصلوات المستحبة والأدعية والمناجاة وأقسام الذكر ما لو أراد إنسان أن يقضي جميع ساعات ليله ونهاره بالذكر لأمكنه ذلك.
نسأل الله توفيق الطاعة.

صلاة الليل والمقام المحمود:

لا يفوتنا التأكيد هنا أن أفضل الصلوات المستحبة وأكثرها أثراً النوافل اليومية، خصوصاً نافلة الليل التي هي إحدى عشرة ركعة ووقتها النصف الثاني من الليل إلى طلوع الفجر، والآيات والروايات كثيرة حول فضيلة القيام بالأسحار وصلاة الليل والإستغفار بالأسحار.
وخلاصة القول إن كل شخص يبلغ أي مقام في عالم العبادة فإن ذلك ببركة القيام بالأسحار كما يستفاد ذلك من الآية الشريفة:
" ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ". الإسراء ٧٩.
أي أن عليك واجباً إضافياً عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً أي المقام الذي يحمدك عليه جميع الخلق وهو مقام الشفاعة الكبرى ويستفاد من هذه الآية أن صلاة الليل كانت واجبة فقط على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم توجب على أمته تسهيلاً عليهم بل هي مستحب مؤكد أي إذا سهروا حتى الصباح ولم يصلوا صلاة الليل فلا يستحقون العذاب لذلك، ولكن ذلك يتسبب بحرمان لا يمكن

أن يجبر، حرمان من الوصول إلى المقامات والدرجات التي أساسها أن يصبح الإنسان من شيعة آل محمد.

الروايات والتأكيد على صلاة الليل:

عن الصادق عليه السلام أنه قال: ليس من شيعتنا من لم يصل صلاة الليل[١٠].

وعن الباقر عليه السلام: من كان يؤمنن بالله واليوم الآخر فلا يبيتَنّ إلا بوتر[١١] ".

وفي التوقيع المبارك الصادر عن الإمام الحجة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف إلى ابن بابويه رحمه الله يؤكد الإمام عجّل الله تعالى فرجه ثلاث مرات: وعليك بصلاة الليل.

القرآن يثني على القائمين بالأسحار:

أثنى الله سبحانه على القيام بالسحر وصلاة الليل في عدة مواضع من القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى:

" تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ". السجدة ١٦ – ١٧.

" ما أخفي لهم ": أي ما ادخر لهم جزاءاً بما كانوا يعملون من ذلك القيام بالسحر وصلاة الليل.

---

[١٠] - البلد الأمين للكفعمي.

[١١] - علل الشرائع.

وفي مكان آخر يقول تعالى:
" أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ". الزمر ٩.
ويعلم من هذه الآية الشريفة جيداً أن الإتيان بصلاة الليل والتضرع بين يدي الله خوفاً وأملاً، هو علامة العلم والمعرفة والتعقل، كما أن عدم الإعتناء بذلك علامة الغفلة وعدم التعقل.
" عندما يدرك الشخص طرفاً من الحقيقة (ويشم رائحتها) يصبح طبعه قيام الليل[١٢] ".
" إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ". الذاريات ١٥ - ١٩.
والعلامة المجلسي في الجزء الثامن عشر من البحار بعد أن أورد الآيات القرآنية في فضل صلاة الليل أورد أكثر من سبعين حديثاً ونحن نكتفي هنا بذكر واحد منها.

٢٦ خصوصية لصلاة الليل:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: صلاة الليل مرضاة الرب، وحب الملائكة، وسنة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وراحة الأبدان، وكراهية الشيطان، وسلاح على الأعداء، وإجابة للدعاء، وقبول

---
[١٢] - مضمون بيت فارسي.

الأعمال، وبركة في الرزق، وشفيع بين صاحبها وبين ملك الموت وسراج في قبره، وفراش تحت جنبه، وجواب مع منكر ونكير، ومونس وزائر في قبره إلى يوم القيامة.
فإذا كان يوم القيامة كانت الصلاة ظلاً فوقه، وتاجاً على رأسه، ولباساً على بدنه، ونوراً يسعى بين يديه، وستراً بينه وبين النار، وحجة للمؤمن بين يدي الله تعالى، وثقلاً في الميزان وجوازاً على الصراط ومفتاحاً للجنة[١٣] ... ".
ذكرت في هذا الحديث ٢٦ خصوصية لصلاة الليل، أهمها جميعاً نور المعرفة، إذن من أراد المعرفة واليقين يجب أن لا يفرط بالقيام في السحر وصلاة الليل بل يداوم على ذلك ويواظب حتى يصل إلى ما يريد إن شاء الله.

كيفية صلاة الليل:

هي ثمان ركعات بنية صلاة الليل كل ركعتين معاً كصلاة الصبح، تقرأ فيهما بعد الحمد أية سورة أردت بعد ذلك ركعتان بنية الشفع وبعد السلام ركعة بنية الوتر، وإذا كان متسع من الوقت تستغفر في قنوت الوتر سبعين مرة أو مائة أو تقول ثلاثمائة مرة العفو وتطلب المغفرة لأربعين مؤمناً فهو حسن جداً، والأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام خاصة الدعاء ٣٢ من الصحيفة السجادية والأدعية المنقولة في البحار الجزء الثامن عشر (ج ٨٧ من الطبعة الجديدة)، هذه الأدعية ثوابها كبير، نسأل الله التوفيق للجميع.

مراتب الإيمان وقلة اليقين:

قال الإمام الرضا عليه السلام:
الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى

[١٣] - بحار الأنوار ٨٧ / ١٦١.

فوق الإيمان بدرجة واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسم بين العباد بشيء أقل من اليقين وفي حديث آخر: قلت وأي شيء اليقين قال التوكل على الله والتسليم إلى الله والرضا بقضاء الله والتفويض إلى الله[١٤] ".

وقد نقل المجلسي رضوان الله تعالى عليه في شرح هذا الحديث عن بعض المحققين أن العلم والعبودية جوهران وكلما ترى أو تسمع في الكتب الدينية وبيانات العلماء ومواعظ الواعظين فإنما هو لأجل هذين (العلم والعبودية) بل إن مجيء الأنبياء وبعثتهم وإنزال الكتب السماوية أيضاً لأجلهما، بل إن خلق السماوات والأرض وما فيهما هو كذلك من أجلهما، ويكفي لمعرفة أهمية شرف العلم هذه الآية الشريفة:

" الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ". الطلاق ١٢.

فقد ذكر سبحانه في هذه الآية الشريفة أن الهدف من إيجاد العالم هو العلم بالله وإدراك علمه وقدرته اللامتناهيين كما مر.

ويكفي لبيان شرف العبادة هذه الآية الشريفة: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ". الذاريات ٥٦.

(والعلم والعبادة هما لازم وملزوم وسبب ومسبب، لأن العلم سبب زيادة العبودية والعبودية سبب زيادة العلم). والمراد بالعلم هو الدين أي معرفة الله والملائكة الذين هم واسطة الوحي، ومعرفة كتاب الله أي القرآن ومعرفة يوم الجزاء كما قال هو سبحانه: " والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ". البقرة ٢٨٥. وقال تعالى: " ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله

---

١٤ - أصول الكافي – كتاب الإيمان والكفر.

واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ". النساء ١٣٦.
ومردّ الإيمان العلم لأن الإيمان هو التصديق بشيء على واقعة ولازم التصديق بشيء تصوره حسب الإستطاعة والتصور والتصديق معاً هما العلم.
والكفر مقابل الإيمان وهو بمعنى تغطية الحق وعدم قبوله ومرد الكفر الجهل.
والإيمان في الشرع مختص بالتصديق بهذه الخمسة التي ذكرت: الله، الملائكة، الكتب السماوية، الأنبياء، يوم الجزاء، فالعلم بهذا إذن واجب[١٥].
وهذا هو المراد من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، طبعاً كل إنسان حسب طاقته " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ". البقرة ٢٨٦. لأن للعلم والإيمان مراتب في القوة والضعف ودرجات في الزيادة والنقصان بعضها أعلى من بعض كما توضح ذلك الأخبار الكثيرة والسبب في ذلك أن الإيمان يكون بمقدار العلم الذي تكون به حياة القلب، وذلك النور الذي يضيء في القلب بواسطة رفع الحجاب بين العبد وربه كما قال تعالى: " الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ". البقرة ٢٥٧.
وقال تعالى: " أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ". الأنعام ١٢٢.
وعن الإمام الصادق عليه السلام: ليس العلم بكثرة التعلم، إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه.

[١٥] - الإعتقاد بالأئمة الإثني عشر يتفرع على الإعتقاد بالنبوة.

وهذا النور كالأنوار الأخرى منها القوي والضعيف والقليل والكثير.
قال تعالى: " وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ". الأنفال ٢.
وقال سبحانه: " وقل رب زدني علماً ". طه ١٤.
وبمقدار ما يرفع الحجاب يزداد هذا النور ويقوى ويتكامل، إلى أن يضيء جميع جنبات القلب وعندها يحظى الإنسان بنعمة شرح الصدر ويفهم حقائق الأشياء ويكشف له الغيب (ما وراء المادة والطبيعة) ويرى كل شيء على حقيقته وبمقدار ما يكون حظه من النور وشرح الصدر يتضح له صدق الأنبياء فيما أخبروا به إجمالاً وتفصيلاً، وينبعث فيه الداعي (الميل والإرادة) للعمل بكل ما أمروا به واجتناب كل ما نهوا عنه أي توجد فيه ملكة التقوى، ومن ثم يزداد نور معرفته بأنوار أخلاقه الفاضلة وطبائعه الكريمة.
قال تعالى: " نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ". التحريم ٨.
وقال تعالى: " نور على نور ". النور ٣٥.
وكل عبادة تؤدّى بشكل صحيح تهب القلب صفاءاً وتهيؤه لتقبل إفاضة النور عليه وشرح الصدر والمعرفة واليقين، وبعبارة أخرى فإن نور هذه العبادة يحمل على زيادة النور وشرح الصدر والمعرفة وقوة اليقين، وهكذا إلى ما شاء الله وعلى كل من ذلك شواهد من القرآن المجيد، والروايات.
واعلم أن أوائل درجات الإيمان هي التصديقات المختلطة بالشكوك والشبهات على اختلاف مراتبها، ويمكن أن تكون مختلطة بالشرك كما قال تعالى:
" وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ". يوسف ١٠٦.
ويعبر عن مراتب الإيمان هذه غالباً بالإسلام كما قال تعالى:

" قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ". الحجرات ١٤.
وأواسط درجات الإيمان هي التصديقات المطهرة من كل شك وشبهة كما قال تعالى:
" الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ". الحجرات ١٥.
وغالباً ما يطلق لفظ الإيمان على هذه الدرجة من الإيمان كما قال سبحانه:
" إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ". الأنفال ٢.
وأواخر درجات الإيمان هي هذه التصديقات المطهرة من كل شك وشبهة ولكن بإضافة الكشف والشهود، والذوق، والعيان، أي الرؤية بعين القلب وبذائقة القلب، ومحبةُ الله التامة والشوق التام إليه سبحانه كما قال تعالى:
" يحبّهم ويحبّونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ". المائدة ٥٤.
ويعبر عن هذه المرتبة من الإيمان باليقين كما قال تعالى:
" وبالآخرة هم يوقنون ". البقرة ٤.
كما يعبر عنها بالإحسان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه[١٦].
وقد أشير إلى هذه المراتب الثلاث للإيمان في هذه الآية الشريفة:

[١٦] - أصول الكافي.

" ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ". المائدة ٩٣.
وكما أن الإيمان ثلاث مراتب بالتفصيل المذكور فإن الكفر كذلك له ثلاث مراتب أشير إليها في الآية الشريفة:
" إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ". النساء ١٣٧.
إذن نسبة الإحسان واليقين إلى الإسلام كنسبة الإيمان إلى الإسلام.
ولليقين أيضاً ثلاث مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين كما أشير إليها في هذه الآيات:
" كلا لو تعلمون علم اليقين، لتروُنّ الجحيم، ثم لتروُنّها عين اليقين ". التكاثر ٥ - ٧.
" إن هذا لهو حق اليقين ". الواقعة ٩٥.
والفرق بين هذه المراتب الثلاث يتضح بذكر مثال: مثلاً علم اليقين: عندما ترى دخاناً يتصاعد يحصل لك العلم بوجود النار. وعين اليقين يحصل عند رؤية النار نفسها، وحق اليقين يحصل عند الإحتراق بتلك النار وليس فوق هذه المراتب الثلاث شيء وليست قابلة للزيادة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:
لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.
(انتهى ما أورده العلامة المجلسي رحمه الله)[١٧].

[١٧] - مرآة العقول ج ٧ / ٣٢٨ – ٣٣١. (بتصرف).

للكفر ثلاث مراتب:
مقابل درجات الإيمان الثلاث التي ذكرت، فإن للكفر أيضاً ثلاث مراتب:
المرتبة الأولى: الشك والترديد والوسوسة في أحد الأمور الخمسة (الله، الرسول، الملائكة، القرآن، الآخرة) كما يقول تعالى في القرآن المجيد: " وارتابت قلوبهم فهُم في ريبهم يترددون ". التوبة ٤٥.
المرتبة الثانية: الإنكار أي أنه رغم كونه شاكاً في الحق متردداً ولا يعلم صحته أو عدم صحته فإنه ينكره كما في القرآن المجيد: " فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ". النحل ٢٢.
وأكثر ما يطلق لفظ الكافر على هذه المرتبة.
المرتبة الثالثة: معاداة الحق، أي بالإضافة إلى شكّه وإنكاره، يتصدى لمخاصمة الحق ويعمل على إثبات أنه باطل ليقضى عليه كما يقول تعالى:
" إن الذين يحادّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ". المجادلة ٥.
وكما تتفاوت درجات السعادة والثواب الأخروي باعتبار درجات الإيمان كذلك تتفاوت دركات الشقاء والعذاب الأخروي باعتبار مراتب الكفر.
وفي كل مراتب الكفر إذا طابق الظاهر الباطن، أي طابق قوله وفعله شكه وترديده أو إنكاره أو مخاصمته فهو كافر، أما إذا خالف ظاهره الباطن، فهو منافق.
وعليه فللنفاق ثلاث مراتب: إظهار الإيمان رغم الشك في الباطن،

التصديق بالحق ظاهراً رغم الإنكار القلبي، إظهار موافقة الحق وتأييده رغم العداء الباطني، وعذاب المرتبة الثالثة أشد أنواع ألوان العذاب ودركه هو الأسفل[١٨].
" إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ". النساء ١٤٥.

نموذج لأهل اليقين:

" قال إسحاق بن عمار، سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه (أي يغفو) مصفراً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال: إن لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة، ويتعارفون وعلى الأرائك متكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: هذا عبد نور الله قلبه بالإيمان، ثم قال له: إلزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي

---

[١٨] - أي أن المنافق الذي يظهر الإيمان هناك ثلاث حالات قلبية له: ١ – أن يكون في قلبه شاكاً بالحق. ٢ – أو منكراً للحق دون إعلان للحرب عليه. ٣ – أو منكراً للحق معلناً للحرب عليه وهذه المرتبة هي الأشد.

صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر[19] ".

العين والأذن واللسان تصبح إلَهية:

عن الإمام الباقر عليه السلام: لما أسري بالنبي صلى الله عليه وآله قال يا رب ما حال المؤمن عندك؟ إلى أن يقول: وما يتقرب إلي عبد من عبادي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت إذاً سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته[20] ".

ضلال الصوفية:

قال المجلسي رحمه الله في شرح هذا الحديث: " وقال الشيخ البهائي برّد الله مضجعه: هذا الحديث صحيح السند وهو من الأحاديث المشهورة بين الخاصة والعامة وقد رووه في صحاحهم باختلاف يسير " ثم أورد شرح الشيخ البهائي رحمه الله لفقرات هذا الحديث ومنها قوله في شرح فقرة " سمعه الذي يسمع به " حيث يقول: " تمسك بعض الصوفية والإتحادية والحلولية[21] والملاحدة بظواهر تلك العبارات وأعرضوا عن بواطن هذه الإستعارات فضَلّوا وأضلّوا " إلى أن يقول: لهذه العبارات " معان واضحة ظاهرة تقبلها الأذهان ومبنية على مجازات واستعارات شائعة في الحديث والقرآن ".

---

[19] - الكافي – كتاب الإيمان والكفر – باب حقيقة الإيمان / ج ٢ وفي حديث آخر في نفس المصدر أن هذا الشاب هو حارثة بن مالك ابن النعمان الأنصاري.

[20] - المصدر السابق.

[21] - الصوفيون أو المتصوفة يراد بهم الذين يميلون إلى الزهد ويتجاوزون في مسلكهم الأحكام الشرعية ولا يتقيدون بها، والإتحادية القائلون بوحدة الله ومخلوقاته، والحلولية القائلون بحلول الله في مخلوقاته.

وقد ذكر العلامة المجلسي رحمه الله آراء العلماء في شرح هذا الحديث وذكر رأيه هو، ورعاية للإختصار يذكر هنا المعنى الذي نقله عن الشيخ البهائي عليه الرحمة.

من ذاق علِم:

يقول الشيخ البهائي رحمه الله: لأصحاب القلوب في هذا المقام كلمات سنية وإشارات سرية وتلويحات ذوقية تعطر مشام الأرواح، وتحيي رميم الأشباح، لا يهتدي إلى معناها ولا يطلع على مغزاها إلا من أتعب بدنه في الرياضات وعنّى (أتعب) نفسه بالمجاهدات حتى ذاق مشربهم وعرف مطلبهم، وأما من لم يفهم تلك الرموز ولم يهتد إلى هاتيك الكنوز لعكوفه على الحظوظ الدنية وانهماكه في اللذات البدنية فهو عند سماع تلك الكلمات على خطر عظيم من التردي في غياهب الإلحاد والوقوع في مهاوي الحلول والإتحاد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ونحن نتكلم في هذا المقام بما يسهل تناوله على الأفهام:

كناية عن كمال الحب والقرب:

ويضيف عليه الرحمة هذه التعبيرات مبالغة في القرب، وبيان لاستيلاء سلطان المحبة على ظاهر العبد وباطنه وسره وعلانيته، فالمراد والله أعلم أني إذا أحببت عبدي جذبته إلى محل الأنس وصرفته إلى عالم القدس وصيرت فكره مستغرقاً في أسرار الملكوت وحواسِّه مقصورة على اجتلاء أنوار الجبروت، فينبت حينئذٍ في مقام القرب قدمه ويمتزج بالمحبة لحمه ودمه إلى أن يغيب عن نفسه ويذهل عن حسه فيلاشى الأغيار في نظره حتى أكون له بمنزلة سمعه وبصره كما قال من قال:

جنوني فيك لا يخفى   وناري منك لا تخبو

فأنت السمع والأبصار والأركان والقلب.

انتهى[٢٢].

والروايات في درجات الإيمان ومقامات أهل اليقين كثيرة فليراجعها من أرادها في كتاب الإيمان والكفر في أصول الكافي.

والهدف هنا تذكير القارىء العزيز بأن لا يقنع بأي مستوى كان من مستويات الإيمان ومراتبه، بل ليطلب اليقين وليطور مراتبه الثلاثة، ولترغيب القراء يذكر هنا باختصار قسم من آثار اليقين وبركاته وردت الإشارة إليها في كلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام.

الآثار العظيمة لليقين:

إذا شمل لطف الخالق سبحانه عبداً، وأفاض على قلبه نور اليقين بحيث يضيء جميع جنبات قلبه، فإنه يطهر من جميع الرذائل ويتحلى بجميع الأخلاق الفاضلة " فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ". الفرقان ٧٠.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

اليقين يوصل العبد إلى كل مقام سني ومقام عجيب كذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن عظيم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم كان يمشي على الماء قال لو زاد يقينه لمشى في الهواء[٢٣].

وفي مقدمة هذا الكتاب نقلت رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيها إن من آثار التوكل الرضا والتسليم والتفويض.

---

[٢٢] - مرآة العقول ج ٧ / ٣٩٠ – ٣٩١ ولم يورد الشهيد دستغيب البيتين اللذين أوردتهما هنا.

[٢٣] - سفينة البحار ج ٢ / ٥٣٤.

علامات اليقين:
قال أمير المؤمنين عليه السلام: يستدل على اليقين بقصر الأمل وإخلاص العمل والزهد في الدنيا[٢٤].
وقد روي عنه عليه السلام أن الصبر والزهد والصدق والرضا ثمرة اليقين أي أن شجرة اليقين الطيبة عندما تزرع في أي قلب فإن ثمرتها هذه الصفات الفاضلة والملكات الحميدة.
الراحلة في اليقين والهم في الشك:
قال الصادق عليه السلام: إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الرَّوح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط[٢٥].
توضيح ذلك: إن صاحب اليقين يعلم أن جميع الأمور بيد الله القادر، وكل ما لم يقع فلأنه سبحانه لا يريده، وكل ما وقع فلأنه أراده وهو أيضاً يعلم أن الله حكيم رؤوف، ولذا فهو لا يحزن لعدم وقوع ما كان يحب وقوعه ولا يقول يا ليته كان وقع، كما أنه لا يتحسر على وقوع ما لا يحب ولا يقول: يا ليته لم يقع.
" ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ". الحديد ٢٢ – ٢٣.
يعلم من هذه الآية الشريفة أن أهل اليقين كما أنهم لا يحزنون على أي

---
[٢٤] - الغرر للآمدي.
[٢٥] - الكافي.

شيء لا يحصلون عليه أو يخسرونه فإنهم لا يفرحون بما يصلهم ولا يتكبرون أو يصيبهم العجب لما يحصلون عليه لأنهم يعرفون أنهم عبيد الحق تعالى، وكل ما لديهم ملكه، ولا يرون لأنفسهم أي استقلال في مقابله كي يعتريهم الكبر أو يصيبهم العجب.

الإطمئنان في جميع الأحوال:

وصاحب اليقين أيضاً لا يعرف الإضطراب إلى نفسه سبيلاً مهما كانت النوازل والمصائب لأنه لا يرى نفسه وحيداً، ويعتقد أن جميع الأمور من الله فلا يفسح مجالاً لأي اضطراب بل يكون في قمة الأمن والإستقرار ينتظر ما يفعل به الخالق العالم القادر.

إنه يعلم أنه لا يحدث شيء في الكون إلا بإرادة الله وإرادته سبحانه لا تقضي إلا بما فيه الخير والصلاح ولذا فإنه مطمئن لا يعرف الإضطراب، وهذا السبب هو الذي يجعل المرض والصحة، العزة والذلة، الثراء والفاقة، الرفعة والضعة، المدح والذم الحياة والموت كلها على سواء عنده.

حقاً إن السعادة والإطمئنان الواقعيين في الدنيا والآخرة ليسا إلا لأهل اليقين.

" أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ". الأنعام ٨٢.

" هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ". الفتح ٤.

وخلاصة القول إن الإطمئنان والإستقرار والأمن وراحة القلب هي من آثار اليقين كما أن الوحشة والإضطراب والحزن والهم من آثار الشك.

لا يخشى إلا الله ولا يرجو غيره:

وصاحب اليقين كذلك لا أمل له ولا طمع بأي مخلوق ولا يخشى أي مخلوق، إن خوفه فقط من ذنوبه، كما أن أمله فقط بعطاء ربه وفضله.

" الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ". آل عمران ١٧٣ – ١٧٤.

قيمة العمل باليقين:

يجب الإنتباه إلى أن مقامات الآخرة ودرجاتها هي بحسب اليقين ومراتبه، وكذلك الأجر والثواب على العبادات، أي كلما كان يقين العابد أقوى كلما كان ثوابه أكثر وقيمة عمله أهم قال الصادق عليه السلام: إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين[٢٦].

وقال عليه السلام: إن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لا يجد عبدٌ طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وأن الضار والنافع هو الله عز وجل[٢٧].

اهتمام أولياء الله باليقين:

" سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً من الحرورية يتهجد ويقرأ فقال عليه السلام: نوم على يقين خير من صلاة على شك ".

والآيات والروايات في فضل الإيمان وأهله وشرف العلم وأهله ينصبّ

---

[٢٦] - المصدر السابق حديث ٧.

[٢٧] - نهج البلاغة.

أكثرها على اليقين. ومن هنا كان الأنبياء والأولياء يسألون الله تعالى هذه المرتبة.

قال الصادق عليه السلام: ثلاث تناسخها الأنبياء من آدم حتى وصلن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا أصبح يقول: اللهم إني أسألك إيماناً تباشر به قلبي ويقيناً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي ورضني بما قسمت لي[٢٨].

قال الكليني عليه الرحمة وقد زاد بعض الأصحاب في هذا الدعاء " حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً وصلى الله على محمد وآله ".

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ هذا الدعاء دائماً: " اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما يبلغنا رضوانك ومن اليقين ما يهوّن به علينا (كذا) مصيبات الدنيا اللهم أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثارنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا يا أرحم الراحمين " وقد ذكر هذا الدعاء في مفاتيح الجنان في أعمال ليلة النصف من شعبان والمداومة على هذين الدعاءين ودعاء مكارم الأخلاق من الصحيفة السجادية نافع جداً.

وصية الإمام الباقر عليه السلام:

كان جابر الجعفي من خواص شيعة الإمام الباقر عليه السلام وقد زوده سلام الله عليه بست نصائح ولأنها طريق السعادة في الدارين وضالّة كل عاقل كان لا بد

[٢٨] - الكافي، كتاب الدعاء حديث / ١٠.

من إيضاحها:
قال عليه السلام لجابر الجعفي:
١ – وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض.
التفويض هنا هو إيكال الأمور كلها صغيرها وكبيرها إلى الله وعدم طلب ما لم يرده سبحانه. حيث أن رغبات الإنسان لا تنتهي وحيث أن عالم المادة محدود مليء بالمنغصات ولا يصل الإنسان فيه إلى واحد من الألف من رغباته، فإن الإستقرار الحقيقي للبشر محال قطعاً، اللهم إلا إذا وصل بنور المعرفة إلى مقام " التفويض " أي يتخلى عن رغبات نفسه ولا يريد إلا ما أراده له الله العالم والحكيم ويقنع بما يحصل عليه ويرضى ولا يتحسر على ما فاته كما تقدم في الحديث النبوي المشهور: أول العلم معرفة الجبار وآخر العلم تفويض الأمر إليه.

وهل تنفع العبد الأماني:

نقل عن أحد الأعاظم أن أحد العبيد كان سبب يقظته من نوم الغفلة ودفعه نحو تحصيل المعرفة والعبودية فقد رأى ذات يوم في سوق النخاسين عبداً وأراد أن يشتريه فاقترب منه وقال:
ما اسمك؟
قال: أي شيء تناديني به.
- أشتريك؟
- إذا أردت.

- ماذا تأكل؟
- أي شيء تطعمنيه.
- وماذا تلبس؟
- أي شيء ألبستني.
- وما هي مواصفات سكنك؟
- حيث أسكنتني.
- وما هذه الأجوبة أيها العبد؟
- وهل تنفع العبد الأماني.
وكأنما كان ذلك الشخص نائماً وانتبه، فلطم على رأسه قائلاً:
يا ليتني تعاملت في كل عمري يوماً واحداً مع مولاي الحقيقي هكذا.
٢ – واطلب راحة البدن بإجمام القلب.
كلما كان الإنسان حريصاً على الدنيا وازداد سعيه للوصول إلى الآمال والأهواء فسيتجلى ذلك حرماناً له من نعمة الطمأنينة وهدوء الأعصاب، وهذا يترك آثاره السلبية على جهازه الهضمي وسائر أجهزته فيربكها ويتعب الجسد ولا علاج لراحة الجسد وسلامته أفضل من إجمام القلب باجتناب التشتت بين الآمال والأهواء[٢٩].

[٢٩] - لدى ملاحظة معاني جمّ وأجمّ نجد أن الأساس فيها الجمع والراحة وكأن مراد الإمام عليه السلام هو جمع القلب المشتت بالرغبات ليتسنّى له أن يستريح فيرتاح البدن وهو المعنى الذي اختاره المؤلف الشهيد رحمه الله راجع المعجم الوجيز والتحقيق في كلمات القرآن للمصطفوي (المترجم).

٣ – وتخلص إلى إجمام القلب بقلة الخطأ.
غير خافٍ أن كل نكبة وشقاء يحل بالإنسان فهو من آثار الذنوب، وإذا تأملت في أحوال الأشخاص الذين يبتلون بأمراض الحرص، البخل، الحسد، الحقد، الكبر، سوء الظن وحب الدنيا يتضح لك هذا الأمر بكل جلاء أية آلام يحملها هؤلاء، وأي شقاء وعذاب يعانون، بحيث يصل الأمر بهم إلى الرضا بالموت وقد أشير إلى ذلك في عدة مواضع من هذا الكتاب.
٤ – وتعرض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات.
يأتي الكلام عن رقة القلب في القسم الثاني من الكتاب وأعظم وسيلة للتحلي بها هي ذكر الله في الخلوات خصوصاً في حال السجود فقد روي " إن العبد إذا أطال السجود حيث لا يراه أحد قال الشيطان واويلاه أطاعوا وعصيت وسجدوا وأبيت[٣٠] ".
وروي عن الإمام الصادق عليه السلام إن أبي كان يقول: أقرب ما يكون العبد من الرب وهو ساجد يبكي[٣١].
وفي القرآن الكريم: " واسجد واقترب ".

الحزن ينير القلب:

٥ – واستجلب نور القلب بدوام الحزن.
أي أن أفضل سبل الوصول إلى إنارة القلب هي دوام الحزن والمراد به هو

---
[٣٠] - ثواب الأعمال للصدوق / ٥٦ عن أمير المؤمنين عليه السلام.
[٣١] - عدة الداعي – ١٦١.

طلب نور اليقين كالأم التي ضلّ عنها ابنها العزيز وقلبها دائماً معه يبحث عنه ويعمل للعثور عليه كذلك ينبغي أن يكون المؤمن يبحث دائماً عن نور اليقين ويفتش عنه وكل همه الوصول إليه وما دام لم يصل فهو لا يعرف الإستقرار أبداً وهذه الحالة علامة من هو من أهل الآخرة كما أن علامة من هو من أهل الدنيا أنه إذا وصل إلى بغيته المادية اطمأن ولا يبقى في قلبه أي حزن أو غم إلا الوصول إلى هوى آخر من أهوائه.
" ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ". يونس ٧.

ينبغي إخفاء الحزن:

لا بد من التذكير بأن الحزن من العبادات القلبية وقد روي: إذا أراد الله بعبدٍ خيراً جعل في قلبه نائحة من الحزن[٣٢] وعليه فلا يصح أن يُظهر المؤمن حزنه القلبي للناس حذراً من الرياء والإبتلاء بمعصية الشرك بل ينبغي أن يكون ظاهره بخلاف باطنه أي أن قلبه مليء بحزن الآخرة وظاهره مسرور كما روي:
" المؤمن حزنه في قلبه وبشره في وجهه ".
٦ – وتحرز من إبليس بالخوف الصادق.
أي أن الشخص الذي يخاف حقيقةً من الله تعالى ويحترق بنار الخوف، لا يمكن أبداً أن يغويه الشيطان... وفي نهاية المطاف لن تضره نيران الشياطين ويأتي مزيد إيضاح لذلك في القسم الثاني.

نحو فهم أفضل لليقين:

اليقين الذي هو الطريق الوحيد للسعادة والوصول إلى الدرجات والذي هو

---

[٣٢] - عدة الداعي.

أمنية جميع العظماء هو نور يسطع في القلب من قبل الله تعالى، وبسببه يتضح الحق والواقع للإنسان ويعتقد به بحيث لو أن المنكر للحق طرح عليه مئات الشبهات والوساوس فلن يؤثر فيه ذلك أبداً ولا يغير من قناعاته على الإطلاق.
تماماً كالشخص الذي يرى من بعيد دخاناً وألسنة اللهب، فيعتقد أن في ذلك البيت ناراً، عندها لن يستطيع أحد أن يصرفه عن هذا الإعتقاد.

اليقين الصادق:

وبسبب النور الذي أضاءه سبحانه في قلب الإنسان ستوجد في قلبه كذلك الآثار واللوازم لذلك الذي عرفه واعتقد به كالشخص الذي يرى ألسنة النار من بعيد تتصاعد من بيته ويتيقن أن بيته يحترق فلازم هذا اليقين أن يبادر إلى إطفاء النار فإذا لم يبادر لذلك ولم يهتم أبداً فهو إما قد سيطرت عليه الغفلة أو أن شبهةً ما جعلته يعتقد أن أثاثه لا يحترق ولذا لم يصدر عنه أي ردّ فعل ومثل الشخص الذي يخاف من جنازة ميت وضعت معه في غرفة مظلمة ومقفلة مع أنه موقن أن الميت لا يستطيع أن يفعل شيئاً أو يتحرك، ولو كان حياً لما خاف منه فلماذا يخاف منه الآن وهو ميت؟
إذن سيطرت قوة وهمه على قوة عقله، وأصبح لا يمكنه أن يعمل بلوازم يقينه التي منها عدم الخوف من الموتى.
ولعل جملة " ويقيناً صادقاً " الواردة في آخر دعاء أبي حمزة إشارة إلى اليقين الذي لا ينفك عن آثاره ولوازمه.
مثلاً: اليقين بأن الله تعالى عالم بصير وحاضر وناظر لازمه الخجل من حضوره وترك ما يتنافى مع الأدب والعبودية كما أن لازم اليقين بالقدرة التي لا تتناهى التوكل عليه في كل الأمور وعدم الخوف من غيره.

ولازم اليقين بأنه الرازق عدم تجرع الغصص من أجل الرزق... كما أن لازم اليقين بأن كل الأمور بتقديره وتدبيره لا يقدر لعباده إلا ما فيه حكمتهم ومصلحتهم – لازم هذا اليقين – الصبر والرضا والتسليم والتفويض وترك الحرص والبخل...
وكذلك أنواع اليقين الأخرى التي تأتي الإشارة إليها.

منزلة شرح الصدر:

وقد أشار القرآن المجيد إلى نور اليقين هذا في عدة مواضع:
١ – " أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ". الزمر ٢٢.
٢ – " أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس (أي يرى به الحق) كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ". الأنعام ١٢٢.
٣ - " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله (أي يكله إلى نفسه) يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ". الأنعام ١٢٥.
" لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن شرح الصدر ما هو فقال صلى الله عليه وآله وسلم نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح صدره وينفسح قالوا فهل لذلك من إمارة يعرف بها؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والإستعداد للموت قبل نزول الموت[٣٣] ".

شبهة الجبر:

حيث أن هذه الآيات الشريفة تبين أن نور اليقين وشرح الصدر والهداية

[٣٣] - مجمع البيان.

هي من الله (تعالى) وكذلك الظلمة وضيق الصدر والضلال بالنسبة للكافر - فهي أيضاً من الله، فقد تطرح في ذهن القاريء شبهة الجبر فيقول:
بناءاً على هذا فإن المؤمن لا يستحق مرتبة ودرجة كما أن الكافر لا يستحق العقوبة والعذاب لأن هداية المؤمن وضلال الكافر ليسا باختيارهما.
وإضافة إلى ذلك فإن إضلال الكافر يتنافى مع العدل... والخلاصة قد يتبنى شخص هذا الرأي الموافق لمذهب الجبر وهو خلاف الوجدان القطعي والعقل الصريح والأدلة النقلية...
من هنا كان لا بد من بيان معنى الهداية باختصار ليتضح أن الأمر ليس جبراً.

الهداية التكوينية للجميع:

الهداية التي هي من أفعال الله على نوعين: تكوينية وتشريعية.
الهداية التكوينية الإلهية هي أن الله الحكيم هدى جميع أنواع المخلوقات وأرشدها إلى طريق الوصول إلى الكمال حيث تظهر خصائصها وأرشدها إلى طريق الحصول على ما ينفعها والتخلص مما يضرها وقد أودع في كيانها هذه الهداية حين خلقها كما يتضح ذلك جيداً لدى التأمل في رشد أنواع النباتات ونموها وظهور خصائصها، والتأمل في أبدان الحيوانات وكيفية توالدها وتناسلها، وتأمين المسكن، والبحث عن الغذاء، وإظهار خصائصها مثل صناعة العسل وبناء خلايا النحل وتشير إلى هذا النوع من الهداية الآية الشريفة:
" الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ". طه ٥٠.
أي: أعطى كل شيء من أنواع المخلوقات الصورة المناسبة لحاله

المنسجمة مع كماله المطابقة للمنفعة المرتبطة به ثم هداه ودلّه على كيفية الإستفادة من ذلك والوصول إلى الكمال اختياراً وبالطبع.

" والذي قدّر فهدى ". الأعلى ٣.

الهداية التشريعية عامة وخاصة:

الهداية التشريعية الإلهية هي من الأمور التي يجب أن تنفذ باختيار الإنسان وإرادته وهي التي تؤمن سعادته الحقيقية وحياته بعد موته وهي عبارة عن الإعتقادات الصحيحة والأعمال الحسنة التي من أجلها كان مجيء الأنبياء والأمر والنهي وقيام القيامة والثواب والعقاب.

هذا النوع من الهداية على قسمين: عامة وخاصة.

الهداية العامة بمعنى الإرشاد وإراءة طريق النجاة والسعادة مثلاً: فقير يريد أن يوصل نفسه إلى شخص كريم ليقضي حاجته، أنت تعطيه العنوان الصحيح والعلامة المميزة لمنزله وتخبره بالوقت الذي يمكنه أن يراه فيه بحيث أنه إذا التزم بذلك سيصل إلى ما يريد.

الهداية الخاصة هي أن لا تكتفي بإعطاء العنوان والعلامة بل تذهب معه وفي الطريق تقوي أمله وتذلل له الصعاب وتساعده إلى أن يحقق ما أراد.

الفطرة، الأنبياء، الكتب السماوية - هداية عامة:

الهداية العامة هي تلك التي أودعها الله تعالى في فطرة الإنسان وكيانه وأوضحها أكثر وأتم حجته على جميع الخلق بإرسال الأنبياء والكتب السماوية.

بعبارة ثانية جعل سبحانه جميع الإعتقادات الصحيحة وتمييز الأعمال السليمة والميل إليها أمراً فطرياً للإنسان ثم أرسل النبي والكتاب لشرح تلك الفطريات وبيانها وتشير إلى هذه المرتبة من الهداية الآية الشريفة: " إنا هديناه

السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ". الدهر ٣.
وكذلك قوله تعالى: " وهديناه النجدين ". البلد ١٠.
وهذا النوع من الهداية يتساوى فيه جميع البشر وحجة الله على جميع الخلق تامة ولا عذر لأولئك الذين لم يسيروا ويصلوا إلى النجاة والسعادة إلا أولئك الذين يعانون نقصاً عقلياً أو لم يصل إليهم أبداً ما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن الكريم، هذان القسمان معذوران ولأن حجة الله عليهم ليست تامة فهم لا يعذبون ويعاملهم الله برحمته الواسعة، هذان القسمان يوصف كل منهما بأنه " جاهل قاصر " فيما يوصف كل من أولئك الذين رفضوا الهداية بأنه " جاهل مقصّر ".
بعد هذه المقدمة يعلم أن الآيات التي ورد فيها أن الله تعالى لا يهدي الكافرين، الفاسقين، الظالمين، يراد بها الهداية الخاصة والمرتبة الثانية من شعب الفضل الإلهي وهي زائدة على العدل.

متى تحصل الهداية الخاصة:

حينما يقبل العبد الهداية الأولى ويؤمن، يشمله الله بألطافه ويؤيده بتوفيقه ويحفظه من وسوسات إبليس إلى أن يصل إلى حيث ينير قلبه بنور اليقين ويمنحه شرح الصدر...
وفي المقابل إذا لم يقبل العبد الهداية الأولى بل أنكرها يكله الله إلى نفسه جزاءاً لأعماله ولا يهبه التوفيق ويختم على قلبه ويتركه في ظلمات الجهل والغفلة إلى حيث يصل إلى مرحلة لا يرى فيها الحق أصلاً ولا يبحث عنه ويصبح قلبه مركز وسوسة الشيطان... هذا معنى إضلال الله وهدايته.
" يثبت الله الذين آمنوا (قبلوا الهداية الأولى) بالقول الثابت (العقائد

الصحيحة) في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين (الذين لم يقبلوا الهداية الأولى) ويفعل الله ما يشاء ". إبراهيم ٢٧.

" والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ". محمد صلى الله عليه وآله وسلم ١٧.

" ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه ". التغابن ١١.

" والذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ". يونس ٩.

" والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ". العنكبوت ٦٩.

" فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ". الأنعام ١٢٥.

جزاء القبول والإنكار:

بعد التأمل في هذه الآيات ونظائرها يتضح جيداً أن زيادة الإيمان ونور اليقين وشرح الصدر وسائر التوفيقات والألطاف المعنوية وباختصار: " الهداية الإلهية الخاصة " تأتي في مرتبة بعد الهداية الأولى التي هي عامة وأن كل إيجابيات الهداية الخاصة هي جزاء للإيمان والتسليم في مقابل الحق وكما أن ما يقابلها وهو ضيق الصدر وظلمة القلب وعمى الباطن والإضطراب الداخلي والوساوس الشيطانية وباختصار: " الإضلال الإلهي " كل ذلك يأتي بعد إنكار الحق وعدم قبوله وهو جزاء له كما يقول الحق سبحانه:

- " وما يضل به إلا الفاسقين ". البقرة ٢٦.
- " كذلك يضل الله الكافرين ". غافر ٧٤.
- " ويضل الله الظالمين ". إبراهيم ٢٧.
- " والله لا يهدي القوم الظالمين ". التوبة ١٩.

- " ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ". النحل ١٠٧.
- " إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ". النحل ١٠٤.
هذه الآيات الشريفة وغيرها صريحة في أن الهداية الخاصة والإضلال الإلهي (الترك) ليس جزافاً وبلا مبرر وما لم توجد قابليته وطلب حقيقي له فلن يتحقق أي أن العبد إذا قبل مرتبة من مراتب الهداية الأولى التي أعطيت للجميع يصبح جاهزاً لمرتبة من مراتب الهداية الثانية (الخاصة).

الطريق إلى الهداية الخاصة:

إذا حصل الإلتزام والعمل بما تقدم حول مرض الشك من التخلية والتحلية والفكر والذكر تصبح جاهزية الإنسان واستعداده كاملين لتلقي إفاضة أعلى مراتب الهداية الخاصة وهي عطاء نور اليقين ومراتبه والخلاصة كل شيء يهتم العبد به ويحصل على الإستعداد له ويصبح هو مطلبه الحقيقي فإنه يعطى له، إذا كان مطلبه هو درجات الهداية يرفع، وإن كان ما يطلبه دركات الإضلال يهوي.
" كُلاًّ نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ". الإسراء ٢٠.

ما يجب اليقين به:

تقدم ذكر وجوب تحصيل اليقين وعظمته وآثاره ومراتبه وطريق الوصول إليه وتقدم أيضاً أن من الواجب أن يكون اليقين صادقاً وتاماً بحيث يسطع نوره في جميع أنحاء القلب وتتجلى فيه آثاره والآن يجب أن نعرف ما هي الأمور

التي يجب اليقين بها وعليه نقول:
كل الأمور الإعتقادية التي أمر في القرآن المجيد والسنة القطعية بالعلم بها واليقين بها، يجب تحصيل اليقين بها وقد أشير إليها في هذا الكتاب وتذكر هنا كفهرست لتذكير القاريء:

١ - التوحيد الذاتي:

أي اليقين بأن حضرة واجب الوجوب الذي جميع عالم الخلق مخلوق له والكل قائم به ومرتبط به هو " واحد " بالتفصيل الذي مر في بحث الشرك " فاعلم أنه لا إله إلا هو ". محمد صلى الله عليه وآله ١٩.

٢ - التوحيد الصفاتي:

وهو اليقين بأن جميع الصفات الكمالية مثل العلم، السمع، البصر، الكلام، الأزلية، الأبدية وكل كمال مرجعه إلى علمه وقدرته كل ذلك عين ذاته المقدسة جل جلاله:
" وهو بكل شيء عليم ". الحديد ٣. " وهو على كل شيء قدير ". الحديد ٢.
" إنه هو السميع البصير ". الإسراء ١. أي يعلم بجميع ما يرى وما يسمع دون حاجة إلى عين وأذن كالإنسان.
" وكلم الله موسى تكليماً ". النساء ١٦٤ أي أوجد كلاماً بدون حاجة إلى آلة أي لسان كلسان الإنسان.
" وتوكل على الحي الذي لا يموت ". الفرقان ٥٨ أي كان دائماً وسيكون وينبغي اليقين بأن ما في المخلوقات من صفات كمالية إلهية كله من عطائه سبحانه:

" الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ". الروم ٥٤.
" فجعلناه سميعاً بصيراً ". الإنسان ٢.
" علّمه البيان ". الرحمن ٤ أي الكلام والخلاصة أن أي مخلوق نال حظاً من أصل الحياة وشؤونها وكمالات مراتبها فكل ذلك فيض عطاء الحي بالذات جلاله.
ويجب اليقين أيضاً بأن كل نوع نقص وضعف في المخلوقات لا وجود له في الله مثلاً ليس جسماً، ليس مركباً من شيء، ومن هنا فلا يرى بالعين الحيوانية، وليس له مكان بل هو خالق المكان، ليس محلاً لعروض أية حادثة، لا سبيل للنوم والتعب والضعف إليه، فهي من لوازم الجسم وباختصار: لا يتصور فيه جل جلاله أي نوع احتياج ومن هنا يعلم أن الصفات الإلهية لا حدّ لها ولا نهاية أي لا يمكن القول إن قدرة الله وعلمه هما إلى الحد الفلاني.
وبعد اليقين بتوحيد الصفات الإلهية يجب السعي لكي يكون هذا اليقين صادقاً أي مستقيماً وصحيحاً بمعنى أن يستقر نوره في القلب ويتغلب على الوهم والخيال ثم تظهر آثاره.
مثلاً الشخص الذي يعتقد أن الله عالم وقادر بلا حدود ورحيم بعباده... يجب إذن أن يكون اعتماده عليه وأن يكون خوفه ورجاؤه مرتبطين به وراضياً بما أراد لعبده كما أن من لوازم اليقين بأن الله لا مكان له وهو مع المخلوقات في كل مكان، حياء حضور الله في الجلوة والخلوة وعليه يجب أن لا يصدر منه ما ينافي أدب العبودية.
" وهو معكم أينما كنتم ". الحديد ٤.
كما أن من لوازم اليقين بأن العزة والعلم والعظمة والكبرياء من الصفات

المختصة بالله أن لا يرى الموقن لنفسه ولا لأي من المخلوقات عزة وعظمة، فإذا كان في قلبه ذرة من كبر فإن ذلك يتنافى مع اليقين المذكور، بل يجب أن يكون دائماً وفي جميع الأحوال متواضعاً.

" وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ". الجاثية .٣٧

٣ - التوحيد الأفعالي:

وهو اليقين بأن كل ما ارتدى لباس الوجود في عالم الخلق وكل خاصية تظهر من أي مخلوق بل كل حالة وعارضة هي جميعها من الله. مثلاً: نبات ينبت من الأرض، الله أنبته، شكله وجماله من الله، رائحته العطرة من الله، خاصية الشبع، أو الشفاء، التي تحصل في بدن الحيوان والإنسان من أكله هي من الله، النحلة، أصل وجودها من الله، ذكاؤها وتمييزها في بناء خليتها ووقوعها على النبات العطر، والعسل الذي تعطيه، كل ذلك من الله، وكذلك أثر العسل في البدن وشفاؤه بعض الأمراض أيضاً في ظروف خاصة، ذلك أيضاً من الله، بدن الإنسان أصل خلقه وتركيبه العجيب من الله، وظهور خاصية كل عضو منه هو أيضاً من الله، الحالات العارضة عليه كالنوم، واليقظة، الصحة والمرض، الحزن والفرح، الضحك والبكاء، الثراء والفقر، العزة والذل، النصر والهزيمة، الخوف والأمن، الشبع والجوع تمييز الحسن والقبح، القوة والضعف وغير ذلك، كله من الله إلى حدّ أن كل الأفعال الإختيارية أي الأعمال التي يقوم بها الإنسان باختياره وإرادته كالمشي والجلوس، والكلام، الكتابة، الأكل، الشرب، اللبس، البناء، الخياطة، وسائر الأمور الإرادية كل ذلك متوقف على إدامة القدرة والإرادة والمشيئة الإلهية والخلاصة كل عمل يريد الإنسان القيام به متوقف على دوام إعطاء الله له الحياة

والقدرة وأن يكون ذلك الفعل مطابقاً لمشيئة الله وإرادته وإلا فلا يتحقق. إن خالق جميع الكائنات والعوارض والحالات هو الله كما أن الرازق لها هو الله ومحييها ومميتها هو الله ولا شريك له في أصغر تصرف في عالم الوجود، وكل شيء بإذنه ومشيئته وإرادته وقضائه وقدره، (بيده الملك)، والتصرف بشكل عام في عالم الخلق، هو فقط بيد الله المقتدرة. وأما اليقين الصادق بالتوحيد الأفعالي فإن الشخص الذي أيقن بأن كل شيء هو من الله بالتفصيل الذي مر، فإن كل ما يصيبه إذا كان مريحاً أي نعمة فيجب أن يشكر الله " وما بكم من نعمة فمن الله ". النحل ٥٣. وإذا لم يكن مريحاً فيجب أن يصبر لأن فعل الله ليس بلا حكمة ومصلحة وهذا البلاء اختيار " ولنبلوَنّكم بالشر والخير فتنة ". الأنبياء ٣٥.

وكثيراً ما يكون هذا البلاء كفارة ذنب أو سبباً في حصول ثواب وكل بلاء يصيب أي إنسان في هذا العالم فإنه سيعوّض.

" ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ". البقرة ١٥٥ - ١٥٧. وكذلك من أيقن أن الله هو الرازق وأدرك بحكم العقل وصريح القرآن أن رزق كل متحرك هو في عهدة خالق العالم " وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ". هود ٦. وكما أن أصل الرزق من الله فكذلك تقسيمه وقلته وكثرته بحسب مصالح المرزوقين هو أيضاً من الله " نحن قسمنا بينهم معيشتهم ". الزخرف ٣٢. من أيقن بذلك فإن من لوازم هذا اليقين عدم الحرص وعدم العجلة في طلب الرزق والقناعة بما يصل إليه وعدم الحزن على ما فاته وأن لا يحمل هم المستقبل وأن لا يحسد من كان نصيبه من الرزق أكبر وأن لا يستبد به الغضب لذلك أبداً.

وأيضاً من أيقن أن وصول أي شخص إلى أي خير ونجاته من أي شر كل ذلك من الله والأسباب كلها مسخرة وخاضعة لإرادة الخالق سبحانه فإن من لوازم هذا اليقين دوام حالة الإنقطاع إلى الله أي أن لا يخضع ولا يتذلل لأي سبب في أية حالةٍ ونتيجةَ أي حاجة وأن لا يمد يد الحاجة إلا إلى الله تعالى ولا يدعو غيره وعندما يُقبل على أي سبب فيجب أن يكون أمله في ذلك هو فقط مسبب الأسباب وأن يكون منتظراً لظهور ما أراده الخالق عز وجل.

ومن لوازم اليقين بأن المنعم في عالم الوجود هو الله فقط أن لا يكون في القلب محبة غير الله وآثار قدرته بمعنى أن لا تكون في القلب محبة أي مخلوق على نحو الإستقلال وأن يكون سبب كل حب في القلب أنه آثار قدرة الله ونعمة المنعم جل جلاله " أنا سعيد بالعالم لأن العالم السعيد منه وأنا عاشق لجميع العالم لأن كل العالم منه[٣٤] ".

وما ذكر من آثار التوحيد الصفاتي والأفعالي فهو نموذج وتذكير، وما لم يذكر يترك لنور فطرة القاريء العزيز وقلبه المنير وتأمله في آيات القرآن المجيد.

٤ - اليقين بالعدل:

بعد اليقين بالتوحيد الأفعالي يجب اليقين بأن الله عادل في جميع الأفعال أي أنه لا يوجد في عالم التكوين وعالم التكليف مثقال ذرة ولا أقل من ذلك من الظلم والجور أما في عالم التكوين فكل مخلوق قد أعطي كل ما له قابلية واستعداد له وكلما يطلبه لسان حاله " وآتاكم من كل ما سألتموه ". إبراهيم ٣٤. الذي وضع الأقاليم السبعة أعطاها كل ما يليق بها ولو أن للحمار

[٣٤] - مضمون بيت شعر فارسي.

قرني ثور لما ترك الحمار إنساناً سالماً ولو أن للقط المسكين ريشاً لمحى العصافير من الوجود[٣٥] وأما في عالم التكليف فأولاً جعل سبحانه الإنسان في أعماله قادراً مختاراً ليكون حراً مستطيعاً في طريق الخير والشر ثانياً فإن جميع التكاليف التي كلف الله بها الإنسان عبر النبي لاجتياز طريق الخير هي دون طاقة الإنسان ولم يكلف عز اسمه بأي تكليف لا يطاق.

وثالثاً: وقد تجلى كمال عدله في آثار أعمال الإنسان أي الثواب والعقاب أو الأجر على الطاعة والعقاب على المعصية بحيث أن عمل الإنسان يحسب له حتى إذا كان أقل من ذرة.

" فمن يعمل مثقال ذرة خير يره، ومن يعمل مثقال ذرة شر يره ". الزلزلة ٧ ـ ٨.

بل وعد الله أهل الإيمان بالفضل أي الأجر الذي يزيد على الإستحقاق، بل إنه سبحانه سيعطي بغير حساب.

" إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب ". الزمر .١٠

٥ ـ التوحيد في الطاعة والعبادة:

أي اليقين بأنه لا أحد غير الله يستحق الطاعة والعبادة.

ومن لوازم هذا اليقين أن لا يطيع الموقن أي مخلوق إلا الذي أمر الله بطاعتهم من النبي والإمام ونائب الإمام والوالدين والزوج بالتفصيل الذي ذكر في كتاب " الذنوب الكبيرة " كما أن من لوازم اليقين بالتوحيد في العبادة ترك عبادة كل مخلوق على نحو الإستقلال بالتفصيل الذي تقدم في بحث الشرك أو

---

[٣٥] ـ مضمون ثلاثة أبيات.

على نحو الإشتراك بالتفصيل المذكور في بحث الرياء من " الذنوب الكبيرة ".
" أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه ". يوسف ٤٠.
يجب أن يكون العبد خالصاً لله وتقدم معنى الإخلاص في العبودية في بحث الشرك ومما تقدم - هنا - من آثار اليقين الصادق يُعلم جيداً أن الأخلاق الفاضلة والملكات الحسنة التي هي من العبادات القلبية ومن لوازم الإيمان وتحصيلها واجب كالخوف والرجاء، التسليم، الإخلاص، وأمثالها - هي جميعاً أوراق وأغصان شجرة اليقين الطيبة بحيث إذا استقام في القلب اليقين الصادق بالتوحيد وشع نوره في جميع أرجائه تتجلى فيه جميع هذه الصفات الحسنة كما أن أضدادها أي عدم الورع، اليأس، عدم الحياء، الكبر، القسوة، الجزع، الكفران، الحرص، العداوة، عبادة الهوى وأمثالها هي جميعاً أوراق وأغصان شجرة الكفر الخبيثة.
ومن هنا كان التأكيد كثيراً في هذا الكتاب على لزوم تحصيل اليقين الصادق على أمل أن يعمل القاريء العزيز بما ذكر وأن لا يقر له قرار قبل أن يصل إلى اليقين الصادق ويتحلى ببركته بالأخلاق الفاضلة التي تتضمن سعادة الدنيا ودرجات الآخرة ويتطهر من الرذائل، وقد أشير في هذا الكتاب إلى كل واحد من الأخلاق الحسنة وإذا أراد القاريء المزيد من الإطلاع عليها فليراجع كتاب المحجة البيضاء أو كتاب " معراج السعادة[٣٦] ".

٦ - اليقين بالنبوة:

بعد اليقين بأن الله حكيم بحيث أن أصغر جزء من عالم الوجود لم يخلق بدون حكمة وغرض وبعد التفكير وإدراك أن نتيجة الخلق والغاية منه في الأرض

[٣٦] - معراج السعادة للمولى النراقي (فارسي).

هو الإنسان أما النتيجة والغرض من خلق الإنسان فإذا كان هو هذه الحياة المادية المحدودة بحيث يخلق من تراب ثم يدفن فيه ويفنى فإن خلقه - إذا كان الأمر كذلك - عبث ولغو بل هو أكبر ظلم يقع عليه لأن من لوازم الحياة المادية للإنسان تلك الإبتلاءات المختلفة والمشقات المتنوعة من الأمراض وما شابه كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

بعد هذا يوقن العقل بأن للبشر حياة خالدة تنتظره وهو لن يفنى بالموت وستظهر في ذلك العالم الأبدي سعادته التامة التي هي الغرض والهدف من إيجاده ثم يعلم أن على الله تعالى أن يعرّف شخصاً من بني البشر تفصيل الحياة الأبدية وطريق الوصول إلى السعادة الدائمة ليقوم هذا الشخص بإطلاع سائر البشر على العالم الأبدي ويفيض عليهم من علمه ويرشدهم إلى طريق سعادتهم ويضع القوانين الكفيلة بتنظيم حياتهم الإجتماعية ويقيم لهم الحكومة الإلهية.

ولأجل أن يطمئن الناس إلى صدق أقواله ويوقنون أنه من قِبل الله تعالى يجب أن تكون معه قدرة من القدرة الإلهية اللامتناهية يعجز سائر الناس عن مثلها أي ينبغي أن تكون معه معجزة.

وبعد العلم بما ذكر والرجوع إلى القرآن المجيد والعلم بأنه معجزة بالنحو الذي تقدم في بحث الكفر، يعلم بيقين أن سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم نبي بالحق ورسول الله وكل ما قاله صدق وما أمر به فإطاعته واجبة ومن جملة الأخبار التي وردت في القرآن المجيد والسنّة القطعية المتواترة التصريح بأنه آخر الأنبياء ولن يرسل الله رسولاً بعده وقد بيّن ما يحتاج البشر لعلمه إلى يوم القيامة ومن لوازم هذا اليقين أنه إذا ادعى بشر النبوة بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال أنا مرسل من الله يوحى إليّ ويجب أن يتبعني الناس فهو يقيناً كاذب وادعاؤه باطل، وإذا صدرت منه - نتيجة مجاهدة النفس والرياضة الباطلة وتعلُّم بعض العلوم الغريبة - بعض الأعمال العجيبة والغريبة

أو أخبر بأمور خفية فذلك سحر قطعاً ومن الشياطين وإذا أمكن الحؤول دون فساده فإن قتله واجب.

٧ - الإمامة:

بعد الرجوع إلى الأدلة العقلية والنقلية التي ذكرها العلماء في بحث الإمامة (راجع كتاب كفاية الموحدين) وبعد الرجوع إلى الروايات المتواترة القطعية يعلم علم اليقين أن أوصياء رسول الله اثنا عشر نفراً، الثاني عشر منهم أي حضرة المهدي بن الحسن العسكري منحه الله عمراً طويلاً حتى يظهره عندما يرى المصلحة في ذلك ويملأ الأرض عدلاً، وإمامته عليه السلام متصلة بالقيامة وكل واحد من الأئمة الإثني عشر الذين تجمع كل الفرق الإسلامية على فضيلتهم وعلمهم وورعهم كانت له معجزات قاهرة دوّنتها الكتب (راجع كتاب مدينة المعاجز) ومن لوازم اليقين بإمامة هؤلاء العظماء اليقين بصدقهم وأن قولهم هو قول رسول الله كما أن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو من الله إذن ما هو ثابت وقطعي هو أن قبول توجيهاتهم وإطاعتهم واجب ومن جملة ذلك الإخبار بظهور المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف بعد غيبة طويلة بالتفصيل الذي ورد في كتب الروايات وتتساوى عند أهل اليقين الغيبة والحضور اللهم عجّل فرجه.

٨ - البرزخ:

أي الحياة الإنسانية منذ ساعة الموت وحتى القيامة " ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ". المؤمنون ١٠٠.

يجب اليقين بأن الإنسان لا يفنى بالموت، وموت الإنسان هو الفصل بين الروح والبدن والقطع التام لعلاقة الروح بالجسد وبعد هذا الفصل يتلف الجسد في التراب ويتلاشى ثم يصبح تراباً بينما تحل الروح في بدن شفاف له شكل الجسد الدنيوي وصورته وهو لشدة شفافيته لا يرى بالعين الحيوانية.

ويجب اليقين بأن بعد الموت ستوجه للإنسان أسئلة عن عقائده وأعماله، ويجب أن يعد أجوبة عليها، وأما معرفة كيفية ذلك وتفصيله فليس واجباً.
ويجب اليقين أيضاً بأن في البرزخ - إجمالاً - ثواباً وعقاباً، أي أن الإنسان يواجه آثار عقائده وأفعاله، حتى يصل إلى القيامة الكبرى والثواب الكلي الإلهي والجنة الخالدة، أو نعوذ بالله العذاب الدائم، وكثير من المؤمنين الذين كانت لهم أعمال قبيحة يسوى حسابهم بذلك العذاب البرزخي بحيث أنهم في القيامة لا يواجهون أية مشكلة وقد ذُكرت شؤون البرزخ في كتاب المعاد فليراجع.
ولازم اليقين المذكور السعي في تمتين المعتقد الحق بحيث يستقر في القلب حتى لا يبقى الإنسان عند السؤال عن معتقده (في القبر) مرتبكاً وحيراناً وكذلك لكي يصبح من المبادرين إلى كل عمل خير من الواجبات والمستحبات... والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن لا يغفل لحظة واحدة عن الزرع لحياته بعد الموت لأن الوقت ضيق وموسم الحصاد قريب لأن المسافة بين الإنسان وحصاد نتائجه ليس إلا الموت فقط وهو يتهدد الإنسان في كل لحظة.

٩ - اليقين بالقيامة:

أي اليوم الذي يبعث فيه الأولون والآخرون من البشر ويُجمعون، اليوم الذي يطمس فيه نور الشمس والقمر، اليوم الذي تنسف فيه الزلازل المتلاحقة الجبال وتذرها كالرمل الناعم، اليوم الذي تبدل فيه الأرض والسماء، اليوم الذي يتسلم فيه فريق بكل اطمئنان وسرور وابيضاض وجهٍ صحائف أعمالهم بأيمانهم، وفريق آخر يتسلمونها بمنتهى الشدة والإضطراب والحزن واسوداد الوجه بأيسارهم، وباختصار إنه اليوم الذي وصفه رب العالمين بأنه " عظيم " بحيث أن عظماء الدين كانوا يخافون عند ذكره ويحزنون ويبكون

ويصرخون، وحقاً إن كل صاحب قلب متيقظ يقرأ أوصاف ذلك اليوم في القرآن المجيد ويتأملها لا يقر له قرار، ويصرف قلبه عن حب الدنيا وشهواتها ويتعوذ بالله تعالى من هول ذلك اليوم.
ولا داعي أبداً لمعرفة متى تقوم القيامة وكذلك معرفة بعض خصائص ذلك اليوم وكيفياته فإنه لا لزوم له ولا نفع بل إن السؤال عن ذلك لا مبرر له لأنه من العلوم المختصة بالله.
نعم ينبغي العلم ببعض مواقف ذلك اليوم التي صرح بها القرآن المجيد بل يجب اليقين بها، وهذه المواقف عبارة عن الميزان، الصراط، الحساب، الشفاعة، الجنة والنار كما سيأتي.

١٠ - الميزان:

" والوزن يومئذٍ الحق ". الأعراف ٨.
يجب اليقين بأن جميع العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال لكل شخص توزن في يوم القيامة أي يوزن مقدار قيمة الصالح منها ومقدار الطالح واستحقاق العقوبة عليه، وفي صورة اختلاطها يوزن كل منهما ليتضح أيها أكثر وقد تكرر ذكر الميزان في يوم القيامة في القرآن المجيد أما كيفية الميزان وكيف توزن الأعمال وبأية واسطة يتم هذا التدقيق فلا داعي أبداً للعلم به وحيث أنه لم يرد بيانه في القرآن أو السنة القطعية فإن السؤال عنه في غير محله.
الواجب هو أن يبحث كل شخص بحثاً دقيقاً في أعماله وعقائده وأخلاقه وأقواله وسلوكه ويزنها بميزان القرآن وآل محمد عليهم السلام وأيضاً: يدقق في ذنوبه في الدنيا ويتوب من كل ذنب توبة تطهره منه قبل أن يحضروه في موقف الميزان.

في تفسير المنهج أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " وكان أعرابي حاضراً فقال: يا رسول الله: وهل يعتني الله في القيامة بمثقال ذرة ويعاقب عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعم فبكى الأعرابي وارتفع نشيجه وهو يقول: واسوأتاه وافضيحتاه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عرف قلب الأعرابي الإيمان[٣٧] ذلك أن علامة الإيمان واليقين بالميزان الإلهي في القيامة هي التفكير بالذنب وفضيحته هناك، لا الأسئلة العبثية مثل السؤال عن جنس صحيفة الأعمال وكيفية ثبت الملائكة وتدوينهم للأعمال، وكيف تدوّن جميع أقوال الشخص وأفعاله، مع الغفلة عن أن هذه كلها أمور ملكوتية وهي فوق الإدراك البشري، ويجب على الإنسان الإيمان بها إجمالاً واليقين بما أخبر به الله تعالى منها والسعي في محو ذنوبه بالتوبة، تلك الذنوب التي دونت في صحيفة عمله وتسلّم له غداً.

١١ - الصراط:

من الواجب اليقين بأنه يوضع جسر على جهنم، ويجب أن يمر الخلائق عليه، وكل من هو من أهل جهنم يسقط عن ذلك الجسر في جهنم وكل من هو من أهل الجنة يجتازه بسلامة حتى يصل إلى الجنة، والعبور على الصراط مختلف فريق يمر كالبرق الخاطف وفريق آخر يمر على الأيدي والأرجل وفريق ثالث يسحب نفسه ويحبو على الأرض كالطفل... ويجعل الله الصراط للمؤمنين عريضاً وللعاصين ضيقاً، وسهولة الصراط ووعورته وظلمته ونوره متناسبة مع حالات المارّين عليه.

وقد ورد في الروايات أن عقبات المحشر هي على الصراط وأهمها عقبة

---

[٣٧] - هذا النص بالمضمون وتجد ما يشبهه - ولعله هو - في نور الثقلين وتفسير كشف الأسرار (فارسي) في تفسير سورة الزلزلة.

المرصاد التي يحاسب فيها على المظالم أي ظلم الناس بعضهم بعضاً، ويتجلى فيها العدل الإلهي وقد ذكر في الروايات أنه يؤخذ من حسنات الظالم بمقدار ظلمه ويعطى للمظلوم، وأن بعض أهل الإيمان الذين يقفون عاجزين في هذه العقبة يرضي الله تعالى خصماءهم وينجيهم بفضله.

١٢ - الكوثر والشفاعة:

يجب اليقين بالكوثر وهو نهر في الجنة أو حوض في المحشر طوله ما بين إيلة في البصرة وصنعاء في اليمن، ماؤه أشد بياضاً من الحليب وأحلى من العسل وأطيب من المسك، حصاه الياقوت والمرجان والزبرجد فيه من الأقداح عدد نجوم السماء يوجد ريحه من مسيرة ألف عام تفوح في وجه الشارب منه كل فائحة حتى يقول الشارب منه: ليتني تركت ههنا لا أبغي بهذا بدلاً ولا عنه تحويلاً، وهو لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والساقي عليه أمير المؤمنين عليه السلام[٣٨].

وأما الشفاعة فيجب الإعتقاد بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام يشفعون يوم القيامة لأهل الإيمان ممن هم على الحق إلا أن بعض الذنوب الكبيرة أحاطت بهم. ومعنى شفاعتهم لهم أنهم يطلبون لهم من الله النجاة ثم يأخذونهم ويوصلونهم إلى الجنة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث متواتر: ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي[٣٩].

قال بعض العلماء يستفاد من الروايات أن شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام خمسة أقسام:

---

[٣٨] - حق اليقين للسيد عبد الله شبر ج ٢ / ٢٠١.
[٣٩] - بحار الأنوار ج ٨ / ٣٤ وحق اليقين ٢ / ٢٠٦.

١ - شفاعتهم للخلاص من هول المحشر وهذه الشفاعة تشمل كل الأمم.
٢ - شفاعتهم لبعض أهل الإيمان حتى يدخلوا الجنة بغير حساب.
٣ - شفاعتهم لرفع العذاب عن مؤمنين استحقوا العذاب بسبب الكبائر.
٤ - شفاعتهم لإخراج بعض المؤمنين من النار وقد سقطوا فيها بسبب ذنوبهم.
٥ - شفاعتهم لرفع درجة ومنزلة المؤمن الذي تكون درجته متدنية ويجب أن نعلم أن الشفاعة ثابتة في الآيات والروايات لعدة أصناف أي أن الله يأذن لهم بالشفاعة منهم الأنبياء، الشهداء الملائكة، العلماء، والمؤمنون الكاملون.

ومن الجدير بالذكر أن الإعتقاد بالشفاعة ليس سبباً للغرور والجرأة على الذنب كما قال بعض الجهلة ظناً منهم أن الشفاعة تشمل كل شخص مهما كانت ذنوبه وتجيره من العذاب. لو كانت الشفاعة كذلك لأصبحت سبباً في الجرأة على الذنب والواقع أن الشفاعة مشروطة بالموت على الإيمان والدين الحق ومن هو الذي يتيقن أنه سيموت مؤمناً خصوصاً مع ما ورد في القرآن والأخبار من أن ارتكاب الذنوب وعدم الورع وعدم التقيد بالأحكام الشرعية ينتج عنها زوال الإيمان والموت على الكفر.

ثم أن الإنسان نتيجة كثرة ذنوبه قد لا تشمله الشفاعة في أوائل مواقف القيامة، بحيث يبقى سنين في جهنم ثم يخرج منها بسبب الشفاعة، والحاصل أن الأمل بالشفاعة سبب لتقوية الرجاء بالرحمة الإلهية مع الخوف أي الخوف من أن لا تناله الشفاعة، ومن هنا أُمرنا أن نطلب من الله أن تنالنا الشفاعة.

اللهم ارزقنا شفاعة محمد وآل محمد.

١٣ - الجنة:
من الواجب اليقين بأن الله أعد لأهل الإيمان مقراً متناسباً مع عظمته وفيه أنواع الضيافات من الأطعمة والأشربة والألبسة والمرئيات والمسموعات والزيجات وأنواع اللذائذ الروحية كلقاء العظماء وفي مقدمتهم سيدنا محمد وآل محمد عليهم السلام بالتفصيل الذي ذكر في القرآن المجيد والروايات وهذه النعم واللذائذ هي بحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ما دام في الدنيا ومن هنا فإن السؤال عن حقيقة الجنة ومكانها وبعض خصوصياتها سؤال في غير محله لأن ذلك فوق إدراك البشر وما لم يصل إليه لا يمكنه إدراكه.
نعم هناك عدة أمور حول الجنة يمكن فهمها وقد أشير إليها في القرآن المجيد ويتم هنا التذكير بها باختصار ودون ذكر شواهد:
أحد هذه الأمور أن الجنة أبدية أي أن كل شخص يتم إسكانه في الجنة فلا مدة لبقائه فيها ولا حد - بل يبقى فيها دائماً ولا تسلب منه -.
الثاني أنه ليس في الجنة تضاد وتنافر لا في الذوات ولا بحسب الحالات أما في الذوات فإن جميع أهل الجنة منسجمون مع بعضهم وهم في قمة المحبة والأنس بحيث أن سعادة ودلال ونعمة كل منهم هي عين سعادة الآخر إلى حد أن من الملذات الروحية لأهل الجنة هي الإلتقاء والتقابل وتبادل الأحاديث، والخلاصة لا وجود في الجنة لشخص واحد ليس منسجماً مع الآخر وأما في الحالات فإن أهل الجنة وبمجرد دخولهم الجنة في فرح وسرور لا تواجههم لحظة غم وحزن وهم أيضاً من أول دخولها يمتلكون قوة وقدرة لا يعتريها آن من الضعف، وهم شباب لا سبيل للشيخوخة إليهم.

وأصحاء سالمون لا مرض يصيبهم، مرفهون متنعمون مستغنون لا يشعرون بأية حاجة أعزاء لا يعرفون شيئاً من الذل، إنهم في حياة لا موت فيها أبداً، وسلاطين لا يُعزلون والسلطنة على الدنيا كلها لا قيمة لها أمام سلطنة أهل الجنة لأن سلطان الدنيا يتهدده في كل لحظة العزل والمرض والموت، ثم إنه يموت قبل أن يصل إلى واحد من ألف من أمنياته، بينما سلطنة أهل الجنة نموذج للسلطنة الإلهية وهي أبدية لا ينغصها شيء والسلطان يحكم هناك في كل لحظة بما أراد. لغرفته ألف باب تدخل عليه الملائكة - بعد استئذان - من كل باب يحبونه ويهنّونه وإذا أراد استضافة جميع أهل الجنة فباستطاعته ذلك وقد جاء في الروايات وصف سعة ملك أهل الجنة[٤٠] بالتفصيل وتكفي الدقة في هذه الآية:

" وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ". الإنسان ٢٠ وقد وصف القرآن المجيد الدنيا وملكها بالنسبة إلى الآخرة باللهو واللعب.

ثم إن النعم واللذائذ في الجنة ليست على نسق واحد، بل في كل لحظة - إذا شاء - نعمة جديدة ومظهر مفرح جديد.

وفي كل جمعة يزداد كل شخص سبعين ضعفاً، ولا يوجد في لذاتها أي نوع من الألم أي أن من هو من أهل الجنة يستطيع أن يباشر في أي وقت اشتهى الأكل والشرب والمواقعة وسماع الأنغام المطربة ويمكنه أن يباشر ذلك باستمرار، ولا يعرف أهل الجنة الجوع والعطش وألم المعدة وعدم الإشتهاء والتعب والضعف وليس فيهم شيء من القاذورات وأوساخ، حتى الشعر والظفر لأن كل النعم خالصة وصافية[٤١].

---

[٤٠] - تجد بعض ذلك في تفسير نور الثقلين ج ٢ / ٤٩٩ - ٥٠٠.

[٤١] - قد يستغرب أحدنا بعض هذه الأمور، إلا أن ذلك يشبه استغراب الجنين في بطن أمه أنه ذات يوم سيتغذى بفمه بدلاً من السرة، ومن الخطأ قياس أمور الآخرة بمقاييس الدنيا. (المترجم).

وأيضاً فإن جميع الموجودات في الجنة وبتأثير الحياة التامة والحقيقة لأهل الجنة تتجلى - الموجودات - كلها بالشعور بحيث أن طيور الجنة تتحدث مع أهل الجنة وأوراق الأشجار تتحرك عندما يهب نسيم الجنة وتغمر النغمات المفرحة لتسبيحها الله وحمدها له قلوب أهل الجنة بالسرور.

كنت أحب كثيراً أن أكتب في أوصاف الجنة أكثر من هذا، ولكن حيث أن البناء على الإختصار والفهرسة يقتنع بهذا المقدار ولكن أيها القاريء العزيز " متى كان السماع كالمشاهدة " إسعَ في هذه الأيام القليلة التي أنت فيها في الدنيا لتجهز نفسك للوصول إلى مضافة الله هذه، أي تجنب كل نوع من أنواع التلوث والقذارة وأنواع الذنوب وقوِّ روحك بأنواع الطاعات والعبادات واصقل مرآة قلبك وركز فيه محبة الله وأحبائه، وتقرب إليه عن هذا الطريق، وباختصار تطهر لتحشر في محل طاهر مع الطاهرين، قم بواجب العبودية لله لتتصل إلى السلطنة الإلهية كن غلامه وعبده لتصبح السيد المطلق.

١٤ - النار:

يجب الإعتقاد بالنار في عالم الآخرة وهي حفرة لا نهاية لها فيها أنواع الآلام والعذاب والصعوبات الخارجة عن إدراك البشر بالتفصيل الوارد في القرآن المجيد والروايات وهي في مقابل الجنة - التي هي المضافة الإلهية - السجن الإلهي للمتمردين والطاغين من الجن والإنس. وأيضاً في مقابل الجنة التي هي دار السلام ومحل اللينين وأصحاب القلوب اللينة والطاهرين فإن النار مستشفى ومحل الغلظاء والفظين والمرضى فالأشخاص الذين لا مجال لعلاج مرضهم القلبي وهم الذين ماتوا على الكفر

والعناد وهؤلاء - بحكم العدل الإلهي الذي هو وضع كل شيء في مكانه المناسب - يجب أن يبقوا في المستشفى دائماً ولأنهم لا وجود فيهم لشيء من الإنسانية فيجب أن يسلط عليهم مالك النار.

والأشخاص الذين يمكن علاج مرضهم وهم الذين يوجد في قلوبهم إيمان بالحق إلا أنهم لا يمتلكون القلب السليم أي ابتلوا بالمرض القلبي والطباع الحيوانية والأفعال غير الإنسانية باختصار العاصون، هؤلاء يجب أن يبقى كل منهم في النار بمقدار ما يطهر من تلك الأدران إلا إذا نالته الشفاعة قبل الوصول إلى الحد الذي قرره له العدل الإلهي وطهرته وأوصلته إلى الجنة.

ويجب أن نعلم أن ما تقدم ذكره حول أهل الجنة فإن لأهل النار ضده فهم دائماً جائعون عطاشى لا كجوع الدنيا وعطشها، بل إنهم نتيجة ضغط الجوع يرضون بأكل الزقوم[٤٢] ولأجل تهدئة عطشهم يرضون بشرب الحميم (ماء النار المغلي) وهم من حيث المكان في ضنك وضيق يشبه ضيق المسمار المثبت في الحائط، وهم في ظلام دامس بحيث لا يرى أحدهم يده، وأما الغصة والحسرة والذلة التي يقيمون فيها فهي خارج عن إدراك البشر.

وباختصار فإن أنواع العذاب في النار التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والروايات هي بحيث إذا اطلع عليها الإنسان وقرأ عنها بقلب خالٍ من القسوة يقف شعر بدنه ويقشعر جلده وينخلع فؤاده، ومن هنا كان عظماء الدين عندما يتذكرون ذلك يصرخون ويولولون وأحياناً يغمى عليهم لشدة التأثر والدهشة، وذكر أحوالهم في ذلك يوجب الإطالة ويجب العلم أيضاً بأن في النار بالإضافة إلى أنواع العذاب الجسدي عدة أنواع من العذاب الروحي وهي

---

[٤٢] - جاء في القرآن الكريم حول الزقوم: " ... شجرة الزقوم، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ". الصافات ٦٢ و ٦٤ - ٦٥. " إن شجرة الزقوم، طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون ". الدخان ٤٣ - ٤٥.

أشد من الجسدي، ومنها اليأس من النجاة.
توضيح ذلك أن المذنبين الذين يدخلون النار إذا كان في قلوبهم إيمان بالله ولو بمقدار ذرة فإنهم يوضعون في الطبقة الأولى من جهنم وهي سجن مؤقت إلى أن يتم إخراجهم بعد انقضاء المدة المقررة لهم، أما أولئك الذين ليس في قلوبهم ذرة من الإيمان فإنهم يوضعون في الطبقات السفلى والسجن المؤبد والأبدي، وهي ست طبقات وكلما كان شقاء أحدهم أشد كانت دركته دون غيره وأسفل إلى أن يصل الأمر إلى أسفل السافلين الذي هو مكان المنافقين، وبعد أن يوضع كل شخص في طبقته المناسبة تغلق أبواب الطبقات السبع وتقفل وينادى بحيث يسمع الجميع هنا الحبس الأبدي ولا يخرج أحد أبداً والأمر الآخر - من أنواع العذاب النفسي - التضاد والتناكر (التخاصم) بين أهل النار أي أنهم جميعاً بعضهم لبعض أعداء، وعندما يلاقي بعضهم الآخر يواجه بالشتم والسب واللوم والتقريع وما أشد جراحات اللسان التي يسمعونها من الشياطين ومالك النار ومساعديه، إنها تبلغ حداً بحيث أنهم لا يصرخون من العذاب والصعوبات، بل يصرخون من خوف الشماتة التي يفوق أثرها أثر العذاب.
وأمر آخر: حسرة أهل النار عندما يرون أهل الجنة ودرجاتهم ويدركون حرمانهم هم، عندما تحرق نار الحسرة قلوبهم وتطغى على كل ألوان العذاب التي يرزحون تحت وطأتها.
قد يقال: إن الإعتقاد بالأمور الإعتقادية المذكورة في غاية الصعوبة ومشكل جداً بحيث أنه قل أن يصل إنسان إلى مرتبة اليقين بها، فالمؤمنون الذين لم يصلوا إلى مرحلة اليقين، ما هو حالهم في الآخرة؟ ونقول في الجواب: الأمور الإعتقادية التي يجب اليقين بها والتي ذكرت الأدلة والبراهين العقلية والنقلية عليها في هذا الكتاب كما ذكر أيضاً

طريق الوصول إلى مقام اليقين بها بحيث لو أن شخصاً وفّق بين طريقته ومسلكه وبين ما هو في هذا الكتاب مما أخذ من القرآن والأخبار فإنه سيصل قطعاً إلى مقام اليقين، وطبعاً فإن العمل بهذه التعاليم مكلف وهو الجهاد الأكبر كما عبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويجب أن يعلم القاريء:

بدون المشقة لا سبيل إلى الكنز ويفوز بالأجرة من قد عمل[٤٣].

إن التدين وعبادة الهوى لا يجتمعان.

تريد الحصول على الدنيا وتريد الدين الصحيح فلن تحصل على أي منهما والفلك ليس عبداً لك[٤٤].

وبمقدار ما وفق الله فقد بذل الجهد أن تكتب هذه المطالب ببيان سهل ليتمكن الجميع من فهمها وعلى القاريء العزيز أن يقرأ ما تقدم وما سيأتي بدقة ويكرر قراءتها ويسأل أهل العلم عن كل جملة لا يفهمها ليهتدي إلى طريق سعادته ونجاته، عندها يطبق بين طريقته ومسلكه ويكيف نفسه مع المشقة والتعب وعدم الراحة وعدم الأنس على أمل الوصول إلى الإستقرار الأبدي بالتفصيل الذي مر.

" صبروا أياماً قليلة أعقبتهم راحة طويلة " (نهج البلاغة) أي أن أهل الإيمان يصبرون في أيامهم التي يقضونها في الدنيا على مشقة مخالفة النفس فيعوَّضون عن ذلك براحة لا تنتهي.

أما السؤال عن حال أولئك الذين لم يصلوا إلى مقام اليقين، في عالم ما بعد الموت، فبالرغم من أن جوابه قد اتضح مما تقدم إلا أنه نظراً لأهمية

---

٤٣ - مضمون بيت شعر تقدم ذكره.

٤٤ - مضمون بيت شعر فارسي.

السؤال ينبغي بيان ذلك هنا بشكل أوضح:

ثلاثة أمور قبل الإجابة:

١ ـ للنجاة من العذاب والمشاق في الآخرة مراتب:
النجاة من الخلود في النار (الحبس المؤبد).
النجاة من الدخول في الطبقة الأولى (الحبس المؤقت).
النجاة من الأهوال والتقصير والإنقطاع في مواقف القيامة.
النجاة من الآلام وأنواع العذاب في البرزخ.
النجاة من كل المزعجات منذ ساعة الموت وإلى الأبد.
٢ ـ ثواب الإنسان وعقابه في عالم ما بعد الموت من ثلاث جهات:
الأولى: عقائده أي الأشياء التي اقتنع بها وعقد قلبه عليها ومال إليها وارتبط بها.
الثانية: أخلاقه وطباعه وعاداته والأمور الحسنة التي محلها القلب بالتفصيل الوارد في هذا الكتاب.
الثالثة: أقواله وأفعاله اليومية التي يؤديها ببدنه.
٣ ـ بشكل عام فإن العذاب والمشقات تواجه الإنسان في عالم ما بعد الموت إذا كان مقصراً لا قاصراً.
بعد العلم بهذه الأمور الثلاثة نقول:
النجاة من الخلود في النار، هي للشخص الذي عرف في الدنيا الله خالق العالم وجزم بهذه المعرفة وأحلها مكاناً في قلبه ومال إليها، ثم مات على

إيمانه القلبي بالله، والخلاصة أن لا يكون مضطرباً ومتردداً بالنسبة للإعتقاد بالله بل يكون جازماً مطمئناً بأن له رباً هو خالقه وخالق جميع المخلوقات، ويموت على العلاقة القلبية به مثل هذا الشخص إذا ابتلي بالعذاب الكثير وألقي في جهنم بسب تقصيراته في العقائد الأخرى وأخلاقه وأفعاله فإنه لن يخلد في النار وقد صرح القرآن الكريم في عدة مواضع بأن الخلود في النار هو لصاحب التقصير في الإيمان بالله (لا لصاحب القصور الناتج عن ضعف عقلي فإن هذا لا يعذب) الذي ضيع فطرته التي وهبها الله له وهي الإيمان بالله وأصبح منكراً لله وطغى وتمرد، والواقع أن القصور لا يتصور في منكر الله بل إن كل شخص منكر لله هو مقصر لأنه لا شيء يحجبه عن إدراك أنه مخلوق لله وعبد وعاجز أمامه إلا طغيان النفس والتمرد فإن الإيمان بالله فطري لكل إنسان وأما بالنسبة إلى سائر العقائد التي تقدم ذكرها والتي يجب اليقين بها كما مر فإن المكلف معذب إذا قصر في الوصول فيها إلى درجة اليقين أما إذا كان قاصراً فإنه لا يعذب ومثال القاصرين في هذا المجال أولئك الذين يعيشون خارج البلاد الإسلامية ولا يسمعون طيلة عمرهم اسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن وسائر العقائد المذكورة، أو أنهم إذا سمعوها لا يستطيعون البحث عنها والوصول إلى درجة اليقين أو أنهم باستطاعتهم ذلك إلا أنهم ماتوا قبل الوصول إلى نتيجة، هؤلاء جميعاً لا يعذبون لأجل عدم اعتقادهم بالمعتقد الصحيح.

أما العذاب على الطبائع المنافية والحيوانية فحيث أن هذه الأمور لا يتصور القصور فيها كما لا يتصور في الإيمان بالله فإنهم يعذبون لأجلها، وذلك لأن جود كل طبع غير سليم في الإنسان سببه تكرار الأعمال غير السليمة وباستطاعة الإنسان أن يقضي على هذه الطبائع عن طريق ترك الأعمال القبيحة مثلاً الحسد وجوده في الإنسان ورسوخه سببه تكرار الحسد ولو أنه ترك الحسد نهائياً لزال منه ذلك الطبع الشيطاني.

وأما العذاب على الأقوال والفعال المنافية، فكلٌ ما كان الإنسان مقصراً فيه فإنه يعذب لأجله وكل ما كان قاصراً فيه فلا يعذب لأجله توضيح ذلك أن كثيراً من الأقوال والأفعال حرام وكل إنسان ليس مبتلى بضعف عقلي يدرك قبحها مثل الزنا، اللواط، السرقة، الظلم، الخيانة والجناية... وهذه الأمور يعذب الإنسان لأجلها حتى إذا كان لم يسمع بحرمة ذلك في الدين.
وأما الأعمال المنافية التي لا يدرك العقل البشري ضررها وفسادها فإذا كان الإنسان لم يسمع بحرمتها في الدين ولم يكن سبب عدم سماعه هو التقصير فإنه لا يعذب لأجلها لأنه بمقتضى العدل الإلهي لا يعذب شخص ما لم تتم الحجة عليه.
ومن الجدير بالذكر أن ما ذكر حول أن القاصرين لا يعذبون لعدم اعتقادهم بالعقائد الصحيحة إنما هو خاص بما إذا لم يعتقدوا بالعقائد الباطلة عن تقصير وإلا فإنهم معذبون[٤٥] ثم إنهم محرومون من الدرجات والآثار المترتبة على العقائد الصحيحة، وكذلك بالنسبة لأفعالهم فإنهم لا يعذبون إذا تركوا الأفعال الحسنة عن تقصير ولكنهم أيضاً لا يثابون طبعاً هذه القاعدة مطابقة للعدل ولكن لله الكريم أفضالاً.
وقد يشمل بفضله القاصرين فيمنّ عليهم ببعض مراتب الثواب كما أن له أفضالاً على أهل الإيمان منها أنه كلما قرر مؤمن القيام بعمل خير ثم منعه من ذلك مانع فإن الله الكريم يتفضل عليه بثواب ذلك العمل الذي لم يعمله.
" واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً ". النساء ٣٢.

[٤٥] - أي لو أن شخصاً لم يبلغه الإسلام ولم يكن باستطاعته معرفة شيء عنه ولكنه وبسبب تقصيره أصبح شيوعياً فإنه لا يعذب لعدم اعتقاده بالله تعالى والإسلام إلا أنه يعذب لعقيدته الباطلة التي اعتقد بها عن تقصير (المترجم)..

اللهم عاملنا بفضلك.

كونوا مع الصادقين:

حيث أن كل خير ورحمة وفيض من المبدأ الفياض جل جلاله يصل إلى أي شخص فهو بواسطة الأئمة المعصومين من آل محمد عليهم السلام وهذا عند الإمامية من المسلمات ويتضح تفصيله جيداً بالرجوع إلى فقرات الزيارة الجامعة، بناءاً عليه فإن على الشخص الذي يريد نور اليقين أن يزيد من القرب المعنوي والإتصال الروحي والإرتباط القلبي بآل محمد عليهم السلام.

وإذا حاذى قلبه المزكى تلك الأنوار الإلهية سيصبح قَطعاً محلاً لهذه الأنوار كانعكاس الشمس في المرآة المصقولة التي تقع في مقابلها من هنا جاء في القرآن الكريم الأمر بالإرتباط المعنوي بعظماء الدين قال تعالى:

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ". التوبة ١١٩.

الصدق في مراتبه الستة:

المراد من الكون مع الصادقين هو الموافقة والمتابعة والمراد من الصدق مراتبه الستة أي الصدق في القول، الفعل، العزم، الوفاء بالعهد، تساوي الظاهر والباطن، والصدق في مقامات الدين بالتفصيل المذكور في سورة القمر[٤٦].

إذن هم معصومون:

حيث أمر في هذه الآية الشريفة بالكون مع الصادقين فلا بد يقيناً من أن يكونوا معصومين لأن العقلاء يرفضون الأمر بإطاعة الشخص الذي يجوز عليه

[٤٦] - يراجع كتابي " حقائق من القرآن ". حقائقي أزقرآن (فارسي).

الخطأ (أي قد يخطيء) وقد تبنى هذا الرأي الفخر الرازي في تفسيره، يقول:
من المسلم أن المراد بالصادقين هم المعصومون، ومن المتيقن وجود معصوم في الأمة دائماً لتتبعه الأمة، ولكن حيث أننا لا نعرف المعصوم فالمراد هنا بالصادقين جميع الأمة[٤٧].
ونقول في الجواب إن الشيعة الإثني عشرية عرفت المعصوم بواسطة الروايات المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأدلة العقلية والنقلية التي ذكرت في بحث الإمامة فإن المعصومين إثنا عشر أولهم الإمام علي بن أبي طالب وآخرهم الإمام المهدي عليه
السلام وهو حي غائب عن الأنظار بسبب بعض المصالح وسيأتي اليوم الذي يظهر فيه ويملأ ذلك العظيم الأرض عدلاً.

النبي يعرفنا بالصادقين:

ذكرت في تفسير نور الثقلين وفي تفسير البرهان روايات تصرح بأن المراد بالصادقين هم المعصومون من جملة ذلك ما ورد في الصافي عن الإكمال:
عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في أثناء كلام له في جمع من المهاجرين والأنصار في المسجد أيام خلافة عثمان: أسألكم بالله أتعلمون أن الله عز وجل لما أنزل: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " فقال سلمان يا رسول الله عامة هذه الآية أم خاصة، فقال عليه السلام: أما المأمورون فعامة المؤمنين

---

[٤٧] - النص هنا مترجم على الفارسية وتجد كلام الفخر الرازي مطولاً وردّ العلامة المجلسي عليه في البحار ج ٢٤ / ٣٣ - ٣٧. ولم أورد النص بحرفيته لأنه طويل ولا حاجة إليه. (المترجم).

أمروا بذلك، وأما الصادقون فخاصة لأخي علي عليه السلام وأوصيائي من بعده إلى يوم القيامة؟ قالوا: اللهم نعم[٤٨].

تمسكوا بسفينة النجاة:

من جملة الأحاديث الصحيحة والمتفق عليها بين الشيعة والسنة قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

مثل أهل بيتي كسفينة نوح من تمسك بها نجا ومن تخلف عنها غرق.

ولا شك أن المراد بالتمسك بأهل البيت عليهم السلام هو ذلك الإتصال الروحي الذي يحصل ببركة الموافقة والمتابعة والمحبة.

ومحبة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقبول ولايتهم اللذين ورد وجوبهما في آيات القرآن المجيد والروايات المتواترة إنما هما لاستفادة الخلق من أولئك العظماء التي من أهمها إفاضة نور اليقين.

" قل ما سألتكم من أجر (المودة في القربى) فهو لكم ". سبأ ٤٧.

" ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ". النساء ٦٩.

يعلم من هذه الآية الشريفة بوضوح أن نتيجة حب أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم والإلتزام بولايتهم هي الإتصال الروحي بعظماء الدين، والأثر المهم لهذا الإتصال، هو الوصول إلى مقام اليقين.

[٤٨] - نور الثقلين ج ٢ / ٢٦٢ نقلاً عن كمال الدين وتمام النعمة للصدوق رحمه الله.

وفي زيارة عاشوراء نقرأ: فأسأل الله الذي أكرمني بمعرفتكم ومعرفة أوليائكم ورزقني البراءة من أعدائكم أن يجعلني معكم في الدنيا والآخرة.
وهذا المضمون : المعية " مع آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم (أي الكون معهم والإتصال الروحاني بهم كثير في الزيارات والأدعية).

مع كتاب شفاء الصدور:

قال في كتاب " شفاء الصدور " في شرح هذه الجملة: (من زيارة عاشوراء) المعية (الكون) على ثلاثة أقسام:
الأول: المعية القيومية التي هي عبارة عن الإحاطة بوجود الشيء بحيث يكون الإنفكاك عنه محالاً بمعنى أن المقيم[٤٩] إذا رفع علاقة الإقامة عنه فإنه يفنى وينعدم وهذه هي معية الله مع الخلق " وهو معكم أينما كنتم " قال " نظامي[٥٠] " ونعم ما قال:
أحاط علمك بالكائنات، نحن بك قائمون لأنك قائم بالذات.
الثاني: معية المصاحبة التي هي عبارة عن ترافق شيئين وانضمامهما إلى بعضهما بحسب الجسمانية (مادياً) كاجتماع إنسان مع إنسان أو ضم خط إلى خط.
الثالث: المعية الروحانية التي هي عبارة عن الموافقة في الأخلاق والأطوار والمشابهة في السلوك والأفعال وعموم هذه المعية قليل الوقوع جداً[٥١]

[٤٩] - المراد بالمقيم هنا ما تحققت به القيومية، أي قيام الإنسان وقوامه وقيوميته بالله تعالى فالله مقيم له.
[٥٠] - اسم شاعر وما بعده مضمون شعره.
[٥١] - أي نادراً ما يصبح الشخص مشابهاً لأهل البيت عليهم السلام في كل شيء.

وما هو مطلوب السائل هو أن يوصله الله تعالى إلى معية أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمعية الروحانية في الدنيا والآخرة وهذا المعنى لا يتحقق إلا بأن تترقى النفس في الكمالات ورفع الرذائل عنها وتزيل عن مرآة القلب صدأ الشقاء بمصقول العلم والعمل حتى تصبح متلألئة بحسب مرتبتها من الظلال المقدسة لتلك الأنوار وعندها تصل قهراً (حتماً) إلى درجة المعية إذن روح هذه المعية هي تلك المعية الأولى وهي لا تتحقق بدون السنخية أبداً[٥٢].

ولأن مقدمة هذا العمل هي ولاية تلك الذوات القدسية والأنوار الإلهية بحقيقة الولاية وتمام المتابعة كان من المناسب بعد إظهار تلك الدرجة أن يذكر الله الحق فإن هذا الذكر كرامة كبيرة ووسيلة عظيمة لنيل هذا المقام وصفة جمالية يوجب (ذكر الله) تحريك سلسلة الإجابة وأن يطلب من الله هذا المقام ولهذه الملاحظة استعمل فاء التفريغ بعد ذكر الولاية والبراءة وأثبت الله صفة الإكرام بالمعرفة لتكون موهبة لجلب أمثال ذلك الشرف وإعطاء أشباه تلك الكرامة[٥٣].

[٥٢] - أي أن المعية التي يطلبها قاريء زيارة عاشوراء عندما يقول: " ... أن يجعلني معكم... " هي معية روحانية، وروح هذه نفس تلك المعية القيومية الأولى لأن هذه المعية الروحانية لا تتحقق إلا بالمعية القيومية ومن هنا كانت القيومية روح الروحانية، لأن ما يصل إلى الموالي لأهل البيت عليهم السلام حق الولاء لا يصله منهم وإنما يصله من الله تعالى بواسطتهم فهم عباد الله المخلصون، المكرمون ثم إن المعية الروحانية هذه لا تتحقق إلا بوجود سنخية أي تشابه في السنخ (بضم السين وهو الأصل) أي أن يكون الموالي مشابهاً لأهل البيت عليهم السلام في أصل كل شيء مثلاً في أصل التوحيد، في أصل عبادة الله تعالى، في أصل حسن الخلق وهكذا... وطبيعي أن المقصود بالمشابهة في الأصل هو أن يتحلى بدرجة تتناسب معه وإلا فإن الوصول إلى مرتبتهم عليهم السلام ليس في مستطاع غيرهم من البشر ولذلك كانت مودتهم دليل الإلتزام بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (المترجم).

[٥٣] - المقصود بهذه الفقرة كما يلي: ولأن مقدمة هذا العمل أي مقدمة تطهير النفس (رفع الرذائل إلخ) هي ولاية أهل البيت عليهم السلام، ثم متابعتهم (اتباعهم) بعد موالاتهم... لأجل ذلك كان من المناسب لزائر الإمام الحسين عليه السلام بزيارة عاشوراء بعد أن عبر عن ولايته ومتابعته (أظهر هذه الدرجة) أن يذكر الله تعالى فيقول: فأسأل الله الذي أكرمني بموالاتكم إلخ لأن هذا الذكر كرامة كبيرة ووسيلة لنيل هذا المقام (المعية الروحانية) أي أن الله تعالى هو مصدر التوفيق وذكره يوجب تحريك سلسلة الإجابة لأنه المصدر والمبدأ ومنه يطلب الزائر أن يسلكه في منظومة أوليائه الذين يصلون إلى مرتبة المعية الروحانية مع أعاظم أوليائه من ذرية المصطفى الذين هم الطريق إلى الله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولهذه الخصوصية في ذكر الله تعالى استعملت فاء التفريغ " فأسأل الله " بعد ذكر الولاية والمتابعة بقوله: إني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم إلخ، فهو عبر عن ولايته ومتابعته ثم ذكر الله تعالى وأثبت له صفة الإكرام بالمعرفة " أكرمني بمعرفتكم " ليكون ذلك منطلقاً لطلب نعم مشابهة (المترجم).

انتهى ما نقل من كتاب شفاء الصدور.

هذه آثار المعية ولوازمها:

ما ذكره المحقق المذكور هو بعض لوازم المعية الروحانية وآثارها، أما حقيقة ذلك المقام وأما حقيقة سائر آثاره فهي فوق إدراك من لم يصل إلى هذه المرتبة وأيضاً فإن الوصول إلى مثل هذه المرتبة ليس أمراً كسبياً (اكتسابياً) بل هو موهبة إلهية وما على العبد القيام به هو أن يهيء نفسه بالتزكية أي التخلية والتحلية والفكر والذكر بالتفصيل الذي مر وبشدة الطلب ودوام الإلتجاء بالتفصيل الذي سيأتي.

ولاية المؤمن الكامل:

كذلك ورد في بعض الآيات والروايات الأمر بمودة المؤمن الكامل والشيعي الخالص وولايته[٥٤] وذلك للإستفادة من نور يقينه لأن المؤمن الكامل

[٥٤] - من جملة ذلك ما في عيون أخبار الرضا عليه السلام باب ما كتب للمأمون من محض الإيمان ص ١٢١ وفي " الخصال " نظير ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام كما في البحار (الطبعة القديمة) ج ٧ / ٦٨: ويجب الولاية لأولياء آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين مضوا على منهاج نبيهم ولم يغيروا ولم يبدلوا مثل سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وأبي الهيثم بن التيهان وسهل بن حنيف وعبادة بن الصامت وأبي أيوب الأنصاري وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين وأبي سعيد الخدري وأمثالهم رضي الله عنهم والولاية لأتباعهم وأشياعهم والمهتدين بهداهم السالكين منهاجهم رضوان الله عليهم ورحمته: أقول: تجد الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في البحار الطبعة الجديدة ج ٢٧ / ٥٢ وتجد حديث الإمام الرضا عليه السلام في الجزء ١٠ / ٣٥٨، وفي سفينة البحار (ولي) ج ٢ / ٦٩١ باختلاف يسير.

في منتهى الإتصال بآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمتصل بالمؤمن يصبح بنتيجة صحبته وعلاقة المحبة به وأداء حقوق الأخوة الإيمانية مرتبطاً به ارتباطاً روحياً والمتصل بالمتصل هو أيضاً متصل... إذن يوفق للإتصال.

حديث الإمام الصادق عليه السلام مع غلامه:

" إن أبا عبد الله عليه السلام كان عنده غلام يمسك بغلته إذا هو دخل المسجد فبينما هو جالس ومعه بغلة إذ أقبلت رفقة من خراسان فقال له رجل من الرفقة: هل لك يا غلام أن تسأله أن يجعلني مكانك وأكون له مملوكاً وأجعل لك مالي كله فإني كثير المال من جميع الصنوف إذهب فاقبضه وأنا أقيم معه مكانك فقال: أسأله ذلك.

فدخل على أبي عبد الله فقال: جعلت فداك تعرف خدمتي وطول صحبتي فإن ساق الله إلي خيراً تمنعنيه؟ قال أعطيك من عندي وأمنعك من غيري، فحكى له قول الرجل فقال: إن زهدت في خدمتنا ورغب الرجل فينا قبلناه وأرسلناك فلما ولى عنه دعاه فقال له: أنصحك بطول الصحبة ولك الخيار فإن كان يوم القيامة كان رسول الله صلى الله عليه وآله متعلقاً بنور الله وكان أمير المؤمنين عليه السلام متعلقاً برسول الله وكان الأئمة متعلقين بأمير المؤمنين وكان شيعتنا متعلقين بنا

يدخلون مدخلنا ويردون موردنا.
فقال الغلام: بل أقيم في خدمتك وأؤثر الآخرة على الدنيا وخرج الغلام إلى الرجل فقال له الرجل: خرجت إليّ بغير الوجه الذي دخلت به فحكى له قوله وأدخله على أبي عبد الله عليه السلام فقبل ولاءه وأمر للغلام بألف دينار[٥٥] فعُلم إذن أن المتصل متصل.

الإعراض عن الكفار ابتعاد عن ظلامهم:

وهناك آيات وروايات ورد فيها النهي عن صداقة أهل الشك والنفاق والجهل والعناء والعلاقة بهم. بل ورد الأمر بالإعراض عنهم لكي يبقى المؤمن محفوظاً من ظلمتهم وكدورتهم الباطنية، وخلاصة القول إذا وفق الإنسان لمصاحبة أهل ؟؟؟ وصداقتهم والعلاقة القلبية بهم فإنه يؤمل من ذلك كل خير ويصل في النتيجة إلى مقام اليقين.

ومن المسلم به - وهو أمر وجداني - أن النفس الإنسانية تأخذ عادات المصاحب والرفيق وصفاته مثلاً:

إذا رأيت أن رفيق سفرك وهو صديق حميم، مضطرب شديد الإهتمام

---

[٥٥] - منتهى الآمال (فارسي) ج ٢ / ٣٣١ آخر سيرة الإمام الصادق عليه السلام والنص هنا منقول من البحار ٤٧ / ٥٠ - ٥١ عن الإمام الجواد عليه السلام، وقد قال المحدث الجليل الشيخ عباس القمي رحمه الله بعد إيراده هذه القصة في منتهى الآمال ما ترجمته: " هذا الفقير (عباس القمي) يعرض لحضرة الإمام الصادق عليه السلام: يا سيدي، أنا مذ عرفت نفسي رأيتها على بابكم وقد نبت لحمي وجلدي على نعمتكم ورجائي الواثق وأملي الصادق أن تحفظوني (وتحتفظوا بي) في آخر عمري هذا ولا تبعدوني عن باب داركم وإني دائماً أردد بلسان الذل والإنكسار:

عن حماكم كيف أنصرف   وهواكم لي به شرف
سيدي لا عشت يوم أرى   في سوى بابكم أقف. (بتصرف).

بالسفر الذي عزمتما عليه وهو دائماً يفكر فيه، منصرف إلى إعداد الزاد وكل اللوازم. حتى السلاح الذي قد تحتاجانه لمواجهة اللصوص، إذا رأيته كذلك، فإن حالته سوف تؤثر فيك قطعاً، وينبعث الخوف في نفسك وتمضي معه جنباً إلى جنب لتهيئة كل ما يلزم وكذلك إذا كان لك رفيق شديد الخوف من سفر الآخرة وهو دائم التفكير بزاد هذا السفر المرعب وتهيئة زاده، وهكذا إذا كان رفيقك صاحب توكل أو سائر الصفات الكمالية فإنك أنت أيضاً ستستفيد من هذه الصفات كما أنه إذا كان لك بدلاً منه رفيق من أهل الغفلة فإنه سيجعلك من الغافلين وإذا كان بخيلاً وحريصاً فسيجعلك أيضاً مثله[٥٦].

مجالسة أصحاب العقل والدين:

ولتأكيد تأثير الرفيق يشار إلى بعض الآيات والروايات:

" واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم ". الكهف ٢٨.

وقد أوصى أمير المؤمنين عليه السلام ابنه محمد بن الحنفية بقوله: " ومن خير حظ المرء قرين صالح، جالس أهل الخير تكن منهم[٥٧] ".

وقال عليه السلام: " إن لقمان قال لابنه يا بني صاحب العلماء وأجلسهم وزرهم في بيوتهم لعلك إن تشبههم فتكون منهم[٥٨] ".

---

[٥٦] - ذات يوم وقعت في يدي وردة عطرة في الحمام قلت أمِسكٌ أنت أم عبير فإني سكرت من عطرك السحري قالت كنت وردة ولا قيمة لها إلا أنني جلست مدة مع الورد وأثَّر بي كمال الجليس، ولولا ذلك لكنت التراب الذي كنت.
(مضامين أبيات من الشعر الفارسي).

[٥٧] - من لا يحضره الفقيه.

[٥٨] - كنز الفوائد للكراجكي، أقول ولعل الصواب " وجالسهم ".

وقال عليه السلام: " جالس العلماء تسعد، جالس العلماء تزدد علماً، جالس الحكماء تزدد حلماً جالس الفقراء تزدد شكراً[٥٩] ".
وقال عليه السلام: " صحبة الأخيار تكسب الخير كالريح إذا مرت على الطيب حملت طيباً ".
عليك بمقاربة ذي العقل والدين. معاشرة ذوي الفضائل حياة القلوب.
ليس أدعى لخير وأنجى من شر من صحبة الأخيار وعن الإمام الصادق عليه السلام: " واطلب مؤاخاة الأتقياء ولو في ظلمات الأرض وإن أفنيت عمرك في طلبهم ".
ويقول الإمام السجاد عليه السلام: في دعاء أبي حمزة: " أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني ".
ويفهم من هذه الجملة أن التوفيقات وتمام السعادة في مجالسة أهل اليقين.
والروايات في هذا المجال كثيرة وفي ما ذكر كفاية. المهم هو معرفة علامات أهل اليقين لتهتدي إليهم بل وتنعم بفيض مجالستهم لأن مدّعي مرتبة العلم واليقين كثيرون، وما أكثر الأشخاص الذين هم غرقى في ظلام الجهل والعجب وهم مع ذلك يدعون الهداية والإرشاد.

علامات أهل اليقين:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لا تجلسوا عند كل عالم إلا عالم يدعوكم من الخمس إلى خمس:
١ - من الشك إلى اليقين.

---
[٥٩] - غرر الحكم.

٢ - ومن الكبر إلى التواضع.
٣ - ومن الرياء إلى الإخلاص.
٤ - ومن العداوة إلى النصيحة.
٥ - ومن الرغبة إلى الزهد[٦٠] ".

ومن الجدير بالذكر أن المراد بالدعوة إلى اليقين والتواضع والإخلاص والزهد والنصيحة ليس مجرد الدعوة باللسان لأن الدعوة باللسان فقط لا فائدة منها بل تعطي نتيجة معكوسة لأن الشخص الذي يدعو غيره باللسان إلى اليقين والتواضع والإخلاص إلا أنه بحسب الفعل والحال يكون من أهل الشك والرياء والكبر والعداوة وحب الدنيا... فإن هذه المفاسد ستزيد في ذلك الشخص الآخر بنسبة أكبر وسيقول: لو كان هذا صحيحاً لالتزم هو بها.

وإذا لم يعرف بأن من وعظه لا يلتزم بمواعظه فإن ظلمة شك الواعظ ورياءه وتكبره ستترك أثرها في وعظه، فالمراد بالدعوة إذاً الدعوة إلى المحاسن المذكورة بواسطة القول والعمل وببركة نورانية باطنه أي قلبه ليتأثر جليسه ومحدثه بتلك الآثار المذكورة كما وردت الإشارة إلى ذلك في حديث آخر.

قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام: من نجالس قال عليه السلام من يذكركم بالله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله[٦١].

يقول الإمام الباقر عليه السلام:
لمجلس أجلسه إلى من أثق به أوثق في نفسي

[٦٠] - الإختصاص للشيخ المفيد.
[٦١] - أصول الكافي باب مجالسة العلماء حديث ٣.

من عمل سنة[٦٢].
ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: إعلموا أن صحبة العالم واتباعه دين يدان الله به وطاعته مكسبة للحسنات ممحات للسيئات وذخيرة للمؤمنين ورفعةٌ فيهم في حياتهم وجميل بعد مماتهم[٦٣].
قال في الوافي: المراد بالعالم هنا الإمام المعصوم أو أي عالم يعمل بعلمه[٦٤].
وكما تقدم فإن العالم الذي يعمل بعلمه ويتجاوز هوى نفسه يحصل على اتصال بالأئمة المعصومين وتصبح صحبته صحبة للإمام عليه السلام.

صورة الأصدقاء عند الموت:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: انظروا من تحادثون فإنه ليس من أحد ينزل به الموت إلا مثل له أصحابه في الله إن كانوا أخياراً فخياراً وإن كانوا أشراراً فشراراً وليس أحد يموت إلا تمثلت له عند موته[٦٥].
وتؤيد هذا الحديث رواية عن أنس بن مالك قال:
جاء رجل من أهل البادية وكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية، يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله متى قيام الساعة فحضرت الصلاة فلما قضى صلاته قال: أين السائل عن الساعة قال أنا يا رسول الله قال فما أعددت لها قال والله ما أعددت لها من كثير عمل صلاة ولا صوم إلا أني أحب الله ورسوله فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: المرء مع من أحب[٦٦].

[٦٢] - المصدر السابق حديث ٥.
[٦٣] - الكافي كتاب الحجة حديث ١٤.
[٦٤] - عبارة الوافي هنا بالمضمون.
[٦٥] - الوافي عن الكافي باب من تجب مصادقته ومصاحبته.
[٦٦] - سفينة البحار ج ١.

وفي حديث آخر: المرء محشور مع من أحب " من أحب شيئاً حشره الله معه ولو كان حجراً[٦٧] ".
حقاً إن أهل اليقين الذين تتوفر فيهم الأوصاف المذكورة يندر وجودهم خصوصاً في زماننا بالأمس كان شيخ يجول دائماً بالمصباح في المدينة ويقول:
مللت الغول والوحش وأتمنى أن أجد إنساناً، قلت له: ومن وجد، ثم هل يوجد هذا؛ لقد فتشنا، قال: من وجد أنه لا يوجد فهو أمنيتي[٦٨].
عن الإمام الصادق عليه السلام: المؤمنة أعز من المؤمن والمؤمن أعز من الكبريت الأحمر فمن منكم رأى الكبريت الأحمر[٦٩].
يقول أبي بصير قال لي الإمام الصادق عليه السلام: يا أبا محمد الإسلام درجة؟ قلت: نعم، قال: والإيمان على الإسلام درجة؟ قلت: نعم، قال: والتقوى على الإيمان درجة؟ قلت: نعم، قال: واليقين على التقوى درجة؟ قلت: نعم، قال: فما أوتي الناس أقل من اليقين وإنما تمسكتم بأدنى الإسلام فإياكم أن ينفلت من أيديكم[٧٠].
إنتبه جيداً إلى أن الإمام عليه السلام يقول لمثل أبي بصير: " احذر أن يفلت إيمانك المختصر من يدك " إذن أمثالنا نحن كم ينبغي أن نخاف ونحذر ونتضرع إلى الله باستمرار ليثبتنا ويكون ورد لساننا دائماً دعاء الغريق:
يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك[٧١].

---

[٦٧] - المصدر السابق.
[٦٨] - مضمون بيتين من الشعر الفارسي.
[٦٩] - أصول الكافي باب قلة عدد المؤمنين.
[٧٠] - المصدر السابق باب فضل الإيمان على الإسلام واليقين على الإيمان.
[٧١] - من أدعية عصر الغيبة رواه الشيخ الصدوق في كمال الدين / ٣٥٢.

يقول علي بن جعفر: سمعت أبا الحسن (الإمام الرضا) عليه السلام يقول: ليس كل من قال بولايتنا مؤمناً ولكن جعلوا أنساً للمؤمنين[٧٢] ".

كل الصحابة ما عدا ثلاثة، وعظمة المقداد:

عن حمران بن أعين قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك ما أقلنا (أي الشيعة) لو اجتمعنا على شاة ما أفنيناها فقال ألا أحدثك بأعجب من ذلك المهاجرون والأنصار ذهبوا إلا - وأشار بيده - ثلاثة قال حمران جعلت فداك ما حال عمار قال رحم الله عماراً أبا اليقظان بايع وقتل شهيداً فقلت في نفسي: ما شيء أفضل من الشهادة فنظر إلي فقال لعلك ترى أنه مثل الثلاثة أيهات أيهات[٧٣].

وفي رواية أخرى: قال: قال أبو جعفر عليه السلام: ارتد الناس إلا ثلاثة نفر سلمان وأبو ذر والمقداد قال فقلت عمار قال قد كان جاض جيضة ثم رجع ثم قال إن أردت الذي لم يشك ولم يدخله شيء فالمقداد، فأما سلمان فإنه عرض في قلبه أن عند أمير المؤمنين عليه السلام اسم الله الأعظم لو تكلم به لأخذتهم الأرض وهو هكذا! فلبب ووجئت عنقه حتى تركت كالسلقة فمر به أمير المؤمنين عليه السلام فقال له يا أبا عبد الله هذا من ذاك بايع، فبايع وأما أبو ذر فأمره أمير المؤمنين عليه السلام بالسكوت ولم يكن يأخذه في الله لومة لائم فأبى إلا أن يتكلم فمر به عثمان فأمر به ثم أناب الناس بعد فكان أول من أناب أبو ساسان الأنصاري وأبو عسرة وشتيرة وكانوا سبعة فلم يكن يعرف حق أمير المؤمنين عليه السلام إلا هؤلاء السبعة[٧٤].

[٧٢] - الكافي - باب قلة عدد المؤمنين.
[٧٣] - المصدر السابق نفس الباب.
[٧٤] - رجال الكشي في ترجمة سلمان (رضوان الله تعالى عليه) ومعنى لبب أخذ بتلابيبه أي بخناقه، ووجئت عنقه: ضربت حتى صارت كالسلقة وفي رواية كالسلعة وهي كالدملة، وجاض جيضة الواردة في عمار المشهور أنها حاص حيصة بالحاء المهملة. (المترجم).

أهل اليقين وإطاعة الإمام عليه السلام:

" عن مأمون الرقي قال: كنت عند سيدي الصادق عليه السلام إذ دخل سهل بن الحسن الخراساني فسلم عليه ثم جلس فقال له: يا ابن رسول الله لكم الرأفة والرحمة وأنتم أهل بيت الإمامة ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه، وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف فقال له عليه السلام: اجلس يا خراساني رعى الله حقك ثم قال: يا حنيفة اسجري التنور فسجرته حتى صار كالجمرة وابيض علوه ثم قال يا خراساني قم فاجلس في التنور فقال الخراساني يا سيدي يا ابن رسول الله لا تعذبني بالنار أقلني أقالك الله قال قد أقلتك فبينما نحن كذلك إذ أقبل هارون المكي ونعله في سبابته فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله فقال له الصادق عليه السلام: ألق النعل من يدك واجلس في التنور قال فألقى النعل من سبابته ثم جلس في التنور وأقبل الإمام عليه السلام يحدث الخراساني حديث خراسان حتى كأنه شاهد لها ثم قال قم يا خراساني وانظر ما في التنور قال فقمت إليه فرأيته متربعاً فخرج إلينا وسلم علينا فقال له الإمام عليه السلام: كم تجد بخراسان مثل هذا فقال لا والله ولا واحداً فقال عليه السلام: لا والله ولا واحداً فقال أما إنا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا، نحن أعلم بالوقت[٧٥] ".

علامات أخرى لأهل اليقين:

يجب أن تظهر من الموقن آثار اليقين بالأمور الإعتقادية ليعلم صدق يقينه وقد تقدم في بحث مجاري اليقين ذكر آثار اليقين الصادق ويتم التذكير هنا

[٧٥] - بحار الأنوار ٤٧ / ١٢٣ ومناقب ابن شهرآشوب ٤ / ٢٣٧.

ببعضها باختصار:

١ - الإعتقاد بالتوحيد الأفعالي واجب:

من جملة آثار اليقين التوحيد الأفعالي أن يعتقد بأن جميع أجزاء عالم الوجود كما أنها من حيث أصل الوجود من الله فإن آثارها وخواصها هي أيضاً من الله والمراد بالخواص كالبرودة والنداوة في الماء، والجفاف والحرارة في النار والضياء والحرارة في الشمس وهكذا سائر آثار المركبات.

بل إن جميع أفعال البشر الإختيارية حيث أنها متوقفة على إذن الله وإرادته والقضاء الإلهي فهي من هذه الجهة تستند إلى الله أي كما أنه لا تسقط ورقة من شجرة إلا بإذن ومشيئة وعلم الله تعالى فكذلك لا تخرج كلمة من فم إنسان بدون علم الله وإذنه وقد تقدم شرح التوحيد الأفعالي في بحث الشرك هنا - يجب العلم بأن اللازم تحصيل اليقين الصادق بهذا التوحيد وفي مئات الآيات في القرآن المجيد أمر بذلك وإذا توفر لشخص العلم بالتوحيد الأفعالي حقاً وأضاء قلبه بنوره فيصبح توكله على الله ويرضى - إذن - بقضائه ويسلم لأمره ويتخلص ببركة ذلك النور من شر الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق وينعم في مقابل ذلك بالطمأنينة والمحبة وحسن الخلق كما تقدم.

٢ - رزق كل مخلوق على الله:

ومن جملة آثار اليقين الصادق اليقين بأن الله تعالى تكفل برزق عباده " وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ". هود ٦.

يجب أن يكون صاحب اليقين الصادق موقناً بأن رزقه المقدر له سيصله ولا يستطيع مخلوق أن يحصل على أكثر مما قدر له وإذا صدق يقيناً في هذا

المجال أي استنار قلبه بنور اليقين حقاً وزال منه ظلام الوهم ينجو من شر الحرص ولا يأسف على شيء لم يصله - كما تقدم.

٣ - اليقين بالثواب والعقاب:

ومن جملة آثار اليقين الصادق اليقين بالثواب والعقاب أي اليقين بأن هناك جزاءاً على العقائد والأقوال والأفعال جميعاً.

" فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ". الزلزلة ٧ - ٨.

ويعلم بعلم اليقين أن نسبة الثواب إلى الطاعات كنسبة الشبع إلى الخبز أي كما أن الجائع يبحث عن الخبز ويحرص على العثور عليه وادخاره فإن طالب الثواب الإلهي حريص على الطاعات والإلتزام بها، ونسبة العقاب إلى الذنوب كنسبة السموم إلى الهلاك كما يهرب الإنسان من كل سم وهامّة قاتلة (كالحية) ينبغي أن يحذر من كل ذنب وباختصار عندما يضيء القلب بنور اليقين يصبح حريصاً على الطاعات مجداً فيها كما أنه يصبح شديد الحذر من الذنوب مراقباً باستمرار لأقواله وأفعاله خوف الهلاك.

وكلما زاد نور اليقين هذا كلما زاد هذا الحرص وهذا الحذر...

٤ - الله العالم معنا:

ومن جملة آثار اليقين الصادق بأن الله مع العبد دائماً وفي كل مكان وفي كل حال ومحيط به.

" وهو معكم أينما كنتم ". الحديد ٤.

ولا يخفى عليه شيء من السر والعلن " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ". غافر ١٩.

وهذا من المسلمات عند كل مسلم إلا أنه يجب تحصيل اليقين الصادق به بالتفصيل الذي تقدم.
ونتيجة اليقين بذلك أنه لا يبقى لديه فرق بين الخلوة والإجتماع (السر والعلن) ويصبح كلاهما لديه سواء فهو يرى نفسه دائماً في محضر السلطان الحقيقي والملك بحق العالم والناظر والقادر المطلق ولذا فهو يحذر في كل حال من أية حركة هي خلاف الأدب ولأنه يعلم أن باطنه عند الله علناً فإنه يسعى في إصلاح باطنه أكثر من سعيه في إصلاح ظاهره للناس.
جاء في سيرة المحقق الأردبيلي[٧٦] أنه طيلة أربعين سنة في آخر عمره لم يمد رجليه سواء كان وحده أو مع الناس، وحتى عند النوم وعندما سئل عن سبب ذلك كان يقول: أخجل من ذلك لأني في محضر الله. وقد ورد ذلك في

[٧٦] - هو آية الله الشيخ أحمد بن محمد الأردبيلى الآذربيجاني لا تذكر المصادر سنة ولادته وتوفي في شهر صفر سنة ٩٩٣ هـ وكان الشيخ البهائي معاصراً له، قال عنه الشيخ عباس القمي رضوان الله عليه: أمره في الثقة والجلالة والفضل والنبالة والزهد والديانة والورع والأمانة أشهر من أن يحيط به قلم أو يحويه رقم، كان متكلماً فقيهاً عظيم الشأن جليل القدر رفيع المنزلة أورع أهل زمانه وأعبدهم وأتقاهم وكفى في ذلك ما قاله العلامة المجلسي رحمه الله: والمحقق الأردبيلي في الورع والتقوى والزهد والفضل بلغ الغاية القصوى ولم أسمع بمثله في المتقدمين والمتأخرين جمع الله بينه وبين الأئمة الطاهرين: الكنى والألقاب ج ٣ / ١٦٦.
وفي عدة من أمهات المصادر بسند صحيح خبر تشرفه بخطاب أمير المؤمنين عليه السلام وسماعه جوابه... وتكرر ذلك وكذلك خبر تشرفه بلقاء صاحب العصر والزمان عجّل الله فرجه الشريف، راجع في ذلك روضات الجنات ج ١ / ٨٢ وبحار الأنوار ج ٥٢ / ١٧٤ والأنوار النعمانية وقصص العلماء للتنكابني، ولؤلؤة البحرين والنجم الثاقب. (المترجم).

سيرة عدة أشخاص آخرين وفي سيرة أحدهم أنه على فراش الموت لم يرض أن يمدوا رجليه وكان يقول: أمضيت عمراً لم يصدر مني فيه سوء أدب في محضر ربي والآن وأنا مشرف على الموت كيف أسيء الأدب... وفي حال الإحتضار مدوا رجليه باتجاه القبلة فاعتذر قائلاً: إلهي لأنك أمرت بذلك فقد رضيت ونقل عن آخر أنه لم يكن يرفع صوته وكان يقول: الصوت المرتفع في محضر السلطان الحقيقي خلاف الأدب.

أيها القاريء العزيز: قارن بين أحوال هؤلاء العظماء وبين الأشخاص الذين ينطقون في محضر إله العالمين بالألفاظ القبيحة والمنافية والمشينة وافهم من هنا التفاوت بين أهل اليقين وغيرهم.

استغفار المعصومين سببه ترك الأدب:

ومما ذكر يتضح أمر آخر مهم نذكره هنا رغم أنه خارج عن بحثنا من أجل التنوع في مضامين الكتاب وهو موضوع ذنب المعصومين وما وصلنا من تحرقهم واستغاثتهم واستغفارهم، مع أنهم قطعاً لم يصدر منهم أي ذنب، إذن كان بعض بكائهم وتضرعهم بسبب انشغالهم بالأمور المباحة الضرورية كالأكل والنوم، وكانوا يرون الإشتغال بذلك في محضر رب العالمين خلاف الأدب ولأنه لم يكن لهم بد منه بمقتضى جانب البشرية فيهم فإنهم كانوا يطلبون العذر كما يفهم ذلك من مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام التي ينقلها أبو الدرداء وفيها:

" ليت شعري في غفلاتي وكثرة منامي كيف حالي أأنت معرض عني أم ناظر إلي ".

وأيضاً فإن سبب بعض هذه التضرعات والإستغفارات هو الحالات التي لم يكن يحصل فيها الإستغراق التام أي التوجه المناسب لله تعالى بحيث يغفل الإنسان عن نفسه مطلقاً ولا يكون له توجه إلا إلى الله يقول سيد الشهداء عليه

السلام في دعاء عرفة: " من كانت محاسنه مساويء فكيف لا تكون مساوئه مساويء ".
ويقول ابنه الإمام السجاد عليه السلام:
زادي قليل لا أراه مبلغي أللزاد أبكي أم لبعد مسافتي

الأخلاق الحسنة أغصان شجرة اليقين:

وكل قلب أضاء بنور اليقين بحضور الحق تعالى فستوجد فيه الصفات الكمالية (الحياء، الخوف، الأمل، انكسار القلب، الخشوع) وهذه الأخلاق الفاضلة سبب لأنواع الطاعات والعبادات.
في الحقيقة أن اليقين في كل من الموارد المذكورة (تحت عنوان علامات أهل اليقين) كشجرة، الأخلاق الحميدة أغصانها، والطاعات والعبادات التي هي آثار تلك الأخلاق، بمثابة الأوراق والثمر لتلك الشجرة.
وبهذا يتضح جيداً أن أساس جميع الخيرات والسعادات هو اليقين.
فمن وفق لمجالسة أهل اليقين فليعرف قدر ذلك وليغتنم فرصته، وشرط الإستفادة من مجالستهم الحذر من مصاحبة أهل الجهل والشك والوسوسة، كما أن على من لم يوفق للحصول على أهل اليقين أن يهرب من مصاحبة ضدهم.
" إن لم توفق لصحبة الجيدين فاهرب من صحبة السيئين[٧٧] ".
لأن صحبتهم تزيد في مصاحبهم شكه وسائر عيوبه بل تنتقل إليه بعض

[٧٧] - مضمون بيت شعر فارسي.

العيوب التي لم تكن فيه ومن هنا جاء النهي في الآيات والروايات عن مجالسة الأشرار.
" فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفَّنَّك الذين لا يوقنون . الروم ٦٠.
من هذه الآية يعلم بوضوح أن مجالسة من لا يقين عندهم سبب في حقارة الشخص وضعته ولإنزاله في النتيجة من مقام الإنسانية الشامخ ودرجات الروحانية الرفيعة وتبطل نفع آثار اليقين العظيمة فالصبر على الوحدة أفضل من مصاحبة من لا يقين له.
" ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبع هواه وكان أمره فرطاً ". الكهف ٢٨.
" فلا يصدّنّك عنها (القيامة) من لا يؤمن بها واتَّبع هواه فتردى ". طه ١٦.
" فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ". الأنعام ٦٨.

ابتعد عن الغافلين وإلا فأنت منهم:

في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابنه: " بائن أهل الشر ومن يصدك عن ذكر الله عز وجل وذكر الموت بالأباطيل المزخرفة والأراجيف الملفقة (وإلا) فأنت منهم[٧٨] ".
ويقول الإمام الصادق عليه السلام: " انظر إلى كل ما لا يعنيك منفعة فلا تعتدن به ولا ترغبن في صحبته فإن كل ما سوى الله مضمحل وخيم عاقبته[٧٩] ".

---

[٧٨] - من لا يحضره الفقيه.
[٧٩] - قرب الإسناد.

ومن كلام علي عليه السلام: " إياك ومعاشرة الأشرار فإنهم كالنار مباشرتها تحرق[80] ". " وإياك ومعاشرة متتبع عيوب الناس فإنه لم يسلم مصاحبهم منهم " " إياك ومصادقة الكذاب فإنه يقرب عليك البعيد ويبعد القريب " " إياك ومصاحبة أهل الفسوق فإن الراضي بفعل قوم كالداخل معهم " " شرّ إخوانك وأغشُّهم لك أغراك بالعاجلة وألهاك عن الآجلة ".
" صحبة الأشرار تكسب الشر كالريح إذا مرت بالنتن حملت نتناً " " مجالسة أبناء الدنيا منسأة الإيمان قائدة إلى طاعة الشيطان " " مصاحبة الجاهل من أعظم البلاء ".
وقد قال الإمام السجاد عليه السلام لابنه الباقر عليه السلام: " يا بني انظر خمسة فلا تصاحبهم ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق وهم الكذاب والفاسق والأحمق وقاطع الرحم والبخيل[81] ".

بدون تحمل المشقة لا سبيل إلى الكنز:

كما أن المقامات والمراتب الدنيوية كلما كانت أكبر وأهم تستدعي مشقة أكبر ومعاناة أكبر مثلاً مشقة الوصول إلى الرئاسة في قرية أو ناحية لا مجال إلى مقارنتها بالمشقة للوصول إلى رئاسة مدينة أو دولة.
كذلك من تكون همته متعلقة بالوصول إلى مقام اليقين وسائر المقامات الروحية ومصاحبة آل محمد عليهم السلام يجب عليه أن يعلم أنه بدون المشقة لا سبيل إلى الكنز.
من الممكن أن يصل الإنسان إلى مقام دنيوي بدون تعب أما مقامات

---

[80] - الغرر للآمدي.
[81] - الكافي.

الآخرة فليست كذلك ولا يمكن أن تحصل بدون تعب ومشقة (إلا أن يشاء الله) كما قال تعالى:
" وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنَّ سعيه سوف يرى ". النجم ٣٩ - ٤٠.
" ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ". الإسراء ١٩.
" والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنَّ الله لمع المحسنين ". العنكبوت ٦٩.
والآيات والروايات في أنه لا يصل أحد إلى درجات الآخرة بدون مجاهدة كثيرة.

إذن يجب جهاد النفس:

بناءاً عليه يجب تأجيل السعادة والإستقرار إلى العالم الباقي والصبر في هذه المدة القليلة في العالم الفاني على المشقة والمحنة ومخالفة النفس وأهوائها ويجب الإبتعاد عن الشهوات الحيوانية واللذائذ المباحة لأن الإنغماس في ذلك موجب للأنس بالدنيا ونسيان الآخرة ونتيجة ذلك التقصير في تهيئة زاد الآخرة إلى أن يصل الأمر إلى الرضا بالدنيا وكأنه ليس مسافراً، وكأنه لا وجود لعالم آخر له، ويصبح لا يصدق بعالم آخر " أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ". براءة ٣٨.
يقول سيد المجاهدين وإمام المتقين أمير المؤمنين صلوات الله عليه:
- " أفضل الجهاد جهاد النفس عن الهوى وفطامها عن لذات الدنيا.
- أول الحكمة ترك اللذات وآخرها مقت الفانيات.

- حرام على كل قلب متوله بالدنيا أن تسكنه التقوى.
- رأس الآفات الوله باللذات.
- عجبت لمن عرف سوء عواقب اللذات كيف لا يعف.

وحقاً... إذا تدبر عاقل في العواقب الوخيمة لملذات الدنيا أي التخمة (كثرة الأكل) للمآكل اللذيذة والإفراط في الأمور الجنسية والحرص في جمع المال وطلب الرئاسة وحب الشهرة، وتدبر في أحوال أولئك الذين كان هذا دأبهم والمصائب والنكبات التي نزلت بهم... إذا تدبر في ذلك جيداً فإنه يصرف النظر عن كل ذلك " ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم (...) ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول: يا فلانة لإحدى أزواجه غيبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينيه لكيلا يتخذ منها رياشاً ولا يعتقدها قراراً[٨٢] ".

يهدم عقله بيده:

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

" من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله، من أظلم نور تفكره بطول أمله ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه وأطفى نور عبرته بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه[٨٣] ".

الهدف أن يتذكر القاريء أنه لا يصل إلى هدفه عن طريق عبادة الهوى واتباع الأهواء النفسية وإذا تخيل أن باستطاعته الوصول إلى المراتب الروحية في

---

[٨٢] - نهج البلاغة خ ١٦٠.

[٨٣] - الكافي.

الآخرة بدون جهاد النفس فإن ذلك خيال واهٍ وأمنية باطلة وهي بخلاف نص القرآن المجيد وحكم العقل لأن عبادة الله وعبادة الهوى ضدان لا يجتمعان.

لو كان عبداً لما كان هذا سلوكه:

جاء في كتاب مجالس المؤمنين وغيره في أحوال بشر الحافي أن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام كان يسير في بغداد وعندما وصل إلى باب بيت بشر كان صوت الغناء والطرب من بيته مرتفعاً، وفي هذه الأثناء خرجت جارية من المنزل فقال لها الإمام عليه السلام: صاحب هذا البيت حرٌّ أم عبد قالت حر وله غلمان وعبيد قال: بلى إنه حر (أي من عبوديته لله) ولو كان عبداً لما كان هكذا، وعندما عادت الجارية إلى المنزل سألها بشر: مع من كنت تتكلمين: فأخبرته بما قال الإمام فركض بشر حافياً ولحق بالإمام وتاب على يديه " وأصبح من عباد الله[٨٤] ".

بالعبودية فقط رضا الله:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته تقدم ذكر بعض فقراتها: " أفبهذا (التحلل وعدم الورع والمعاصي) تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه وتكونوا أعز أوليائه عنده هيهات لا يخدع الله عن جنته (أي لن يدخل الجنة أحد إلا بالتقوى الحقيقية) ولا تنال مرضاته إلا بطاعته[٨٥] ".

" أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ". الجاثية ٢٣.

عبادة الهوى هي أن تكون حركة الجوارح والأعضاء وسكونها وفق رغبة

---

[٨٤] - مجالس المؤمنين ٢ / ١٢ وأعيان الشيعة ج ٣ / ٥٧٩ ط. دار التعارف وليلاحظ أن النص هنا مترجم عن الفارسية وكذلك فعل في الأعيان حيث ترجم نص مجالس المؤمنين.

[٨٥] - نهج البلاغة ١٩٢.

النفس مثلاً بمجرد أن يرغب في النظر إلى وجه ينظر إليه ولو كان ذلك حراماً وبمجرد أن يرغب في سماع صوت يصغي إليه فوراً دون التفكير في أن ذلك حلال أم حرام وبمجرد أن يريد شيئاً يمد يده إليه فوراً أو إذا أراد الذهاب إلى مكان يذهب إليه بحيث أنه إذا قال له أحد لماذا فعلت الشيء الفلاني يقول: أحببت ذلك خطر ببالي أي أنا مطيع هواي وعبد له وكل ما أراده هواي أردته.

وعبادة الله هي أن يكون الحاكم على وجوده هو الله فلا ينظر إلا إذا كان ذلك يرضي الله ولا يستمع إلى كلام إلا إذا كان أذن الله به ولا يمد يده إلى شيء إلا إذا كان الله يريد ولا يذهب إلى مكان لا يرضى الله بالذهاب إليه بحيث إذا سئل لماذا فعلت الشيء الفلاني يقول: إنه أمر الله وإذا سئل لماذا لم تفعل الشيء الفلاني يقول إنه نهي الله.

موانع تحصيل اليقين:

كما تقدم فإن مقام اليقين هدف عظيم وجليل جداً وعليه فإن موانع الوصول إليه كذلك صعبة وكثيرة وكيف يمكن الوصول إلى الهدف بدون المجاهدة وإزالة هذه الموانع والقضاء عليها ولأجل معرفة هذه الموانع تذكر هنا هذه الأبيات الشعرية التي ذكرت فيها موانع تحصيل اليقين لتبقى في ذهن القاريء:

ما لم تبعد نفسك عن الموانع فلن يدخل النور إلى داخل بيتك ولأن الموانع في هذا العالم أربعة فالطهارة منها أيضاً أربعة الأول الطهارة من الأحداث[٨٦] والأنجاس[٨٧] والثاني الطهارة من

[٨٦] - الأحداث: الحدث الأصغر الموجب للوضوء والأحداث الكبيرة الموجبة للغسل.
[٨٧] - الأنجاس: النجاسات البول، الغائط، المني، الدم، الميتة، الكلب، الخنزير، المسكر المائع، الكافر، عرق الإبل الجلالة.

المعصية[88] وشر الوسواس[89].
الثالث الطهارة من الأخلاق الذميمة[90] التي يصبح معها الإنسان كالبهيمة.
الرابع طهارة السر[91] من الغير وهنا ينتهي بك السير كل من حصل على هذه الطهارات أصبح جديراً بالمناجاة عندما تصبح ذاتك طاهرة من كل هذا الشين تصبح صلاتك عندها قرة العين[92].
والخلاصة إن هذه الموانع جميعاً هي عبارة عن عبادة الهوى لا غير وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في بحث الشرك في العبودية وتذكر هنا عدة روايات أخرى، عن الإمام الصادق عليه السلام: " احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم[93] ".
" لا تدع النفس وهواها فإن هواها في رداها وترك النفس وما تهوى داؤها

[88] - المراد بالمعصية ترك الواجب أو فعل الحرام بالتفصيل المذكور في الذنوب الكبيرة.
[89] - شرالوسواس: الخواطر الشيطانية السيئة التي تخطر في القلب سواء في أصول العقائد أو الفروع العملية كالوسوسة في الصلاة كلها يجب عدم الإعتناء بها لينجو من شرها وإذا اهتم بها وتابعها هلك.
[90] - بالتفصيل المذكور في كتب الأخلاق كمعراج السعادة أو المذكور في القسم الثاني من هذا الكتاب باختصار.
[91] - أي أن لا يكون في القلب غير الحق تعالى ولا يتحقق ذلك إلا إذا أدرك أنه لا يستحق الحب إلا الله وما عداه باطل " كل شيء هالك إلا وجهه " وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أصدق شعر العرب في الجاهلية قول لبيد:
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل ".
[92] - إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: - قرة عيني الصلاة-.
[93] - الوافي نقلاً عن الكافي باب اتباع الهوى.

وكف النفس عما تهوى دواؤها[٩٤] ".
" أبعد ما يكون العبد من الله إذا لم يهمه إلا بطنه وفرجه[٩٥] " من المحتم إذن على طالب السعادة أن يلقي في عنقه طوق العبودية لخالقه ويتحكم بنفسه ويضبط تصرفاتها أي يجعل جميع حركاته وسكناته طبق إرادة الله لينال " مقام " العبودية لله وإذا أصبح كذلك فقد وصل إلى السلطنة الحقيقية أي " كل ما أراده فإنه يتحقق ".
والشخص الذي يهرب من العبودية لله ويريد واهماً أن يعيش حراً ويتصرف وفقاً لميوله، يجب أن يعلم أنه إذا هرب من عبودية الله فقد ابتلي بعبودية النفس والشيطان كما تقدم في بحث الشرك: " كل من يهرب من ضرائب الشاه فقد أصبح حمالاً لغول الصحراء[٩٦] ".

الفوز العظيم:

ونختم القسم الأول من هذا الكتاب بتلخيص نهائي لهذه الأبحاث:
يجب أن لا يكون في القلب غير الله أي لا يخشى الإنسان من أي موجود ولا يكون له أمل بأي موجود وأن لا يضطرب لأي زيادة أو نقيصة، أن لا تكون له علاقة قلبية على نحو الإستقلال بغير محبته ولأي مخلوق كان، أي أنه إذا كان يحب شيئاً فذلك من أجل حب الله وهذا يعني ترك كل شخص وكل شيء والإنصراف عنه والتعلق بربه فقط وقد ورد التذكير به في عدة موارد من القرآن المجيد وفي سورة المزمّل ٧٣ يقول تعالى: "وتبتل إليه تبتيلاً " قال في تفسير المنهج: انقطع عن جميع الخلائق وتوجه نحو الله بالطاعة والعبادة وليكن

---

٩٤ - المصدر السابق.
٩٥ - المصدر السابق.
٩٦ - أي يحمل نفسه ليقدمها لغول الصحراء وهذا مضمون بيت من الشعر الفارسي.

انقطاعك كاملاً أي جرد نفسك من التفكير بما سواه وأقبل كلياً بقلبك عليه ومن هنا سميت سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام بالبتول لأنها كانت منقطعة كلياً عما سوى الله مشتغلة في جميع أوقات الليل والنهار بوظائف الطاعات والعبادات.
المراد من التبتيل الذي هو بمعنى الإنقطاع كلياً إلى الله هو أن لا يعلق قلب الإنسان بنفسه أو بأي شخص أو شيء أو مكان ويتعلق فقط بخالق العالم أي أولاً يترك حظوظ نفسه (الميول والرغبات والمشتهيات): ويفرح بما أعطاه الله ويعطيه.
وثانياً: إذا كان ما زال أسير النفس ولم يستطع أن يترك حظوظ نفسه فلا يكن له في طريق الوصول إلى أهدافه طمع ولا أمل بأي مخلوق وليتذكر حالة الجميع الأولى حيث كانوا قبضة من تراب وحالتهم الأخيرة عندما يرجعون قبضة من تراب.
وليدرك عندها أن هذه الإستطاعة الجزئية المؤقتة التي هي في الأشياء ليست من ذواتها بل هي كلها من خالقها الذي منه أصل وجود هذه الأشياء وهي مرتبطة به وتابعة له... والخلاصة: ليعتبر أن الجميع بلا فائدة، ولا نفع، ولا استقلال لهم، ثم يعلم موقناً أنه في مجال الوصول إلى أية أمنية يجب أن يكون متوجهاً إلى الخالق، وإذا أراد هو فسيصل إلى ما تمنى إما عن طريق ذلك السبب العادي أو بدون سبب وإذا لم يرد هو فلن يصل إلى أمنيته ومهما تذلل لأي سبب يراه مؤثراً فإنه لن يحصل على نتيجة.
إذن في الوصول إلى أي نفع يجب أن ينقطع عن كل سبب وينصرف عنه ويكون تعلق قلبه بالله ويطلب منه، وهكذا عند كل ضرر وشر ولا يخاف من أي صاحب شر ويدرك أن الجميع مقهورون لرب الأرباب جل شأنه فإذا أراد هو

أن يصل ضرر إلى الشخص وصل وإذا لم يرد فلا يستطيع (صاحب الشر) أن يفعل شيئاً ومن هنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " لا يرجُوَنّ أحد منكم إلا ربه ولا يخافن أحد منكم إلا ذنبه " أي من خلاف الأدب وخلاف واجب العبودية لله الذي يصدر منكم، من ذلك خافوا فقد يكون سبباً لوصول الشر والضرر إليكم. والخلاصة معنى التبتيل قطع علاقة القلب عن غير الله وربط القلب وخشوعه فقط لله وإذا أصبحت هذه الحالة من نصيب الشخص يستجاب دعاؤه ويقول الشاعر: " يا صاحب القلب الواحد الذي صار مائة واحد قلبك أخرج من قلبك حب الآخر.
قف لحظة بإخلاص على بابنا وإذا لم يتحقق طلبك فلك أن تعتب ".
في كتاب لآليء الأخبار / ١٤٩: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه فلييأس من الناس كلهم ولا يكون له رجاء إلا من عند الله فإن عرف الله ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.
وهذا الإنقطاع إلى الله هو الإضطرار إلى الله الذي جاء الوعد في القرآن المجيد بإجابته قال تعالى: " أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ". النمل ٦٢.
ومن الجدير بالذكر أن لحالة الإنقطاع والإضطرار إلى الله مراتب باعتبار الدرجات والمعرفة ومرتبتها العالية في المعصوم ومن هنا يعلم الوجه في أن من ألقاب صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه، المضطر وفي دعاء الندبة " أين المضطر الذي يجاب إذا دعا ".
أي أين من هو منقطع عن الجميع وهو مضطر إلى الله فقط وكلما دعاه أجابه، ويقول الإمام السجاد عليه السلام: " نحن المضطرون الذين وعدت إجابتهم "

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: " من لي غيرك أسأله كشف ضري والنظر في أمري ".
وفي المناجاة الشعبانية:
" إلهي هب لي كمال الإنقطاع إليك ".
إلهنا بمقام محمد وآل محمد منّ علينا بنصيب من مقام الإنقطاع.
ومن هنا يعلم أن أمثالنا المحرومين من الإنقطاع إلى الله المبتلين بالحجب الظلمانية إذا استجاب الله الكريم بعض أدعيتنا وأبلغنا آمالنا وطلباتنا فإن ذلك فضل كبير يمن الله به علينا ببركة التوسل بمحمد وآل محمد عليهم السلام وإلا فإن دعاءنا لا يستحق الإجابة.
جاء في كتاب گلزار أكبري / ١٤٧ عن كتاب " رونق المجالس للنيشابوري " أن تاجراً في الكوفة كان عليه دين كبير، واختبأ في بيته خوفاً من مطالبة الدائنين، وذات يوم وعند منتصف الليل خرج من بيته متوجهاً إلى مسجد في أطراف الكوفة وأخذ يصلي ويدعو ويتضرع إلى الله الغني في أداء دينه، وفي نفس الوقت " قالوا " لتاجر غني جداً آخر في النوم خارج بيتك شخص يشكو إلى الله من دينه قم وأدِّ دينه استيقظ وتوضأ وصلى ركعتين ثم نام فسمع أيضاً النداء، وهكذا في المرة الثالثة فقام وأخذ ألف درهم وركب ناقته وقال: من أمرني في النوم بهذا سيوصلني حتماً إلى ذلك الشخص ومشى بناقته في أزقة الكوفة إلى أن وصل إلى باب ذلك المسجد فسمع صوت البكاء والإستغاثة، دخل المسجد وقال للمدين: استجيب دعاؤك إرفع رأسك وأعطاه الألف درهم قائلاً: أدِّ دينك وأنفقها على عيالك وإذا نفذ هذا المبلغ فهذا اسمي وعنواني... قال المدين: أقبل هذا منك لأنه عطاء ربي، لكني إذا احتجت مجدداً فلن آتي إليك قال إلى من تذهب، قال إلى ذلك الذي

طلبت منه الليلة حاجتي وأرسلك لقضائها، إذا احتجت أيضاً فسأطلب منه ليرسلك ويصلح أمري.

الهدف من نقل هذه القصة بيان حالة الإنقطاع إلى الله التي تقضى عندها الحاجة.

في سورة فصلت يقول تعالى: " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة (عند الموت) ألا تخافوا ولا تحزنوا (فإن مستقبلكم مشرق) وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم " وقد تقدم ذكر بعض هذه الآيات في بحث الشرك والهدف من تكرارها في هذا المقام تذكير القارىء العزيز بجملة " ربنا الله ثم استقاموا " وأن المقصود ليس قول " ربنا الله " باللسان فقط بل المقصود التصديق بحقيقة ومعنى هذا الكلام.

توضيح ذلك: أن رب بمعنى المربي وقوله تعالى " ربنا " أي ليس مربي أنا فقط بل إن المربي لي ولجميع أجزاء عالم الخلقة هو الله، ولأن الجملة اسمية وتقديم الخبر على المبتدأ يدل على الإنحصار فيصبح المعنى هكذا:

وحده الله رب جميع المخلوقات الذي منه خلقنا وتربيتنا نحن وجميع الأشياء " ثم استقاموا " أي ثبتوا وأقاموا على هذه الحقيقة التي علموها واهتدوا إليها وصدقوا بها، وظلوا في كل وقت وفي كل مكان وحال إلى ساعة الموت على هذه العقيدة القلبية ولم يخضعوا ويخشعوا إلا للرب تعالى ولم يمرغوا أنوفهم عند أحد كائناً من كان ولم يمدوا أيديهم للتخلص من ضرر أو الوصول إلى نفع إلا إلى باب الغني جل جلاله ولم يتملقوا لأي مخلوق، واعتقدوا حقاً أن كل شيء يمتلك حظاً من كمال الوجود فإنما امتلكه من الله ونسبوا ذلك

إلى الله: خلقة العالم، ورزق المرزوقين وإحياؤهم وإماتتهم وشفاء المرضى والثروة والعزة وباختصار يعتقدون أن العطاء والمنع وكل شيء هو منه تعالى... وفي النتيجة فإن (اعتمادهم واستنادهم) إلى رب الأرباب وخضوعهم وتذللهم لربهم لا غير ولا يتذللون لأي مخلوق بأي وجه من الوجوه ولا يأملون إلا رحمته ولا يخافون إلا غضبه ولا يطمعون إلا بما عنده ولا يمسحون رؤوسهم إلا على أعتابه وبكلمة يجعلون أنفسهم خالصة علماً وعملاً لله تعالى وهذا معنى ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له.

يقول السيد ابن طاووس في فلاح السائل / ٢٧٣:

إن أعرابياً جاء إلى باب المسجد الحرام فترك ناقته وقال ما معناه: اللهم هذه الناقة وما عليها في حفظك ووديعتك ودخل وطاف وخرج فلم يجد الناقة فوقف يقول ما معناه: يا رب ما سرق مني شيء وإنما سرق منك لأنني لولا ثقتي بك أنك تحفظ علي ناقتي ورحلي ما تركتها ويكرر أمثال هذا والناس يتعجبون من حديثه مع الله عز وجل وإذا الناقة بيد رجل ويده الأخرى مقطوعة وقال للأعرابي: خذ ناقتك ما أصبت منها خيراً قال: كيف؟ قال تواريت بها وراء الجبل فإذا فارس قد نزل لا أدري من أين وصل فأزعجني وقطع يدي وأمرني بإعادتها[٩٧].

[٩٧] - لا منافاة بين هذا وبين " اعقل وتوكل " فلعله عقل ناقته وربطها ومع ذلك سرقت ثم إن للموحدين الحقيقيين حالات لا نحتملها ومنشأ استغرابنا لها ليس " العقل " السليم بل العقل الصريع تحت بروق المطامع.

يقول السيد ابن طاووس بعد نقل قصة الأعرابي هذه: " ما أودعت الله جل جلاله شيئاً فضاع ولو كان قد ضاع شيء مما أودعته لأجل ذنب يكون قد جنيته فإني إذا طلبت من رحمته إعادة وديعته ردها علي... " (المترجم).

الهدف من نقل هذه القصة بيان نموذج من الإنقطاع إلى الله والإستقامة على حقيقة " ربنا الله " وأنه يجب أن يكون الإعتماد في جميع الأمور على الله، ومنه يطلب كل شيء[٩٨].
ومن الجدير بالذكر أن الإستقامة في غاية الصعوبة إلا إذا منّ الله بها، وبناءاً عليه يجب أن تُطلب هي أيضاً منه سبحانه وإذا انحرف الإنسان عن صراط العبودية فعليه أن يرجع بالتوبة والإنابة إلى صراط التوحيد والعبودية المستقيم.
" وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ". الشورى ٢٥.

نهاية القسم الأول العقائد وقد وقع الفراغ من ترجمته في بيروت صبيحة الإثنين بتاريخ ٢١ ذ. ح ١٤٠٩ هـ على مهاجرها وآله أفضل الصلاة والسلام.

[٩٨] - إذا مددت يد الحاجة فمدها إلى الله فإنه كريم ورحيم وغفور وودود، الجميع من الثرى إلى الثريا منشغلون بعبادته بالذكر والمناجاة والقيام والقعود كرمه لا يتناهى نعمه لا تحصى ولا يرجع طالب عن هذا الباب دون حصول المقصود.
(ترجمة ثلاثة أبيات من الشعر الفارسي).

الفهرس

الموضوع

القسم الأول: العقائد